نوع گزارش :نمایش متن
روز:١٣٨٧/٧/٢٥ ساعت:١٨:١٨

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ٢

[الجزء السابع]

السفر الثالث

القسم الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

[تتمة الفن الأول في أحوال المبدإ و صفاته]

الموقف السابع من السفر الثالث في أنه تعالى متكلم و المعارف التي سنخ لنا في تحقيق الكلام و الكتاب و الفرق بينهما حسبما أفاده الله بالإلهام و فيه فصول

الفصل (١) في تحصيل مفهوم التكلم

اعلم أن التكلم مصدر صفة نفسية مؤثرة لأنه مشتق من الكلم

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ٣

و هو الجرح و فائدته الإعلام و الإظهار فمن قال إن الكلام صفة المتكلم

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ۴

أراد به المتكلمية و من قال إنه قائم بالمتكلم أراد به قيام الفعل بالفاعل- لا قيام العرض بالموضوع و من قال إن المتكلم من أوجد الكلام أراد من الكلام في الشاهد ما يقوم بنفس المتكلم بحركة فاه لا بسكونه و هو الهواء الخارج من جوف المتكلم من حيث هو متكلم لا ما هو مباين له مباينة الكتاب للكاتب و النقش للنقاش و إلا فيكون كتابة و تصويرا لا تكلما و تقريرا.

قال بعض العارفين أول كلام شق أسماع الممكنات كلمة كن و هي كلمة وجودية

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ۵

فما ظهر العالم إلا بالكلام بل العالم كله أقسام الكلام بحسب مقاماته و منازله الثمانية و العشرين في نفس الرحمن و هو الفيض الوجودي المنبعث عن منبع الإفاضة و الرحمة و الممكنات مراتب تعينات ذلك الفيض الوجودي و الجواهر العقلية حروف عاليات و هي كلمات الله التامات التي لا تبيد و لا تنقص و الجواهر الجسمانية مركبات اسمية- و فعلية قابلة للتحليل و الفساد و صفاتها و أعراضها اللازمة و المفارقة كالبناء و الإعراب- و الجميع قائمة بالنفس الرحماني الوجودي الذي يسمى في اصطلاحهم بالحق المخلوق به كما أن الحروف و الكلمات قائمة بنفس المتكلم من الإنسان المخلوق على صورة الرحمن بحسب منازله و مخارجه

الفصل (۳) في تحصيل الغرض من الكلام

اعلم أن الغرض الأول للمتكلم في إرادة الكلام إنشاء أعيان الحروف و الكلمات و إيجادها من الضمير في المخارج و هو عين الإعلام و أما ترتب الأثر على الأمر و النهي و الإخبار و التمني و النداء و الاستفهام و غير ذلك فهو مقصود ثان و غاية ثانية غير الإعلام و هذه المغايرة إنما يتحقق في بعض أقسام الكلام لأن الكلام على ثلاثة أقسام أعلى و أوسط و أدنى فأعلى الأقسام ما يكون عين الكلام مقصودا أوليا بالذات و لا يكون بعده

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۶

مقصود أشرف و أهم منه لكونه غاية لما بعده و هذا مثل إبداعه تعالى عالم أمره بكلمة كن لا غير و هي كلمات الله التامات و الإنيات العقليات التي لا تبيد و لا تنقص و سنقيم البرهان على وجودها في مستأنف القول إن شاء الله و ليس الغرض من إنشائها منه تعالى سوى أمر الله و لأجل ذلك قال الفيلسوف الأكرم في كتاب أثولوجيا إن ما هو و لم هو في المفارقات شيء واحد يعني ما هو نفس حقيقتها فهو نفس كمالها و غايتها و فيه سر ما لوحناك إليه من قبل.

و أوسطها ما يكون لعين الكلام مقصود آخر غيره إلا أنه يترتب عليه على وجه اللزوم من غير جواز الانفكاك بحسب الواقع و ذلك كأمره تعالى للملائكة السماوية و المدبرات العلوية الفلكية أو الكوكبية بما أوجب الله عليهم أن يفعلوا من التدبيرات و التحريكات و الأشواق و العبادات و النسك الإلهية لغايات أخرى عقلية فلا جرم- **لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ** فينالون نصيبهم من فائدة إنزال الكلام عليهم كما ستعلم و كذلك ملائكة الطبائع الأرضية و الأجسام العنصرية من مدبرات الجبال و البحار و المعادن و السحب و الرياح و الأمطار فإن أمر الله إذا وصل إليهم إما بلا واسطة أو بواسطة أمر آخر لا بواسطة خلق فإنهم يطيعون أمر الله و لا يتمردون و في قوله تعالى **وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ*** حيث لم يقل بما يؤمرون إشارة لطيفة إلى هذا القسم من الكلام.

و أدناها ما يكون لعين الكلام مقصود آخر و لكن قد يتخلف عنه و قد لا يتخلف- و فيما لا يتخلف أيضا إمكان التخلف و التعصي إن لم يكن هناك عاصم من الخطاء و العصيان و هذا كأوامر الله و خطاباته للمكلفين و هم الثقلان الجن و الإنس بواسطة إنزال الملك و إرسال الرسول و هما أعني الثقلين مخلوقان في عالم الأحداث و التركيب و عالم الأضداد و الأنداد و التعاند و التفاسد ففي هذا القسم من الكلام و هو الأمر بالواسطة يحتمل الطاعة و العصيان فمنهم من أطاع و منهم من عصى و أما الأمر مع عدم الواسطة أو بواسطة أمر آخر فلا سبيل إلا الطاعة فأعلى ضروب الكلام هو الأمر الإبداعي- **وَ ما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ** و هو عالم القضاء الحتمي **وَ قَضى‏ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ** و الأوسط هو الأمر التكويني و هو عالم القدر **إِنَّا كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلَقْناهُ**

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۷

بِقَدَرٍ و الإنزال هو الأمر التشريعي التدويني **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً**

تمثيل

إن الإنسان الكامل لكونه خليفة الله مخلوقا على صورة الرحمن و هو على بينة من ربه- توجد فيه هذه الأقسام الثلاثة من ضروب الكلام و المكالمة و ذلك لكمال نشأته الجامعة لما في عالم الخلق و الأمر ففيه الإبداع و الإنشاء و فيه

التكوين و التخليق و فيه التحريك للآلة و التصريف بالإرادة فأعلى ضروب مكالمته و استماعه هو مكالمته مع الله بتلقي المعارف منه و استفادة العلوم من لدن حكيم عليم و استماعه بسمعه القلبي المعنوي الكلام العقلي و الحديث القدسي من الله و هو إفاضة العلوم الحقة و المعارف الإلهية- و كذلك أيضا يصير متكلما بعد أن كان مستمعا بالكلام الحقيقي إذا خرج جوهر ذاته من حد العقل بالقوة إلى حد العقل بالفعل و هو العقل البسيط الذي شأنه إفاضة العلوم التفصيلية على النفس متى شاء من خزانة ذاته البسيطة فهو بما صار عقلا بسيطا قد صار ناطقا بالعلوم الحقة متكلما بالمعارف الحقيقية فليس لكلامه هذا مقصود ثان إلا تصوير الحقائق الغيبية المجملة بصور العلوم التفصيلية النفسانية و إظهار الضمائر المكنونة على صحيفة النفس و لوح الخيال.

و أوسطها كأمره و نهيه للقوى و الأعضاء و الأدوات بواسطة تحريك القوى النفسانية للقوى الطبيعية كتحريك الملائكة السماوية للملائكة الأرضية فيجري حكم النفس- و ينفذ أمرها المطاع بإذن الله تعالى على القوى و الآلات و الخوادم في عالم البدن و قد

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ٨

خلقت سدنة هذا العالم الصغير كلها مجبولة على طاعة الروح و كذا مواضعها و أجسامها- لا تستطيع لها خلافا و لا تمردا و عصيانا فإذا أمرت العين للانفتاح انفتحت و إذا أمرت اللسان للتكلم تكلم و إذا أمرت الرجل للحركة تحركت و إذا أمرت اليد للبطش بطشت فهكذا في سائر الآلات و الأعضاء فتسخر الحواس و القوى و الأعضاء للنفس الإنسانية- يشبه من وجه تسخر الملائكة و الأجرام العظام الفلكية و العنصرية لله سبحانه حيث جبلوا على الطاعة و فطروا على الخدمة.

و أدناها طلبه لشيء أو استدعاؤه لفعل بواسطة لسان أو جارحة فإن المقصود هاهنا من الكلام سواء كان بعبارة أو إشارة أو كناية أو نحو آخر من أنحاء الإعلام شيء آخر غير الكلام و غير لازمة و لهذا قد يقع و قد لا يقع لثبوت الوسائط العرضية و مع ارتفاع الوسائط العرضية كما في القسمين الأولين لا سبيل للمخاطب بالأمر إلا السمع و الطاعة- و كذا ما لم يقع في الوجود عن أوامر الله تعالى التي هي بالواسطة ليس بقادح في كمال حكمته و قدرته فإن الأمر التشريعي التدويني من الأوامر الإلهية التي أمر بها عباده على ألسنة رسله و تراجمة وحيه في كتبه هذا شأنه فمنهم من أطاع و منهم من عصى.

استشهاد تأييدي

و مما يؤيد ما ذكرنا أنه قال صاحب الفتوحات المكية إذا كان الحق هو المكلم عبده في سره بارتفاع الوسائط كان الفهم يستصحب كلامه فيكون عين الكلام منه عين الفهم منك لا يتأخر عنه فإن تأخر عنه فليس هو كلام الله و من

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ٩

لم يجد هذا فليس عنده علم بكلام الله عباده فإذا كلمه بالحجاب الصوري بلسان نبي أو من شاء الله من العالم فقد يصحبه الفهم و قد لا يصحبه و يتأخر عنه هذا هو الفرق بينهما و فيه إشارة إلى ضروب حيث قيد في القسم الأخير الواسط بالحجاب الصوري فالكلام الإلهي إما أمري بلا واسطة أو بواسطة حجاب معنوي أو حجاب صوري فليدرك

غوره و ليذعن حسن طوره أقول أيضا و للإشارة إلى هذه الضروب الثلاثة وقع من كلامه سبحانه حيث قال **وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً** فالوحي عبارة عن الكلام الحقيقي الأولي الضروري الذي يكون عين الكلام مقصودا أصليا و غاية أولية و الثاني إشارة إلى كلام يكون واردا بواسطة حجاب معنوي و يكون المقصود شيئا آخر يكتفى في حصوله نفس الكلام لكونه من اللوازم غير المنفكة ففي كل من الضربين يكون الفهم غير منفك سواء كان عينا أو لازما و الطاعة لازمة سواء كان الاستماع نفس الطاعة أو مستلزمها و الثالث إشارة إلى أدنى الكلام و هو النازل إلى أسماع الخلائق و آذان الأنام بواسطة الملائكة و الناس من الرسل فيمكن فيه الانفكاك عن الفهم فيتطرق فيه المعصية و الطاعة و الإباء و القبول فافهم يا حبيبي هذا فإنه ذوق أهل الله و إياك أن تظن أن تلقي النبي ص كلام الله بواسطة جبرئيل و سماعه منه كاستماعك من النبي ص أو تقول إن النبي كان مقلدا لجبرئيل كالأمة للنبي ص هيهات- أين هذا من ذاك هما نوعان متباينان كما مر و التقليد لا يكون علما أصيلا و لا سماعا حقيقيا أبدا

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۰

الفصل (۳) في الفرق بين الكلام و الكتاب و التكلم و الكتابة

قال بعض المحققين إن كلام الله غير كتابه و الفرق بينهما بأن أحدهما و هو الكلام بسيط و الآخر و هو الكتاب مركب و بأن أحدهما من عالم الأمر و الآخر من عالم الخلق و الأول دفعي الوجود و الثاني تدريجي الكون لأن عالم الأمر خال عن التضاد و التكثر و التغير لقوله تعالى **وَ ما أَمْرُنا إِلاَّ واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ** ... **أَوْ هُوَ أَقْرَبُ** و أما عالم الخلق فمشتمل على التكثر و التغير و معرض للأضداد لقوله تعالى **وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ**.

أقول و لأحد أن يقول إن الكلام و الكتاب أمر واحد بالذات متغاير بالاعتبار- و هذا إنما ينكشف عليك بمثال في الشاهد و هو الإنسان لكونه على مثال من ربه تعالى عن المثل لا عن المثال فالإنسان إذا تكلم بكلام أو كتب كتابا فإنه يصدق على كلامه أنه كتاب و على كتابه أنه كلام بيان ذلك أنه إذا تكلم و شرع في تصوير الألفاظ أنشأ في الهواء الخارج من جوفه و باطنه بحسب استدعائه الباطني النفساني الذي هو بإزاء النفس الرحماني و الوجود الانبساطي هيأت الأصوات و الحروف و الكلمات حيثما تنفس و انتقش منه ذلك الهواء المسمى بالنفس الإنساني و تصور بصور الحروف الثمانية و العشرين و ما يتركب منها كما ينشأ من غيب الحق الوجود الانبساطي المسمى عندهم بالحق المخلوق به متعينا بتعينات الصور الإمكانية لظهور الشئون الإلهية و مكنونات الأسماء الحسنى و الصفات العليا على مجالي الماهيات و هياكل الممكنات و مظاهر الهويات- و الموجودات بحسب مراتب التنزلات لحقيقة الوجود الحق المطلق و درجات الشدة و الضعف الحاصلة من مراتب القرب و البعد من منبع الوجود المسمى بالهوية الأحدية

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۱

و غيب الغيوب و قد سبق في السفر الأول الفرق بين الوجود الانبساطي و الوجود المقيد و أنهما غير الوجود الحق الأول.

إذا تقرر هذا فنقول صورة هذه الألفاظ و الكلمات لها نسبتان نسبة إلى الفاعل و المصدر و نسبة إلى القابل و المظهر

فالأولى بالوجوب و الثانية بالإمكان فهي بأحد الاعتبارين كلام و بالاعتبار الآخر كتابة فالصور اللفظية القائمة بلوح النفس و صحيفة الهواء الخارج من الباطن إذا نسبت و أضيفت إليه فتلك النسبة إما على سبيل نسبة الصورة إلى القابل فيكون كتابة لأن نسبتها إليه بالإمكان و حينئذ يحتاج إلى فاعل مباين و مصور أو ناقش مغاير إذ القابل شأنه القوة و الاستعداد و التصحح لا الفعل و الإيجاد و الإيجاب- و الشيء لا يمكن وجوده بمجرد الإمكان و القوة و القبول فلا بد له من مخرج إياه من القوة إلى الفعل و الفاعل المباين لصور الألفاظ و الكلمات يسمى كاتبا و مصورا لا ناطقا و متكلما و ذلك الفاعل هو النفس الناطقة في مثالنا فبهذا الاعتبار يكون المنشىء لهذه الحروف و الألفاظ كاتبا و النفس الهوائي بيده لوحا بسيطا و هذه الحروف و الألفاظ أرقاما كتابية و صورا منقوشة فيه صادرة عن الكاتب و المصور و أما إذا أضيفت إليه إضافة الفعل إلى الفاعل و الوجود إلى الموجد و كانت النسبة إليه بالوجوب لا بالإمكان فكان المأخوذ بهذه الحيثية كلاما و الموصوف به متكلما و هو المجموع الحاصل من النفس و الهواء و سائر ما يدخل في سببية تلك الصور و الهيئات و كان المجموع المأخوذ على هذا الوجه شخصا متكلما لصدق حده عليه و هو الذي قام به الكلام- لاستقلاله بتصور المعاني و ترتيب الحروف و المباني من غير حاجة إلى فاعل ناقش مباين الذات عنه.

فإذا ظهر لك صحة كون صور لفظية بعينها كلاما و كتابا باعتبارين و كون الهواء

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۱۲

النفسي أيضا كاتبا و متكلما من وجهين فقس الحال فيما وراء ذلك التشخص الهوائي- سواء كان فوقه كالنفس و العقل و الباري أو تحته كالقرطاس و التخت و التراب فالنفس المرتسم فيهما الصور العقلية و العلوم النفسانية لوح كتابي بأحد الاعتبارين و جوهر متكلم ناطق بالاعتبار الآخر لأن لها وجها إلى مصور عقلي و قلم علوي يصورها تلك العلوم و الصور و لها أيضا وجه إلى قابل يقبل منه تلك الصور و يسمع منه الكلام و هكذا القياس في سائر المواضع فوضح أن كل كتاب كلام من جهة و كل كلام كتاب من جهة فافهم يا حبيبي ما ذكرته و اعلم قدره فإنه حري بذاك لأنه من الواردات الكشفية المختصة بمدون هذه الأسفار و فيه فوائد كثيرة لا يسمع المجال عدها جميعا.

منها أنه يليق بأن يتصالح فيه أهل المذاهب الكلامية في باب الكلام و عمدتهم طائفتان المعتزلة فقالوا إن المتكلم من أوجد الكلام و الأشاعرة فقالوا إنه من قام به الكلام و قد صدق التعريفان عليه بالاعتبارين و منها كيفية حدوث العالم منه تعالى إذ نسبة هذا العالم إلى الباري عند جماعة نسبة الكتاب إلى الكاتب و عند طائفة أخرى نسبة الكلام إلى المتكلم لكن طائفة أخرى رأوا أن النسبة إليه تعالى غير هاتين النسبتين **أَلٰا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ** و منها سر فناء العالم الكوني و زواله و دثوره و منها

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۱۳

سر بعث الأرواح و حشر الأجساد جميعا كما ستقف عليه في مباحث المعاد إن شاء الله تعالى

الفصل (٤) في وجوه من المناسبة بين الكلام و الكتاب

و لعلك قد تنبهت بما أشرنا إليك أن عالم الأمر بما فيه أحق بأن يكون عالما قوليا- و كلاما إلهيا و نظاما جمليا و أن عالم الخلق بما فيه أحرى بأن يكون عالما فعليا و كتابا تفصيليا مطابقا لذلك المجمل مناسبا إياه فمن وجوه المناسبات أنه

كما أن كلام الله مشتمل على الآيات كقوله تعالى **تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ*** فكذلك الكتاب يشتمل عليها أيضا **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ*** و أن الكلام إذا تشخص و تنزل صار كتابا كما أن الأمر إذا نزل صار فعلا **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** فصحيفة وجود العالم العقلي الفعلي الخلقي هي كتاب الله عز و جل و آياتها أعيان الكائنات الخلقية و صور الموجودات الخارجية لقوله تعالى **إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ** و هذه الآيات البينات الخلقية إنما ثبتت و وجدت في عالم الآفاق في صحائف موادها الجسمانية ليتيسر لأولي الألباب من جهة التلاوة لها و التدبر لمعانيها و التنبه لمشاركاتها و مبايناتها أن يتفطنوا بالآيات الأمرية العقلية الثابتة في عالم الأنفس و العقول لينتقلوا من المحسوس إلى المعقول و من عالم الشهادة إلى عالم الغيب و يرتحلوا من الدنيا إلى الآخرة و يحشروا إلى الله مسترجعين راجعين إليه كما قال تعالى **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**.

قال بعض المحققين إن الإنسان ما دام في مضيق البدن و سجن الدنيا مقيدا بقيود البعد و المكان و سلاسل الحركة و الزمان لا يمكنه مشاهدة الآيات الآفاقية و الأنفسية على وجه التمام و لا يتلوها دفعة واحدة إلا كلمة بعد كلمة و حرفا بعد حرف و يوما بعد يوم و ساعة بعد ساعة فيتلوا آية و يغيب عنه أخرى فيتوارد عليه الأوضاع و يتعاقب له الشئون و الأحوال و هو على مثال من يقرأ طومارا و ينظر إلى سطر عقيب سطر آخر و ذلك لقصور

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۱۴

نظره و فتور إدراكه عن الإحاطة بالتمام دفعة واحدة قال تعالى **وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** فإذا قويت بصيرته و تكحلت عينه بنور الهداية و التوفيق كما يكون عند قيام الساعة فيتجاوز نظره عن مضيق عالم الخلق و الظلمات إلى فسحة عالم الأمر و النور فيطالع دفعة جميع ما في هذا الكتاب الجامع للآيات من صور الأكوان و الأعيان كمن يطوى عنده السجل الجامع للسطور و الكلمات و إليه الإشارة بقوله تعالى **يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ** و قوله تعالى **وَ السَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** و إنما قال بيمينه لأن أصحاب الشمال و أهل دار النكال ليس لهم نصيب في طي السماء بالقياس إليهم و في حقهم غير مطوية أبدا لتقيد نفوسهم بالأمكنة و الغواشي كما قال تعالى **لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ**

الفصل (۵) في مبدإ الكلام و الكتاب و غايتهما

اعلم أن للكلام و الكتاب لكونهما من الممكنات بداية و نهاية و لما كان الإنسان

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۱۵

مفطورا على صورة الرحمن فلنعمد إليه أولا و نبين كيفية صدورهما منه و عودهما إليه ليكون هذا ذريعة إلى معرفة كلام الله و كتابه من حيث المبدإ و الغاية و مرقاة إليها- فنقول إن الإنسان إذا حاول أن يتكلم بكلام أو يكتب كتابا فمبدأ هذه الإرادة أولا صورة عقلية حاصلة في قوة نفسه الناطقة على وجه الإجمال و البساطة ثم ينشأ من هذه القوة أثر في النفس الناطقة في مقام التفصيل العقلي و هي القلب المعنوي ثم ينشأ منه أثر في معدن التخيل و هي نفسه الحيوانية المسماة بالصدر المعنوي و نسبته إلى القلب المعنوي نسبة الكرسي إلى العرش و هو مستوى الرحمن و نسبة مظهريهما و هما

القلب الصنوبري الشكل و الدماغ المستدير الشكل كنسبة الفلك الأعلى و فلك الكواكب إلى العرش و الكرسي الحقيقيين لأن هذين مظهراهما و مستوياهما ثم يسري منه أثر إلى الدماغ بواسطة الروح الحيواني الذي هو جوهر لطيف جسماني شبيه بالفلك- و حار غريزي سماوي و ذلك الأثر هو الصورة الخيالية للكلام أو الكتاب ثم يظهر منه أثره و هو صورته المحسوسة في الخارج بواسطة الآلات و الأعضاء و الجوارح و الأعضاء- فيوجد صورة الصوت و الحرف في صحيفة الهواء أو في صحيفة القرطاس و هذا غاية نزوله من عرش القلب أو ما هو أعلى منه إلى البسيط الهوائي أو الأرضي ثم يرتفع منه أثر إلى الصماخ و هو عضو غضروفي أو من جهة أخرى إلى العين و هو عضو عصبي و من كل منهما بواسطة

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۶

العضلات و الأوتار و الأعصاب إلى الأوردة و منها إلى الأرواح الدماغية و منها إلى الروح النفساني و منه إلى معدن التخيل و منه إلى القوة النفسانية ثم إلى العقل النظري و ما بعده على وجه الأشرف فالأشرف و الأعلى فالأعلى كالأول على وجه الأخس فالأخس و الأدنى فالأدنى- فهذا الترتيب الصعودي على عكس النزولي فكأنهما قوسان بداية الأولى بعينها نهاية الثانية كما بدأنا أول خلق نعيده فإذا علمت هذا المثال فقس عليه حال مبدإ كلام الله و كتابه فانظر بعين المكاشفة إلى هذا المقام لأن ذلك من عجائب سر الآدمي.

و اعلم أن حقائق آيات الله و بدائع حكمته و جوده و رحمته ثابتة أولا في علم الله- و غيب غيوبه على وجه لا يعلمها إلا هو ثم في قلم قدرته على وجه بسيط مقدس عن الكثرة و التفصيل و هي أيضا مسطورة في اللوح المحفوظ بل في عقول الملائكة المقربين ثم ترتسم منها في نفوس الملائكة المدبرين ثم تنتسخ منها في الكتب و الألواح السماوية القابلة للمحو و الإثبات و هكذا إلى سماء الدنيا ثم تنزل من السماء إلى الأرض نجوما بحسب المصالح و الأوقات و هذا كما أن المتكلم يتفكر أولا و يخطر بباله و يحضر في خياله- صورة ما يريد أن يتكلم به و يظهره ثم يخرجه من حد الضمير بل حدود الضمائر المتفاوتة- و الغيوب المترتبة إلى حد الخارج و عالم الشهادة فكذلك صورة حكمة الله تعالى- و إظهار ما في مكامن علمه و مفاتيح غيبه و خزائن رحمته إذا خرجت من عالم الغيب إلى عالم الشهادة حتى نزلت إلى غاية النزول و نهاية تدبير الأمر كما قال تعالى **تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّمَاوٰاتِ الْعُلَى** و قال **يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمٰاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ** فعند ذلك أوان الشروع في الصعود و العروج إليه كما في قوله تعالى- **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصّٰالِحُ يَرْفَعُهُ** و قوله **إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ**

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۷

وَ الْأَرْضِ إِلاّٰ آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْداً لَقَدْ أَحْصٰاهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ فَرْداً و هذا الإتيان إلى الرحمن لا يكون إلا في صورة الإنسان و من سبيل أطواره بل نقول من سبيل النظر في حال الإنسان الكامل و درجاته في الكمال

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۸

إن المتأمل منه في خلق السماوات و الأرض إذا نظر إلى هذا العالم و رأى السماء و الأرض- و ما بينهما يظهر صورته في

قلبه حتى أنه لو غمض بصره يرى تلك الصورة في خياله متمثله بين يديه حاضرة عنده أتم من حضور الصورة الخارجية بين يدي حسه ثم يتأدى من خياله صورة إلى نفسه و منها إن كان ذا عقل بالفعل إلى عقله البسيط المتحد بالعقل الفعال- فيحصل حقائق الموجودات التي دخلت أولا في الحس ثم في الخيال و عالم المثال- و هلم إلى عالم الأمر و العقل الفعال فنسخة عالم الحس موافقة لنسخ تلك العوالم- و هي مطابقة للنسخة الموجودة في اللوح المحفوظ المكتوبة بالقلم الإلهي و هذه النسخ و الكتب مترتبة في الوجود الابتدائي على ترتيب الأشرف فالأشرف و الأقرب من الحق فالأقرب فما في القلم سابق على ما في اللوح المحفوظ و هو سابق على ما في لوح المحو و الإثبات و هو سابق على ما في صحيفة الأكوان المكتوبة بمداد المواد الجسمانية الهيولانية و ترتيبها في الوجود الأعادي على عكس ترتيبها الابتدائي- فيتبع وجودها الحسي وجودها الجسماني المادي ثم يتبعه وجودها المثالي القدري ثم يتبعه وجودها العقلي القضائي التفصيلي و يتبع ذلك وجودها العقلي البسيط القلمي الإجمالي- و يتبع ذلك كله العلم الأزلي فيرجع الأمر إلى ما كان و هو قوله **اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**.

و هذا أيضا من لطائف صنع الله و حكمته في خلق الإنسان الكامل و صيرورته إنسانا كبيرا بعد ما كان عالما صغيرا فكان الوجود كله كشخص واحد دار على نفسه و كأنه كتاب كبير فاتحته عين خاتمته و العالم كله تصنيف الله و ابتدأ بالعقل و اختتم بالعاقل كما قال تعالى **أَ وَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۹

الفصل (٦) في فائدة إنزال الكتب و إرسال الرسل إلى الخلق

اعلم أن الله تعالى لما أراد الإبداع و حاول أن يخلق حقائق الأنواع لظهور أسمائه و صفاته كان عنده علوم جمة من غير مجالي و كلمات كثيرة من غير آلة لبيان و مقال- و كتب عديدة بلا صحائف و لا أوراق لأنها قبل وجود الأنفس و الآفاق فخاطب بخطاب كن لمن كمن في علمه و لم يكن في الوجود سواه فأوجد أول ما أوجد حروفا عقلية و كلمات إبداعية قائمة بذاتها من غير مادة و حركاتها و استعداد أداتها و هي عالم القضاء العقلي ثم أخذ في كتابة الكتب و تصوير الكلمات و ترتيب الآيات على ألواح الجواهر و الأبعاد و تصوير البسائط و المركبات بمداد المواد و هو عالم القدر التفصيلي كما قال الله تعالى **اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ** و كما قال تعالى

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۰

فَقَضٰاهُنَّ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحىٰ فِي كُلِّ سَمٰاءٍ أَمْرَهٰا و لما تمت له كتابة الجميع أمرنا بمطالعة هذا الكتاب الحكمي و قراءة هذه الآيات الكلامية و الكتابية و التدبر فيها بقوله **فَاقْرَؤُا مٰا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ** و بقوله تعالى **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** و قوله **أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ** و قوله **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلاٰفِ اللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ لَآيٰاتٍ لِأُولِي الْأَلْبٰابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيٰاماً وَ قُعُوداً وَ عَلىٰ جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ رَبَّنٰا مٰا خَلَقْتَ هٰذٰا بٰاطِلاً** و حيث كنا في الابتداء ضعفاء العقول ضعفاء

الأبصار كما قال تعالى **خُلِقَ الإِنْسانُ ضَعيفاً** فلم يكن تصل قوة أنظارنا إلى أطراف هذه الأرقام و أكناف هذه الكلمات العظام لتعاظم حروفها و تعالي كلماتها و تباعد أطرافها و حافاتها و قد ورد عن بعض المكاشفين أن كل حرف من كلام الله في اللوح أعظم من جبل قاف و إن الملائكة لو اجتمعوا على أن ينقلوه لما أطاقوه فتضرعنا إليه بلسان احتياجنا و استعدادنا إلهنا ارحم على قصورنا و لا تؤيسنا عن روحك و رحماتك و اهدنا سبيلا إلى مطالعة كتبك و كلماتك و وصولا إلى مرضاتك و جناتك فتلطف بنا بمقتضى عنايته الشاملة و حكمته الكاملة و رحمته الواسعة و قدرته البالغة فأعطى لنا نسخة مختصرة من أسرار كتبه و أنموذجا وجيزا من معاني كلماته التامات فقال تعالى **وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ** و المراد منها نفوس الكمل من الأنبياء و المرسلين لأن نفس كل واحد منهم كلمة تامة نازلة من عند رب العالمين- **كِتابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ** مشتمل على آيات الملك و الملكوت و أسرار قدرة الله و الجبروت ثم اصطفى من بينهم كلمة جامعة أوتيت جوامع الكلم و أرسل إلينا رسولا كريما و نورا مبينا و قرآنا حكيما و صراطا مستقيما و تنزيلا من العزيز الرحيم- فجعل نسخة وجوده نجاة الخلق من عذاب الجحيم و كتابه خلاصا من ظلمات الشياطين- و القرآن النازل معه براءة العبد من سلاسل تعلقات النفس و وساوس إبليس اللعين.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۱

تبصرة

فافتح بصيرتك يا إنسان بنور معارف القرآن و انظر أولية الرحمن بآخرية الرسول الهادي إلى عالم النور و الرضوان و اعلم أن الباري وحداني الذات في أول الأولين- و خليفة الله فرداني الذات في آخر الآخرين **كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** فالله سبحانه رب الأرض و السماء و هذه الخليفة مرآة يرى بها كل الأشياء و يتجلى فيها الحق بجميع الأسماء و ينكشف بنور عينه عين المسمى من عرف نفسه فقد عرف ربه **النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ** فاعرفه أيها السالك إلى الله حتى تعرف ربك قال تعالى

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۲

مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ و

قال الرسول ص: من رآني فقد رأى الحق

فصحح يا مسكين نسبتك إليه لأنه الأصل في الوجود و المؤمنون بالله و اليوم الآخر تابعون له في المقام المحمود و المؤمن من صحت له نسبة التابعية كمرآة وقعت في محاذاة مرآة حاذت الشمس فيتحد معه في النور **وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ** فافهم هذا.

و اعلم أن من صفى وجه قلبه عن نقوش الأغيار و نفض عن ذاته غبار التعلقات و صقل مرآة عين عقله عن غشاوة الوساوس و العادات و ماتت نفسه عن نفسه و استغرق سره في بحر جلال الله و عظمته و حشر إلى مولاه باقيا ببقائه من كان لله كان الله له فإذا رجع إلى الصحو بعد المحو و خرج إلى التفصيل بعد الإجمال و التكميل و إلى الفصل بعد الوصل و التحصيل- لتمكنه في حضرة الأحدية و استقراره في الحد المشترك الجامع بين الحق و الخلق بل بين الأمرية و الخلقية نفذ حكمه و أمره و استجيب دعوته و تكرم بكرامة التكوين و تكلم بكلام رب العالمين **ذلِكَ فَضْلُ اللهِ**

يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ*

الفصل (۷) في كيفية نزول الكلام و هبوط الوحي من عند الله

بواسطة الملك على قلب النبي و فؤاده ثم إلى خلق الله و عباده لبروزه من الغيب إلى الشهادة اعلم أن هذا القرآن الذي بين أظهرنا كلام الله و كتابه جميعا دون سائر الكتب

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۳

السماوية النازلة على سائر المرسلين سلام الله عليهم أجمعين فإنها ليست بكلام بل كتب يدرسونها و يكتبون بأيديهم و إن كان كل كتاب كلاما بوجه كما مر لكن الغرض هاهنا كونه كلام الله خاصة و أيضا نقول إن هذا المنزل من الكلام على نبينا ص قرآن و فرقان جميعا و سائر الكتب السماوية فرقان فقط و الفرق بين المعنيين كالفرق بين العقل البسيط و العقل التفصيلي النفساني فالمنزل بما هو كلام الحق

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۴

نور من أنوار الله المعنوية النازل من عنده على قلب من يشاء من عباده المحبوبين- لا المحبين فقط لقوله تعالى وَ لٰكِنْ جَعَلْنٰاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِنٰا و قوله تعالى نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ و قوله تعالى وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْنٰاهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ و هو بما هو كتاب إنما هو صور و نقوش و أرقام و فيها آيات أحكام نازلة من السماء نجوما على صحائف قلوب المحبين و ألواح نفوس السالكين و غيرهم يكتبونها في صحائفهم و ألواحهم- بحيث يقرؤها كل مسلم قار و يتكلم بها كل متكلم و يعمل بأحكامها كل عامل موفق- و بها يهتدون و بما فيه يعملون و يتساوى في هدايتها الأنبياء و الأمم كما في قوله تعالى وَ أَنْزَلَ التَّوْرٰاةَ وَ الْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنّٰاسِ و قوله تعالى وَ عِنْدَهُمُ التَّوْرٰاةُ فِيهٰا حُكْمُ اللهِ و أما القرآن العظيم الكريم ففيه عظائم العلوم الإلهية كأن يتعلم بها رسول الله الخاتم و أهل بيته المكرم س لقوله تعالى وَ عَلَّمَكَ مٰا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كٰانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً و فيه كرائم أخلاق الله تخلق بها رسول الله ص لقوله تعالى إِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ إذ كان خلقه القرآن كما روي هذا.

فإذا علمت هذه المقدمات فنقول في كيفية النزول كما سيجيء بيانه مفصلا في مسائل النبوات أن سبب إنزال الكلام و تنزيل الكتاب هو أن الروح الإنساني إذا تجرد عن البدن و خرج عن وثاقه من بيت قالبه و موطن طبعه مهاجرا إلى ربه لمشاهدة آياته الكبرى و تطهر عن درن المعاصي و اللذات و الشهوات و الوساوس العادية و التعلقات- لاح له نور المعرفة و الإيمان بالله و ملكوته الأعلى و هذا النور إذا تأكد و تجوهر كان جوهرا قدسيا يسمى عند الحكماء في لسان الحكمة النظرية بالعقل الفعال و في لسان الشريعة النبوية بالروح القدسي و بهذا النور الشديد العقلي يتلألأ فيه أسرار ما في الأرض و السماء و يتراءى منه حقائق الأشياء كما يتراءى بالنور الحسي البصري الأشباح المثالية في قوة البصر إذا لم يمنعها حجاب و الحجاب هاهنا هو آثار الطبيعة و شواغل هذا الأدنى و ذلك لأن القلوب و الأرواح بحسب أصل فطرتها صالحة لقبول نور الحكمة- و الإيمان إذا لم يطرأ عليها ظلمة تفسدها كالكفر أو حجاب يحجبها كالمعصية و ما يجري مجراها كما في قوله تعالى وَ طُبِعَ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاٰ يَفْقَهُونَ و قوله تعالى بَلْ رٰانَ

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۵

عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ فإذا أعرضت النفس عن دواعي الطبيعة و ظلمات الهوى و الاشتغال بما تحتها من الشهوة و الغضب و الحس و التخيل و توجهت و ولت بوجهها شطر الحق و تلقاء عالم الملكوت الأعلى اتصلت بالسعادة القصوى فلاح لها سر الملكوت و انعكس عليها قدس اللاهوت و رأى عجائب آيات الله الكبرى كما قال سبحانه لَقَدْ رَأىٰ مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِ الْكُبْرىٰ ثم إن هذه الروح إذا كانت قدسية شديدة القوى قوية الإنارة لما تحتها لقوة اتصالها بما فوقها فلا يشغلها شأن عن شأن و لا يمنعها جهة فوقها عن جهة تحتها فتضبط للطرفين و تسع قوتها الجانبين لشدة تمكنها في الحد المشترك بين الملك و الملكوت لا كالأرواح الضعيفة التي إذا مالت إلى جانب غاب عنها الجانب الآخر و إذا ركنت إلى مشعر من المشاعر ذهلت عن المشعر الآخر.

فإذا توجهت هذه الروح القدسية التي لا يشغلها شأن عن شأن و لا يصرفها نشأة عن نشأة و تلقت المعارف الإلهية بلا تعلم بشري بل من الله يتعدى تأثيرها إلى قواها و يتمثل لروحه البشري صورة ما شاهدها بروحه القدسي و تبرز منها إلى ظاهر الكون فيتمثل للحواس الظاهرة سيما السمع و البصر لكونهما أشرف الحواس الظاهرة فيرى ببصره شخصا محسوسا في غاية الحسن و الصباحة و يسمع بسمعه كلاما منظوما في غاية الجودة و الفصاحة فالشخص هو الملك النازل بإذن الله الحامل للوحي الإلهي و الكلام هو كلام الله تعالى و بيده لوح فيه كتاب هو كتاب الله و هذا الأمر المتمثل بما معه أو فيه ليس مجرد صورة خيالية لا وجود لها في خارج الذهن و التخيل كما يقوله من لا حظ له من علم

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۶

الباطن و لا قدم له في أسرار الوحي و الكتاب كبعض أتباع المشائين معاذ الله عن هذه العقيدة الناشئة عن الجهل بكيفية الإنزال و التنزيل و تحقيق هذا المقام على بسطة اللائق- و تفسيره الموافق مما سيجيء موعد ذكره في باب النبوات و لكن نزيدك لمعة أخرى

إنارة قلبية و إشارة نورية

عليك أن تعلم يا حبيبي أن للملائكة ذوات حقيقية و لها ذوات إضافية مضافة إلى ما دونها إضافة النفس إلى البدن لا هذا البدن المركب المستحيل المتجدد الذي لا يبقى زمانين كما علمت في مباحث الطبيعة بل كل بدن يضاف إليه شيء من الذوات الملكية- فإنما هو كالبدن المحشور في النشأة الآخرة أما ذواتها الحقيقية فإنما هي أمرية قضائية قولية و أما ذواتها الإضافية فإنما هي خلقية قدرية تنشأ منها الملائكة اللوحية و أعظمهم إسرافيل صاحب الصور الشاخص و سيأتي الإشارة إلى حقيقة صورة في مباحث المعاد و حشر الأجساد فهذه الملائكة اللوحية يأخذون الكلام الإلهي و العلوم اللدنية من الملائكة القلمية و يثبتونها في صحائف ألواحهم القدرية الكتابية و إنما كان يلاقي النبي ص في معراجه الصف الأول من الملائكة و يشاهد روح القدس في اليقظة فإذا اتصلت الروح النبوية بعالمهم عالم الوحي الرباني كأن يسمع كلام الله و هو إعلام الحقائق بالمكالمة الحقيقية و هي الإفاضة و الاستفاضة في مقام قاب قوسين أو أدنى و هو مقام

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۷

القرب و مقعد الصدق و معدن الوحي و الإلهام و هو الكلام الحقيقي كما مر و كذلك إذا عاشر النبي ص الملائكة الأعلين يسمع صريف أقلامهم و إلقاء كلامهم و كلامهم كلام الله النازل في محال معرفتهم و هي ذواتهم و عقولهم لكونهم في مقام القرب و قد حكى النبي ص عن نفسه كما روى ليلة المعراج أنه بلغ إلى مقام كان يسمع فيه صريف أقلام الملائكة ثم إذا نزل إلى ساحة الملكوت السماوي يتمثل له صورة ما عقلها و شاهدها في لوح نفسه الواقعة في عالم الألواح القدرية السماوية ثم يتعدى منه الأثر إلى الظاهر- و حينئذ يقع للحواس شبه دهش و نوم لما علمت من أن الروح القدسية لضبطها الجانبين- تستعمل المشاعر الحسية لكن لا في الأعراض الحيوانية بل في سبيل سلوك الرب سبحانه- فهي تشايعها في سبيل معرفة الله و طاعته لا جرم إذا خاطبه الله خطابا من غير حجاب خارجي- سواء كان الخطاب بلا واسطة أو بواسطة الملك و اطلع على الغيب فانطبع في فص نفسه النبوية نقش الملكوت و صورة الجبروت فكان يتشبح له مثال من الوحي و حامله إلى الحس الباطن فينجذب قوة الحس الظاهر إلى فوق و يتمثل لها صورة غير منفكة عن معناها و روحها الحقيقي لا كصورة الأحلام و الخيالات العاطلة عن المعنى فيتمثل لها حقيقة الملك بصورته المحسوسة بحسب ما يحتملها فيرى ملكا من ملائكة الله على غير صورته التي كانت له في عالم الأمر لأن الأمر إذا نزل صار خلقا مقدرا فيرى على صورته الخلقية القدرية و يسمع كلاما مسموعا بعد ما كان وحيا معقولا أو يرى لوحا بيده مكتوبا فيكون الموحى إليه يتصل بالملك أولا بروحه العقلي و يتلقى منه المعارف الإلهية و يشاهد ببصره العقلي آيات ربه الكبرى و يسمع بسمعه العقلي كلام رب العالمين من الروح الأعظم.

ثم إذا نزل عن هذا المقام الشامخ الإلهي يتمثل له الملك بصورة محسوسة بحسه- ثم ينحدر إلى حسه الظاهر ثم إلى الهواء و هكذا الكلام في كلامه فيسمع أصواتا و حروفا منظومة مسموعة يختص هو بسماعها دون غيره لأنها نزلت من الغيب إلى الشهادة- و برزت من باطنه إلى ظاهره من غير باعث خارجي فيكون كل من الملك و كلامه و كتابه

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۸

يتأدى من غيبه و باطن سره إلى مشاعره و هذه التأدية ليست من قبيل الانتقال و الحركة- للملك الموحى من موطنه و مقامه إذ كل له مقام معلوم لا يتعداه و لا ينتقل بل مرجع ذلك إلى انبعاث نفس النبي ص من نشأة الغيب إلى نشأة الظهور و لهذا كان يعرض له ص شبه الدهش و الغشي ثم يرى و يسمع ثم يقع منه الإنباء و الإخبار فهذا معنى تنزيل الكتاب و إنزال الكلام من رب العالمين.

و اعلم مما ذكر وجه ما قيل إن الروح القدسية تخاطب الملائكة في اليقظة- و الروح النبوية تعاشرهم في النوم و لكن يجب أن يعلم الفرق بين نوم الأنبياء ع و نوم غيرهم كما أن الفرق ثابت بين يقظتيهما فإن نومهم كيقظة الناس و لذا

قال ص: تنام عيني و لا ينام قلبي

و قال علي ع: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا

و لعلك بما ذكرناه تستطع أن تذعن بأن كل ما كان يراه و يشاهده الروح النبوية في عالم الغيب ليس خارجا عن جنس الكلام و المتكلم و الكتابة و الكاتب فهذا أمر مضبوط واجب الوقوع و ليس باتفاقي فتدبر.

و لأجل ذلك وقع في كثير من مواضع القرآن ذكر تنزيل الكتاب و الآيات مشفوعا- بذكر خلق السماوات و الأرض و ما فيهما كما في قوله تعالى في سورة آل عمران

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۹

إِنَّ اللهَ لاٰ يَخْفىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لاٰ فِي السَّمٰاءِ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحٰامِ كَيْفَ يَشٰاءُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتٰابَ مِنْهُ آيٰاتٌ مُحْكَمٰاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتٰابِ وَ أُخَرُ مُتَشٰابِهٰاتٌ و قوله تعالى فيها تِلْكَ آيٰاتُ اللهِ نَتْلُوهٰا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ مَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعٰالَمِينَ- وَ لِلّٰهِ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ وَ إِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ و قوله تعالى فيها إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلاٰفِ اللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ لَآيٰاتٍ لِأُولِي الْأَلْبٰابِ و قوله تعالى في الأنعام- وَ هُوَ اللهُ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ مٰا تَكْسِبُونَ وَ مٰا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِمْ إِلاّٰ كٰانُوا عَنْهٰا مُعْرِضِينَ و قوله تعالى في هود كِتٰابٌ أُحْكِمَتْ آيٰاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ إلى قوله كُلٌّ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ و قوله تعالى في الرعد تِلْكَ آيٰاتُ الْكِتٰابِ وَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يُؤْمِنُونَ اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمٰاوٰاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهٰا ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيٰاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقٰاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ و قوله تعالى في سورة إبراهيم الر كِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النّٰاسَ- مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلىٰ صِرٰاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللهِ الَّذِي لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ و قوله تعالى في يونس الر تِلْكَ آيٰاتُ الْكِتٰابِ الْحَكِيمِ إلى قوله إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ و قال إِنَّ فِي اخْتِلاٰفِ اللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ وَ مٰا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ و في سورة يوسف وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهٰا وَ هُمْ عَنْهٰا مُعْرِضُونَ و قوله طه مٰا أَنْزَلْنٰا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقىٰ إِلاّٰ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشىٰ تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّمٰاوٰاتِ الْعُلىٰ و قوله حم عسق كَذٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ و قوله في الزخرف حم وَ الْكِتٰابِ الْمُبِينِ إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتٰابِ لَدَيْنٰا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ إلى قوله وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ و قوله في الدخان حم وَ الْكِتٰابِ الْمُبِينِ إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبٰارَكَةٍ إِنّٰا كُنّٰا مُنْذِرِينَ إلى قوله رَبِّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ و قوله في الجاثية

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۰

تَنْزِيلُ الْكِتٰابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ لَآيٰاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ فِي خَلْقِكُمْ وَ مٰا يَبُثُّ مِنْ دٰابَّةٍ آيٰاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَ اخْتِلاٰفِ اللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ وَ مٰا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمٰاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيٰا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا وَ تَصْرِيفِ الرِّيٰاحِ آيٰاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ تِلْكَ آيٰاتُ اللهِ نَتْلُوهٰا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ إلى قوله فَبَشِّرْهُ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ و قوله وَ سَخَّرَ لَكُمْ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ و هذا التسخير تسخير ذاتي إنما وقع للإنسان الكامل عند اتصاله بعالم الأمر المحيط بالكل و قوله في الأحقاف تَنْزِيلُ الْكِتٰابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى و قوله في الجمعة يُسَبِّحُ لِلّٰهِ

مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ إلى قوله لَفِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ إلى غير ذلك من مواضع القرآن و السر في ذلك أن القرآن و الآيات المنزلة هي بعينها آيات كلامية عقلية في مقام و كتب لوحية في مقام و أكوان خلقية في مقام و ألفاظ مسموعة بهذه الأسماع الحسية أو نقوش مكتوبة مبصرة في المصاحف بهذه الأبصار الحسية فالحقيقة واحدة و المجالي متعددة و المشاهد مختلفة و المواطن كثيرة

الفصل (٨) في كشف النقاب عن وجه الكتاب و رفع الحجاب عن سر الكلام و روحه لأولي الألباب

اعلم أيها المسكين أن هذا القرآن أنزل من الحق إلى الخلق مع ألف حجاب لأجل

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۱

ضعفاء عيون القلوب و أخافيش أبصار البصائر فلو فرض أن باء بسم الله مع عظمته التي كانت له في اللوح نزل إلى العرش لذاب و اضمحل الكرسي فكيف إلى السماء الدنيا- و في قوله لَوْ أَنْزَلْنٰا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خٰاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللّٰهِ إشارة إلى هذا المعنى قال بعض أئمة الكشف الروحي في هذا المعنى كل حرف في اللوح- أعظم من جبل قاف و هذا اللوح هو اللوح المشار إليه بقوله بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ و هذا القاف رمز إلى قوله ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ فإن القرآن و إن كان حقيقة واحدة لكنه ذو مراتب و مواطن كثيرة في النزول و أساميه بحسبها مختلفة و له بحسب كل موطن و مقام اسم خاص ففي موطن يسمى بالمجيد بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ و في مقام اسمه عزيز وَ إِنَّهُ لَكِتٰابٌ عَزِيزٌ و في آخر اسمه علي حكيم وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتٰابِ لَدَيْنٰا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ و في آخر كريم إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتٰابٍ مَكْنُونٍ لاٰ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ و في آخر مبين وَ لاٰ رَطْبٍ وَ لاٰ يٰابِسٍ إِلاَّ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ و في آخر حكيم يس وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ و له ألف ألف من الأسامي لا يمكن سماعها بالأذان الظاهرة و لو كنت ذا سمع باطني في عالم العشق الحقيقي و الجذبة الباطنية و المحبة الإلهية لكنت ممن يسمع أسماءه و يشاهد أطواره.

و اعلم أن اختلاف صور الموجودات و تباين صفاتها و تضاد أحوالها شواهد عظيمة

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۲

لمعرفة بطون القرآن و أنوار جماله و أضواء آياته و أسرار كلماته و لتعلم أسماء الله الحسنى و صفاته العليا لما مرت الإشارة إليه من أن الكتاب الفعلي الكوني بإزاء الكلام القولي العقلي و هو بإزاء الأسماء و الصفات الإلهية لكن هناك على وجه الوحدة و الإجمال و هاهنا على وجه الكثرة و التفصيل كما قال كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيٰاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ و قوله كِتٰابٌ أُحْكِمَتْ آيٰاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ و كما أن صور الكائنات من الأرض و السماوات و ما بينهما و هي عالم الخلق تفصيل لما في عالم العقل و هو عالم الأمر فكذلك جميع ما في العالمين الأمر و الخلق كتاب تفصيلي لما في العالم الإلهي- من الأسماء و الصفات قال الله تعالى وَ لِلّٰهِ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنىٰ فَادْعُوهُ بِهٰا وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمٰائِهِ ففي هذه الآية أوجب الله تعالى على الإنسان علم الحكمة و التوحيد- و معرفة الأمر و الخلق و معرفة الآفاق و الأنفس لأن علم الأسماء و هي أرباب صور الأنواع و الدعوة لا يحصل إلا بالتدبر في المصنوعات و التأمل في المربوبات من كل ما في الأرض و السماوات و لأجل ذلك وقع الأمر بالتدبر و التفكر فيها و في أحوالها في كثير من الآيات.

و سبیل هذا الباب من المعرفة مما سلکه العرفاء المحققون و العلماء الإلهیون- و هم القائلون بأن هذه الصور المتنوعة المتخالفة صور أسماء الله تعالی و ظلال و مثل لها- و مظاهر و مجال لما في العالم الإلهي و الصقع الربوبي و ذلك لأن کلما یوجد في عالم من العوالم ففي العالم الأعلی الإلهي الأسمائي یوجد منه ما هو أعلی و أشرف و علی وجه أبسط- و أقدس **وَ ما عِنْدَ اللهِ خَیْرٌ وَ أَبْقیٰ**

الفصل (۹) في تحقیق کلام أمیر المؤمنین و إمام الموحدین علي ع

کما ورد:

أن جمیع القرآن في باء بسم الله و أنا نقطة تحت الباء

اعلم هداك الله یا حبیبي أن من جملة المقامات التي حصلت للسالکین السائرین- إلی الله تعالی و ملکوته بقدم العبودیة و الیقین أنهم یرون بالمشاهدة العیانیة کل القرآن- بل جمیع الصحف المنزلة في نقطة تحت باء بسم الله بل یرون جمیع الموجودات

الحکمة المتعالیة فی الاسفار العقلیة الاربعة، ج۷، ص ۳۳

في تلك النقطة الواحدة و قد بینا في هذه الأسفار و في غیرها بالبرهان الحکمي أن بسیط الحقیقة کل الأشیاء و قال معلم حکمة المشائین و مقدمهم في المیم العاشر من کتابه المعروف بأثولوجیا الواحد المحض هو علة الأشیاء کلها و لیس کشيء من الأشیاء بل هو بدء الأشیاء و لیس هو الأشیاء بل الأشیاء کلها فیه و قد صرح بهذا في غیر موضع من مواضع کتابه.

و نحن نمثل لك في هذا المعنی مثالا من المحسوس یقربك إلی فهمه من وجه فإنك إذا قلت لله ما في السموات و ما في الأرض فقد جمعت جمیع الموجودات في کلمة واحدة و إذا حاولت ذکرها بالتفصیل لافتقرت إلی مجلدات کثیرة ثم قس علی نسبة اللفظ إلی اللفظ نسبة المعنی إلی المعنی علی أن فسحة عالم المعاني و التفاوت بین أقسامها و أفرادها لا یقاس بفسحة عالم الألفاظ و التفاوت فیها.

و لو اتفق لأحد أن یخرج من هذا الوجود المجازي الحسي إلی أن التحق بالوجود العقلي و اتصل بدائرة الملکوت السبحاني حتی یشاهد معنی و الله **بِکُلِّ شَيْءٍ مُحِیطٌ** و یری ذاته محاطا بها مقهورة تحت کبریائه فحینئذ یشاهد وجوده تحت نقطة باء السببیة لمسبب الأسباب و یعاین عند ذلك تلك الباء التي في بسم الله حیثما تجلت له عظمتها و جلالة قدرها و رفعة سر معناها هیهات نحن و أمثالنا لا نشاهد من القرآن إلا سوادا لکوننا في عالم الظلمة و السواد و ما حدث فیه من مد هذا المداد- أعني مادة الأبعاد و الأجساد و هیولی الأضداد و الأعداد و المدرك لا یدرك شیئا إلا بما في قوة إدراکه و قوة إدراکه دائما یکون من جنس مدرکاته بل هي عینها کما ذهبنا إلیه فالحس لا ینال إلا المحسوس و لا الخیال إلا المتخیل و لا العقل إلا المعقول- فلا یدرك النور إلا بالنور **وَ مَنْ لَمْ یَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ**.

الحکمة المتعالیة فی الاسفار العقلیة الاربعة، ج۷، ص ۳۴

فنحن بسواد هذا العین لا نشاهد إلا سواد أرقام الکلام و مداد نقوش الکتاب فإذا خرجنا من هذا الوجود المجازي و القریة الظالم أهلها مهاجرا إلی الله و رسوله في قطع المنازل التي بیننا و بین المطلب و أدرکنا الموت عن هذه النشئات و

الأطوار التي بعضها صور حسية أو خيالية أو وهمية أو عقلية و قطعنا النظر عن الجميع و محونا بوجودنا في وجود كلام الله ثم أحيانا الله بعد موتنا و أخرجنا من المحو إلى الصحو و من الفناء إلى البقاء و من الموت إلى الحياة حياة ثابتة باقية ببقاء الله فما نرى بعد ذلك من القرآن سوادا أصلا إلا البياض الخالص و النور الصرف الذي لا يشوبه ظلمة و اليقين المحض- الذي لا يعتريه شك و تحققنا بقوله تعالى **وَ لٰكِنْ جَعَلْنٰاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِنٰا** و بقوله **وَ عَلَّمْنٰاهُ مِنْ لَدُنّٰا عِلْماً**.

و عند ذلك نقرأ الآيات من نسخة الأصل و هو الإمام المبين و الذكر الحكيم- و من عنده علم الكتاب و هو أمير المؤمنين علي ع لقوله تعالى **وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتٰابِ لَدَيْنٰا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ** و لهذا نطق بما نطق من قوله

: أنا نقطة تحت الباء

و قوله مشيرا إلى صدره الشريف

: إن هاهنا لعلوما جمة لو وجدت لها حملة

و لعل الكلام في الكلام قد خرج عن طور الأوهام و تعدى عن أسلوب المباحثة و التعليم لكن المثل سائر أن الكلام يجر الكلام و ليعذرني إخوان الحقيقة إن عشق الحبيب يجرني على عد أوصاف كماله- و نعوت جماله و عد شمائله في ذاته و صفاته و كلامه و كتابه و رسوله و أمره و نهيه و سائر أفعاله كما نحن بصدده إن شاء الله و لنرجع إلى ما كنا فيه

الفصل (١٠) في بيان الفرق بين كتابة المخلوق و كتابة الخالق

هذا أيضا علم ذوقي لا يذعنه إلا صاحب بصيرة قلبية يعرف الفرق بين صورة محسوسة يكون مبدؤها من خارج الحس و بين صورة محسوسة يكون مبدؤها من داخل الحس مع أن كلا منهما محسوس بهذه الحواس الظاهرة و الحس لا يفرق بينهما فقد يقع لبعض الناس عند ظهور سلطان الباطن و قوة بروزه إلى الظاهر كما قال تعالى

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۵

وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرىٰ أن يرى المحسوس بغير الحس محسوسا بعين الخيال- فيرى الغيب شهادة في حقه و هذا مما تواتر نقله و تكاثر وقوعه و مما اتفقت روايته من هذه الآية

أن رسول الله ص: خرج يوما و بيده كتابان مطويان قابض بكل يد على كتاب فسأل أصحابه أ تدرون ما هذان الكتابان فأخبرهم بأن في الكتاب الذي بيده اليمنى أسماء أهل الجنة و أسماء آبائهم و قبائلهم و عشائرهم من أول من خلقه الله إلى يوم القيامة و في الكتاب الآخر الذي بيده اليسرى أسماء أهل النار و أسماء آبائهم و قبائلهم و عشائرهم من أول من خلقه الله إلى يوم القيامة الحديث

. فمن هاهنا مع ما تقدم من كيفية نزول الوحي و الكتاب على الأنبياء ع يعلم الفرق بين كتابة الله و كتابة المخلوق إذ لو حاول المخلوق أن يكتب هذه الأسماء على ما هي عليه في ذينك الكتابين لم يقدر عليها و لا يمكن أيضا إذ ما قام بذلك و لم يف به كل ورق في العالم و من هذا القبيل كتاب الجفر و الجامعة الموجود عند الأئمة الطاهرين من أهل البيت سلام الله عليهم أجمعين قد ورثه خلف عن سلف إلى زمان ظهور المهدي ع و ذلك لأن فيه كل حلال و حرام و كل شيء يحدث إلى يوم القيامة و كلما يحتاج إليه الإنسان حتى الأرش في الخدش.

و مما حكي أيضا في هذا الباب عن بعض البله من أهل الحاج أنه لقي رجلا و هو يطوف طواف الوداع فأخذ ذلك الرجل

يمازح هذا الأبله هل أخذت براءتك من النار- فقال الأبله و هل أخذ الناس ذلك قال له نعم فبكى ذلك الأبله و دخل الحجر و تعلق بأستار الكعبة و جعل يبكي و يطلب من الله أن يعطيه كتابه عتقه من النار فجعل الناس و أصحابه يلومونه و يعرفونه أن فلانا مزح معك و هو لا يصدقهم و كان مستمرا على حاله فبينا هو كذلك إذ سقطت عليه ورقة من الجو من جهة الميزاب فيها مكتوب عتقه من النار فسر بها و أوقف الناس عليها و كان من آية ذلك الكتاب أنه يقرأ في كل ناحية على السواء لا يتغير كلما قلبت الورقة انقلبت الكتابة لانقلابها فعلم الناس أنه آية من عند الله و الحكايات و الآثار في هذا الباب كثيرة ذكرها يؤدي إلى الإطناب.

فإن قلت لو كان الفرق بين كتابة الخالق و كتابة المخلوق ما أشرت إليه آنفا من

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۶

أن الأولى مما يبرز من جهة الباطن و الغيب إلى جهة الظاهر و الشهادة فيدرك بين الخيال أولا ثم بعين الحس تبعا بخلاف الثانية فإن الأمر فيها على عكس ذلك من حيث إنها تدرك أولا بعين الحس ثم بعين التخيل لوجب أن يختص بمشاهدة كتابة الخالق من غلب على باطنه سلطان الآخرة دون غيره من أفراد الناس و أهل الحجاب.

قلت لعل حصولها لغيره بحسب التبعية من جهة تأثير نفسه فيهم و سراية حاله منه إليهم لأسباب خفية لا يطلع على تفاصيلها و لا يبعد أن يكون اهتمام نفوس الحاضرين- من جهة استغراقهم في تلك الساعة في التعجب عن حاله و التفكر في ذلك يوجب تعطل حواسهم الظاهرة عن استعمال النفس إياها في المحسوسات الخارجة و رجوعها إلى جانب الباطن و معدن التخيل و عالم الغيب

الفصل (۱۱) في تحقيق قول النبي ص إن للقرآن ظهرا و بطنا و حدا و مطلعا

اعلم أن القرآن كالإنسان ينقسم إلى سر و علن و لكل منهما أيضا ظهر و بطن- و لبطنه بطن آخر إلى أن يعلمه الله و لا يعلم تأويله إلا الله و قد ورد أيضا في الحديث

: أن للقرآن ظهرا و بطنا و لبطنه بطنا إلى سبعة أبطن

و هو كمراتب باطن الإنسان- من الطبع و النفس و الصدر و القلب و العقل و الروح و السر و الخفي أما ظاهر علته

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۷

فهو المصحف المحسوس الملموس و الرقم المنقوش الممسوس و أما باطن علته فهو ما يدركه الحس الباطن و يستثبته القراء و المجودون في خزانة مدركاتهم و مخزوناتهم- كالخيال و نحوه و الحس الباطن لا يدرك المعنى صرفا بل خلطا مع غواش جسمانية و عوارض مقدارية إلا أنه يستثبته بعد زوال مادة المحسوس عن الحضور فهاتان المرتبتان من القرآن دنياويتان مما يدركه كل إنسان بشري و أما باطنه و سره فهما مرتبتان أخراويتان و لكل منهما مراتب و درجات و منازل و مقامات.

فالأولى منهما مما يدركه الإنسان المتمكن من تصور المعاني بحدودها و حقائقها- منفوضة عنها اللواحق الغريبة و الآثار الخارجية المادية مأخوذا كل منهما من المبادي العقلية من حيث يشترك فيه الكثرة و يجتمع عنده الأعداد في الوحدة و يزول عنه التعاند و التضاد و يتصالح فيه الآحاد بل الأضداد لا كحالها في عالم المواد و الأجساد و مثل هذا

المعنى المشترك فيه لا يدركه الروح الإنساني ما لم يتجرد عن مقام الخلق إلى مقام الأمر- و لم ينفض عن وجه ذاته تراب قبر البدن و حواسه إذ ليس من شأن المغمور في المادة أن يكون عاقلا لشيء كما ليس من المنغمس فيها كالمحسوس أن يكون معقولا.

على أنك قد علمت أن كل مرتبة من الإدراك سواء كان إحساسا أو تخيلا أو توهما أو تعقلا لا بد له من ضرب من التجرد و أن مدار المدركية و المدركية على نحو من التجرد عن المادة و الهجرة عن الدنيا و أن درجات التجرد و المفارقة متفاوتة جدا فكذا درجات الوصول إلى درك حقائق الأشياء و القرب من عالم الإلهية و الأخذ منه تعالى.

فالروح الإنسانية تارة تتلقى إدراك الأشياء من عالم الحس و ذلك عند نزوله في مرتبة بدنه و حواسه و تارة تتلقى من عالم التخيل و التمثل الجزئي و تارة تتلقى المعارف العقلية بجوهرها العقلي الذي هو من حيز عالم الأمر و تارة تأخذ المعارف

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ٣٨

الإلهية من الله بلا حجاب من عقل أو حس فإن تصرف الحس و ما يجري مجراه لما كان فيما هو من عالم الخلق و التقدير و تصرف العقل لما كان فيما هو من عالم الأمر و التدبير فالذي يكون فوق الخلق و الأمر جميعا فهو محتجب عن الحس و العقل جميعا فلا يدرك نور الحق إلا بنور الحق و لا ينال إلا بقوة من له الأمر و الخلق كما ورد

عن أبي عبد الله ع- قال قال أمير المؤمنين ع: اعرفوا الله بالله

و الرسول بالرسالة

و أولي الأمر بالأمر بالمعروف

الحديث.

و للدلالة على تفاوت المقامات قال تعالى في صفة القرآن **إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتٰابٍ مَكْنُونٍ لاٰ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعٰالَمِينَ** فذكر له أوصافا متعددة- بحسب درجاته و مقاماته أولها و أعلاها الكرامة عند الله و أدناها التنزل إلى هذا العالم من عند رب العالمين و لا شك أن كلام الله من حيث هو كلامه قبل النزول إلى عالم الأمر و هو اللوح المحفوظ و قبل نزوله إلى عالم السماء الدنيا و هو لوح المحو و الإثبات- و نزوله إلى عالم الخلق و التقدير له مقام شامخ إلهي و مرتبة رفيعة لا يعلم إلا الله و لا يدركه أحد من الأنبياء ع إلا في مقام الأحدية عند انسلاخه عن القيود الإمكانية و تجرده عن الكونين و خروجه عن النشأتين و تجاوزه عن العالمين الخلق و الأمر و بلوغه

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ٣٩

قاب قوسين أو أدنى كما أخبر خير الأنبياء و أفضل البشر ص عن حاله

: لي مع الله وقت- لا يسعني فيه ملك مقرب و لا نبي مرسل

و للإشارة إلى هذا المقام قوله تعالى **وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّٰهُ وَ الرّٰاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ** و قوله تعالى **لاٰ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ- إِلاَّ اللّٰهُ** و قوله **أَ فَمَنْ شَرَحَ اللّٰهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ فَهُوَ عَلىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ** و في الحديث

: إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله

و للإشارة إلى مقام القلب المعنوي و الحس الباطني وقع قوله **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكْرىٰ لِمَنْ كٰانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ** و قوله حكاية عن الكفار الجاحدين **لَوْ كُنّٰا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مٰا كُنّٰا فِي أَصْحٰابِ السَّعِيرِ** و للإشارة إلى مقام الحس الظاهر من منازل القرآن قوله **فَأَجِرْهُ حَتّٰى يَسْمَعَ كَلاٰمَ اللّٰهِ** و للإشارة إلى تفاوت مقامات العلماء في درجات علمهم قال **نَرْفَعُ دَرَجٰاتٍ مَنْ نَشٰاءُ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** و قوله **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنٰا بَعْضَهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ** و قوله في حق الملائكة **وَ مٰا مِنّٰا إِلاّٰ لَهُ مَقٰامٌ مَعْلُومٌ**

تذكرة تمثيلية

و بالجملة إن للقرآن درجات و منازل كما للإنسان و أدنى مراتب القرآن و هو ما في الجلد و الغلاف كأدنى مراتب الإنسان و هو ما في الإهاب و البشرة- و للقرآن في كل مرتبة و مقام حملة يحفظونه و يكتبونه و لا يمسونه إلا بشرط طهارتهم عن حدثهم أو عن حدوثهم و نزاهتهم و انسلاخهم عن مكانهم أو عن إمكانهم و القشر من الإنسان لا يدرك إلا القشور من القرآن و الإنسان القشري من الظاهرية- لا يدرك إلا المفهومات القشرية و النكات البيانية و الأحكام العملية و السياسات الشرعية

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۴۰

و أما روح القرآن و سره و لبه فلا يدركه إلا أولوا الألباب و ذو البصائر إذ حقيقة الحكمة لا تنال إلا بموهبة الله و لا يبلغ الإنسان إلى مرتبة يسمى حكيما إلا بأن يفيض الله عليه من حكمته حكمة و من لدنه علما لأن العلم و الحكمة من صفاته الكمالية و العليم الحكيم من أسماء الله الحسنى و لا بد في من له نصيب منهما أن يكون ذلك بمجرد موهبة الله إياه له و لذلك قال سبحانه بعد قوله **وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتٰابَ وَ الْحِكْمَةَ** الآية **ذٰلِكَ فَضْلُ اللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشٰاءُ وَ اللّٰهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** و سمى الحكمة خيرا كثيرا و قال **وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَ مٰا يَذَّكَّرُ إِلاّٰ أُولُوا الْأَلْبٰابِ**

الفصل (۱۳) في توضيح ما ذكرناه و تبيين ما أجملناه من كون معرفة لب الكتاب مختصة بأهل الله من ذوي البصائر و الألباب

اعلموا أيها الإخوان السالكون المعتنون بأمر الدين و فهم غرائب الكلام المبين- أن فهم غرائبه و رموزه و عجائبه مما لم يتيسر لأحد من الناس و إن كان من الأكياس إلا لمن دارس علم اليقين و تعلم في مدارس آل ياسين و مكتب أهل التقديس و أهل الذكر الحكيم- و قراءة الآيات من أرقام اللوح العظيم و نسخة الأصل الكريم الذي هو الإمام المبين و كان معلمه **عَلَّمَكَ مٰا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كٰانَ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكَ عَظِيماً** و مؤدبه

: أدبني ربي فأحسن تأديبي

و كان كاتب لوحه بالقلم و مصور صحيفة نفسه بصورة العلم و الحكم هو **رَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسٰانَ مٰا لَمْ يَعْلَمْ** فالله سبحانه معلمه لا سبب آخر من الأسباب كفكر أو تقليد أو قياس أو رواية أو سماع بل بأن يتلقى القرآن من لدن حكيم عليم أو يسمع بسماع باطني في عالم الغيب من عند **مُطٰاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ**.

رمز قرآني و تلويح كلامي

إن أول ما ينكشف لأولاد روح القدس في مكتب التقديس معنى اللوح و القلم و الكتابة و الرقم و معنى **الم*** و **طه** و

يس وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ و معنى ص وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۴۱

و ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ و ن وَ الْقَلَمِ وَ ما يَسْطُرُونَ و معنى الحروف الجمل و هي الحروف المقطعة القرآنية و الكلمات التامات المفردة و بعدها الكلمات المركبة الفرقانية فإن العناية الربانية لما تعلقت بتربية أطفال الأرواح العالية أفاد لهم رزقهم من ألبان ضروع الملكوت و الجنان و أذاق لهم من لطائف الرحمة و الرضوان أغذية لطيفة روحانية في كسوة الحروف المفردة على طريقة الرمز و الإشارة إلى مقاصد أهل البشارة لئلا يطلع عليها الأغيار و من لم يكن لهم أهلية الوصول إلى عالم الأسرار و معدن الأنوار فكتب الله أولا في ألواح أرواحهم حروفا مجملة و مقطعات مفردة لعلهم يذكرون- و بصنائع آبائهم يصنعون و على مثل كتابتهم يكتبون و إلى منازلهم و مقاماتهم يرتقون- و بآيات الله يهتدون و إلى ربهم يرجعون لقد كنا حروفا عاليات نزلنا في سطور سافلات.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۴۲

و هذه الحروف المقطعة يسمى في عالم السر و الخفى بالحروف المجملة و حروف الجمل- و في ذلك العالم تصير الحروف المتصلة منفصلة و يصير المنفصلات مجملة متصلة لأنه في يوم الفصل و التميز ليميز الله الخبيث من الطيب و يوم الجمع أيضا بوجه لقوله تعالى- هٰذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ و قوله لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ* فأهل الدنيا لكونهم في مقام التفرقة المعنوية و الجمعية الصورية الاتصالية يرون الحروف المختلفة مجتمعة و المنفصلة متصلة و الحرف الواحد بالمعنى حروفا متعددة فأول علامة من ارتفع من هذا المنزل أن ينكشف عليه معرفة الحروف المقطعة و كيفية نزولها في لوح الكتاب- ثم في صدور منشرحة لأولي الألباب كما أشار إليه بقوله وَ لَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ هذا لقوم و أشار إلى مقام قوم آخرين بقوله تعالى قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ و قوله كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ.

فقد اتضح لك أيها السالك المسكين أن أول ما يرتسم في لوح القاري المبتدي حروف التهجي ليستعد بذلك لتلاوة الآيات المكتوبة في الصحيفة القدسية و يطيع الله تعالى في أمره اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ و قوله فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ و عند ذلك يسهل عليه التلاوة و الذكر و يتيسر له القراءة وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ* و حينئذ

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۴۳

يتأتى له المحافظة للقرآن و المداومة على تلاوة آياته بحفظ الله تعالى قلبه عن وساوس الشيطان كما قال وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ و يكون قلبه عند ذلك فلكا محفوظا عن اختطاف مردة الجن و الشياطين و سماء مزينة بزينة كواكب آيات الكتاب المبين التي بها رجوم أوهام المعطلين و أغاليط الموسوسين و استراق المنتحلين كما قال وَ حَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ

إشعار تنبيهي

و جملة القول أن من لم يظهر عليه سلطان الآخرة و لم يقم بعد عن قبر هذه النشأة- لم يطلع على معاني الكلام و رموز آيات القرآن و حروفه و كلماته و لم يحدث معه حروفه المقطعة و لم يتجل له وجه قائله و مبدئه و عظمة كاتبه و منشيه فانتبه يا مغرور و قم من مرقدك يا محكور حتى تسافر في سبيل الله مهاجرا إلى الله و رسوله و مشاهدة ملكوته الأعلى و استماع آياته الكبرى و لا تجلس مع أهل الغفلة و البطالة و ذر الذين اتخذوا دينهم هزوا و اشتغلوا بدنياهم لهوا و لعبا و غرتهم الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم- و هم الذين ذمهم الله في مواضع من كتابه و وبخهم بقوله **فَمٰا لِهٰؤُلاٰءِ الْقَوْمِ لاٰ يَكٰادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً** و شكى إلى الله رسوله عنهم بقوله-: **يٰا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً** رب رجل أديب أريب عاقل فصيح عارف بعلم اللغة و النحو و البلاغة متكلم قادر على فن المناظرة مع الخصام و الإلزام في علم الكلام لم يسمع حرفا من حروف القرآن- و لا فهم كلمة واحدة من كتاب الله النازل على عبده و لم يرغب بعد إلى ما هو بالحقيقة علم- و نور و فقه و حكمة لإعراضه عن ذلك بما أكب عليه الجمهور مما يعدونه علما و إيمانا و فقها و إيقانا.

فاخرج أيها الغافل من بيت حجابك و عتبة بابك و اخلع عنك لباس أهل الجاهلية- و انطلق عن قيودك الرسمية و رسومك العامية لترى عجائب قدرة الله و عظمته في إنزال القرآن و تنزيل الكتاب و الفرقان و ترى فتح مقاليد خزائن السماوات و الأرض بمفاتيح علم الغيب المبرى عن وصمة الشك و الريب فإن أدركك الموت في الخروج عن بيت

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۴۴

نشأتك الأولى إلى الفطرة الثانية و النشأة الآخرة فقد وقع أجرك على الله بل الله مولاك و هو آجرك و جزاك كما قال **وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهٰاجِراً إِلَى اللهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ**

الفصل (۱۳) في نعت القرآن بلسان الرمز و الإشارة

اعلم أيها المتدبر المتأمل أن القرآن إذا كشف نقاب العزة عن وجهه و رفع جلباب العظمة و الكبرياء عن سره يشفي كل عليل داء الجهل و يروي كل غليل طلب الحياة و الحقيقة و يداوي كل مريض القلب بعلل الأخلاق الذميمة و أسقام الجهالات المهلكة- و

عن رسول الله ص: إن القرآن هو الدواء و إن القرآن غني لا فقر بعده و لا غنى دونه

و القرآن هو حبل الله المتين النازل إلى هذا العالم النجاة المقيدين بسلاسل التعلقات و أغلال الأثقال و الأوزار من حب الأهل و الولد و الجاه و المال و شهوة البطن و الفرج و الذهب و الفضة و الخيل و طول الآمال و هو مع عظمة قدره و مأواه و رفعه سره و معناه مما تلبس بلباس الحروف و الأصوات و اكتسى بكسوة الألفاظ و العبارات رحمة من الله للعباد و شفقة على خلقه و تأنيسا لهم و تقريبا إلى أفهامهم و مداراة معهم و منازلة إلى أذواقهم و إلا فما للتراب و رب الأرباب ففي كل حرف من حروفه ألف رمز و إشارة و غنج و دلال و جلب لقلوب العشاق المشتاقين إلى روح الوصال فوقع النداء من عالم السماء لتخليص الأسراء من هذا المهوى و سجن الدنيا بقوله **وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**.

فبسطت شبكة الحروف و الأصوات مع حبوب المعاني لصيد طيور السماوات- و لكل طير رزق خاص يعرف ذلك مبدع الخلائق و منشيها و معيدها و مبدئها و إنما الغرض الأصلي اصطياد نوع خاص من الطيور السماوية برزق

مخصوص سماوي من

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۴۵

اغتذى به يفهم منطق الطير كله و هو المقصود من بسط الشبكة في الأرض دون غيره- **سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ*** و كان بعضهم لقصوره لا يطيق ملاحظة هذا الأمر الذي به قوت القلوب و غذاء الأرواح فألجموا عما لا يطيقون خوض غمرته فألجموا بلجام المنع و قيل لهم اسكتوا فما لهذا خلقتم لا يسأل عما يفعل و هم يسألون ما للعميان و ملاحظة حقائق الألوان.

و أما من امتلأت مشكاة قلبه نارا مقتبسا من نور القرآن فأدرك أسرار الأمور- و الكلمات و الآيات كما هي فقيل لهم تأدبوا بآداب الله و رسوله و اسكتوا فسيروا بسير أضعفكم و لا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم- و انزلوا إلى السماء الدنيا من منتهى علوكم ليأنس بكم ضعفاء الأبصار و يقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة المشرقية من وراء حجب مضروبة بينكم و بينهم و كونوا كما قيل-

شربنا و أهرقنا على الأرض فضله   و للأرض من كأس الكرام نصيب

و لذلك يوجد في القرآن ما فيه صلاح كل أحد و ما رزق من الأرزاق المعنوية و الصورية إلا و يوجد في الكتاب قسم منه لأهله **مَتٰاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعٰامِكُمْ*** و **لاٰ رَطْبٍ وَ لاٰ يٰابِسٍ إِلاّٰ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ** و كما يوجد فيه من حقائق الحكم و طرائف النعم التي فيها غذاء للأرواح و القلوب فكذلك يوجد فيه العلوم الجزئية و الأغذية و الأدوية الصورية من القصص و الأحكام و المواريث و الديات و المناكحات و غيرها مما ينتفع به المتوسطون في المنازل و العوام ففيه الأغذية المعنوية و الصورية معا و الأقسام الأخروية و الدنيوية جميعا فما من شيء إلا و فيه تبيانه و لو كان من باطنك طريق إلى ملكوت القرآن و باطنه لتعرف كونه تبيانا لكل شيء.

تنبيه و إشعار

اعلم أن خطابات القرآن كقوله **يٰا أَيُّهَا الْإِنْسٰانُ*** **يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا*** مما يختص بأحباء الله المتألهين و أوليائه المقربين لا المبعدين الممكورين و الجاحدين المنكرين- إذ ليس لهم نصيب من رزق معاني هذا الكلام و الكتاب إلا قشور الألفاظ و المباني **إِنَّهُمْ عَنِ**

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۴۶

السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ وَ لَوْ عَلِمَ اللّٰهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ لأن العناية الإلهية ما سبقت لهم بالحسنى فهكذا كان أول هذا الأمر و آخره و أنت أيضا يا حبيبي لو لم تكن مما قضى الله فيك خيرا و لم تكن أهلا لذلك بحسب ما يسر لك هذا الأمر العسير في التقدير لما وقع منك إلا التقليد كالعميان إن كنت من المسلمين و لم تكن من الجاهدين- و إذا كنت أهلا له و قد أعطاك الله عينا صحيحة غير مكفوفة بحجاب تقليد و لا مئوفة بآفة عصبية فإذا فتحت عينك أبصرت ما هو بين يديك فلا تحتاج إلى قائد يقودك و أما المقلد فهو كالأعمى في المشي يحتاج إلى قائد و لكن ليس كل ما يدرك قائدا و يفعله يمكن للمقلد أن يقلده فيه إنما التقليد يجري في الأمور الناقصة و الأفعال الدنية فالأعمى يمكن أن يقاد و لكن إلى حد ما فإذا ضاق الطريق و صار أحد من السيف و أدق من الشعر قدر

الطائر على أن يطير عليه و لم يقدر على أن يستجيز وراءه أعمى و كذا إذا دق المجال و لطف لطف الماء مثلا و لم يمكن العبور إلا بالسباحة فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن يعبر بنفسه و ربما لم يقدر على أن يستجيز وراءه آخر فلو فرض القائد كالطير في طيرانه- أوج عالم الملكوت بجو سماء الجبروت أو كالسباح الماهر في سباحة أبحر الحقائق و المعاني فلا يمكن للأعمى تقليد ذلك القائد في الطيران و لا للزمن المقعد عن أصل السير تقليد هذا في سير البحر.

فهذه العلوم التي يشتمل عليها كلام الله و كتابه نسبة التدبر فيها على الحقيقة إلى ما يدركه جماهير الناس و فيه مجال أفكارهم كنسبة المشي على المال إلى المشي على وجه الأرض فالمشي على الأرض يمكن أن يتعلم و أما المشي على الماء فضلا عن الطيران في الهواء- فلا يكتسب بالتقليد أو بالتعلم بل ينال بقوة اليقين و لذلك

: لما قيل للنبي ص إن عيسى ع يقال إنه يمشي على الماء فقال لو ازداد يقينا لمشى على الهواء

فلأهل القرآن و هم أهل الله خاصة بحمد الله أعين يبصرون بها آيات الله و لهم آذان يسمعون بها كلماته- و قلوب يعقلون بها أسرار حكمته و شريعته و أيد يبطشون بها موائد كرمه و رحمته و أرجل يمشون بها في دار كرامته و منزل جوده و رأفته

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۴۷

الفصل (١٤) في الإشارة إلى نسخ الكتب و محوها و إثباتها

قد ذكر الشيخ المحقق محيي الدين الأعرابي في الباب السادس عشر ثلاثمائة من كتابه المسمى بالفتوحات المكية أنه قال ص حكاية عن نفسه على طريق التمدح- إنه أسري به حتى ظهر لمستوى يسمع فيه صريف الأقلام و هو قوله **لِنُرِيَهُ مِنْ آيٰاتِنٰا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** فالضمير في أنه هو يعود على محمد ص فإنه أسري به فرأى الآيات و سمع صريف الأقلام فكان يرى الآيات و يسمع منها ما حظه السماع و هو الصوت فإنه عبر عنه بالصريف و الصريف الصوت فدل أنه بقي له من الملكوت فوقه قوة ما لم يصل إليه بجسمه من حيث هو راء و لكن من حيث هو سميع فوصل إلى استماع أصوات الأقلام و هي تجري بما يحدث الله في العالم من الأحكام و هذه الأقلام رتبتها دون رتبة القلم الأعلى و دون اللوح المحفوظ فإن الذي كتبه القلم الأعلى لا يتبدل و سمي

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۴۸

اللوح بالمحفوظ من المحو فلا يمحى ما كتب فيه و هذه الأقلام تكتب في ألواح المحو و الإثبات و هو قوله تعالى **يَمْحُوا اللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ وَ يُثْبِتُ** و من هذه الألواح تنزل الشرائع و الصحف و الكتب على الرسل و لهذا يدخل في الشرائع النسخ و في الشرع الواحد النسخ في الحكم و هو عبارة عن انتهاء مدة الحكم لا على البداء.

و قال أيضا و من هذه الكتابة قوله تعالى **ثُمَّ قَضىٰ أَجَلاً وَ أَجَلٌ مُسَمًّى** و من هذه الألواح وصف نفسه بأنه يتردد في نفسه و في قبضة نسمة المؤمن بالموت و هو قد قضى عليه و من هذه الحقيقة الإلهية التي كني عنها بالتردد الإلهي يكون سريانها في التردد الكوني في الأمور.

ثم قال و هذه الأقلام هذه مرتبتها و الملك الموكل بالمحو ملك كريم على الله- هو الذي يمحو على حسب ما يأمره به الحق تعالى و الإملاء على ذلك الملك و الأقلام من الصفة الإلهية التي كني عنها بالوحي المنزل على رسوله بالتردد و لو

لا هذه الحقيقة الإلهية ما اختلف أمران في العالم و لا حار أحد في أمر و لا تردد فيه و كانت الأمور كلها

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۴۹

حتما مقضيا كما أن هذا التردد الذي يجده الناس في نفوسهم حتم مقضي وجوده فيهم إذ كان العالم محفوظا بالحقائق.
ثم قال فقد أنبأتك بمكانه هذه الأقلام التي سمع صوت كتابتها رسول الله ص- من العلم الإلهي و من يمدها و إلى أي حقيقة إلهية مستندها و ما أثرها في العالم العلوي من الأملاك و الكواكب و الأفلاك و ما أثرها في العناصر و المولدات و هو كشف عجيب يحوي على أسرار غريبة و من أحكام هذه الأقلام تكون جميع التأثيرات في العالم دائما و لا بد لها أن تكتب و تثبت انتثار الكواكب و انحلال هذه الأجرام الفلكية و خراب هذه الدار الدنياوية و انتثال العمارة في حق السعداء إلى الجنان العلية التي أرضها سطح الفلك الثامن و جهنم من مقعره إلى أسفل السافلين و هي دار الأشقياء و أما القلم الأعلى فأثبت في اللوح المحفوظ كل شي‏ء يجري من هذه الأقلام من محو و إثبات ففي اللوح المحفوظ إثبات المحو في هذه الألواح و إثبات الإثبات و محو الإثبات عند وقوع الحكم و إنشاء أمر آخر فهو لوح مقدس عن المحو فهو الذي يمده القلم الإلهي باختلاف الأمور و عواقبها مفصلة مسطرة كل ذلك على الوجه الثابت و ذلك بتقدير العزيز

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۵۰

العليم و لقلوب الأولياء من طريق الكشف الإلهي الحقيقي في التمثيل من هذه الأقلام كشف صحيح كما مثلت الجنة لرسول الله ص في عرض الحائط انتهى كلامه.
و إنما اقتصرنا على نقل كلامه في هذا الباب لأنه كلام محقق عند ذوي البصيرة و لم أتعرض لشرح معانيه و حل رموزه و تطبيق مقاصده على أسلوب البرهان لأن المذكور في مواضع متفرقة من هذا الكتاب يكفي لمن تدبر فيها في ذلك سيما المذكور في مباحث علمه تعالى بالأشياء إجمالا و تفصيلا

الفصل (۱۵) في ذكر ألقاب القرآن و نعوته

لما علمت الفرق بين كلام الله و كتابه و هو بوجه كالفرق بين الأمر و الفعل فالفعل زماني متجدد و أمر الله بري‏ء عن التغير و التجدد و كذا علمت الفرق بين كون النازل قرآنا- و كونه فرقانا و أن أحدهما بسيط و الآخر مركب فقد حصل هاهنا أربعة ألقاب الكلام و الكتاب و القرآن و الفرقان.

فاعلم أن من جملة أسمائه و نعوته «النور»

لأنه نور عقلي ينكشف به أحوال المبدإ و المعاد و يتراءى منه حقائق الأشياء و يهتدى به في ظلمات بر الأجسام و بحر النفوس- و يظهر به للسالكين إلى دار الأخرى طريق الجنة و طريق النار قال تعالى **قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ**

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۵۱

إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ فقوله نور إشارة إلى مرتبة العقل القرآني- البسيط المسمى بالقلم الإلهي و قوله كتاب إشارة إلى مرتبة العلم التفصيلي المثبت- في اللوح المحفوظ و للإشارة إلى هاتين المرتبتين قوله

تعالی **وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الْخِطابِ** فالحكمة للقرآن و التفصيل للكتاب و قال **أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها**.

و من أسمائه الحكمة

و هي أفضل علم بأفضل معلوم فلا حكيم بالحقيقة إلا الله و لهذا قيل إنها موهبة ربانية لا تحصل بسعي و اكتساب و لا يوصف بها إلا

الحكمة المتعالية فی الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۵۲

المتجردون عن جلباب البشرية و المنسلخون عن لباس هذا الوجود الكوني بالزهد الحقيقي و الفناء عن شوائب الخلقية كما قال **ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** بعد قوله **وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ**.

و من أسمائه الخير

قال **وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً**.

و من أسمائه الروح

قوله تعالی **يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ- لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ**

و منها الحق

لأنه ثابت لا يتغير أبدا من حق الأمر إذا ثبت و لأنه صادق مطابق للواقع لا يعتريه شك و لا ريب قوله **وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ** و قوله تعالی **نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا** و قوله **أَ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ** و قوله **بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ**

و منها الهدی

لأنه لا يهدی إلی الحق و هو الحق باعتبار آخر كما مر قوله تعالی **ذلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ*** و قوله **هُدىً لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**.

و منها الذكر

لأنه ما يتذكر به أمور الآخرة و أحوال المبدإ و المعاد قوله تعالی- **إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ**

و منها النبأ العظيم

لأنه يخبر عن عالم الغيب- و المغيبات و عن أسرار النفوس و ضمائر القلوب **قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ**.

و منها الشفاء

لأنه يقع به الشفاء عن الأمراض النفسانية و الأسقام الباطنية الآلام الأخروية من عذاب الجهل و الحسد و الكبر و العجب و الريا و النفاق و الرعونة و الشهوة و الغضب و حب المال و الرئاسة و سائر الأمراض المهلكة التي إذا استحكمت و تمكنت في القلب أعيت أطباء النفوس عن علاجها قوله تعالی **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ**.

و منها الرحمة

قوله تعالى وَ ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ و قوله وَ إِنَّهُ لَهُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ.

و منها العلي الحكيم

أما كونه عليا فلأن أصل حقيقته من العالم العلوي العقلي و أما كونه حكيما أي ذا حكمة فلأن القرآن كما مر له مقام عقلي قائم بذاته فيه حقائق

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۵۳

الأشياء على وجه بسيط إجمالي و أن العقل بالفعل كما علمت عاقل و عقل باعتبارين و كذلك القياس في كونه حكيما و حكمة فهو حكمة من حيث كونه بذاته علما بحقائق الموجودات أو حكيم من حيث إنه علم قائم بذاته في المقام العقلي فذاته من غير صفة زائدة عالم بالأشياء كما هي فيكون حكيما لأن صدق المشتق لا يستدعي عروض مبدإ الاشتقاق قوله تعالى يس وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ و قوله تعالى وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ.

و منها ذو الذكر

و الفرق بين كونه ذكرا و ذا الذكر اعتباري كما مر في كونه حكمة و حكيما قوله تعالى ص وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ.

و منها التنزيل

لكونه نزل الله من المرتبة العقلية الإجمالية إلى المرتبة النفسية التفصيلية قوله تعالى تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

و منها المنزل

قوله تعالى وَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ و الفرق بين كونه تنزيلا و كونه منزلا على قياس ما سبق-

و منها البشير و النذير

قوله تعالى كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيراً وَ نَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ.

و منها البشرى

و الفرق بين البشرى و البشير كما مر قوله تعالى هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ* و كذا الحال في كونه هدى و هاديا كما في قوله تعالى وَ يَهْدِي إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ.

و منها المجيد

قوله تعالى ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

و منها العزيز

قوله تعالى وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ.

و منها العظيم

قوله تعالى وَ لَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ.

و منها الموعظة الحسنة

قوله تعالى ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ.

و منها النعمة

لأنه مما يتنعم و يتلذذ به أهل الله فوق ما يتنعم و يتلذذ أهل الدنيا بلذاتهم الحسية و لا نسبة بين نعمة الدنيا و نعمة الآخرة بل هذه اللذائذ الحسية آلام- بالإضافة إلى لذة المعرفة و الحكمة كما سنبين في موضعه قوله تعالى **يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها وَ أَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ** أي يصدقون بحقيقتها مجملا و إلا فلو عرفوها عرفانا

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۵۴

حقيقيا لفازوا بالنعيم الأبدي و لم يكونوا من أهل الجحود و لذلك وصفهم بالكفر.

و منها الرزق

قوله تعالى **رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏**.

و منها المبين

لأنه يتبين به حقائق الموجودات و يظهر به أسرار النشأتين- و أحكام الربوبية و العبودية و أحوال العباد و أقسامهم يوم البعث و المعاد قوله تعالى- **تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ**.

و منها الميزان

لأنه معيار صحيح و مقياس مستقيم يوزن به مثاقيل الأعمال و موازين العلوم و الأفكار فيستعلم به صحيحها من فاسدها و رائجها في سوق القيامة من كاسدها و حقها من باطلها قوله تعالى **لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** و قوله **وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ** إلى غير ذلك من الألقاب و الأسامي و لا شك أن كثرة الأسامي و الأوصاف تدل على عظم شأن المسمى و الموصوف و الله أعلم بجلالة شأن كلامه و كتابه

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۵۵

الموقف الثامن في العناية الإلهية و الرحمة الواسعة لكل شيء و كيفية دخول الشر و الضر في المقدورات الكائنة بحسب القضاء الإلهي و التقدير الرباني و فيه فصول

الفصل (۱) في القول في العناية

لا شبهة في أن واجب الوجود تام الحقيقة و فوق التمام و كذا لضرب من ملائكته المقربين و العقول القادسين تامة الذوات متصلة الهويات بهوية الواحد الحق فلا يفعلون ما يفعلون لأجل غرض فيما دونهم من أحوال هذا العالم و بالجملة العلل العالية لا يجوز

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۵۶

أن يكون صدور الأفعال منها لأغراض و غايات تعود إليها من فعلها و لم تكن حاصلة قبل الفعل و إلا لم تكن تامة كاملة الذات بل ناقصة مستفيدة الكمال من جهة معلولاتها- و هذا ممتنع جدا فثبت أنها لا يهمها في فعلها شيء و لا يدعوها داع و لا يتعرض على ذواتها إيثار طار و لا إرادة زائدة إلا الاقتداء بالخير الأقصى و النور الأتم الأعلى.

و أما الواحد الحق فليس فوقه غاية ينظر إليها في إفاضة الخير و بث الرحمة العامة- و مع ذلك فإنا نشاهد في موجودات هذا العالم و أجزاء النظام و أفراد الأكوان سيما في النبات و الحيوان بل في كليات الأعيان من الأفلاك و الأركان من حسن التدبير و جودة الترتيب و رعاية المصالح و المنافع و إبداع القوى و الأسباب الملائمة للأغراض الدافعة للآفات و المفسدات ما نقضي به آخر العجب و لا يسع لأحد أن ينكر الآثار العجيبة في جزئيات الأكوان فكيف في كلياتها كما سنذكر أنموذجا منها و تلك الجزئيات مثل مصالح و منافع روعيت في بعض النباتات كالنخل و العنب و بعض الحيوانات العجم الحقيرة- كالنحل و العنكبوت مما ليس يصدر ذلك على وجه الاتفاق من غير تدبير سابق و حكم مطابق و مصلحة مرعية و حكمة مرضية.

فإذن يجب أن يعلم أن العناية كما مر هي كون الأول تعالى عالما لذاته بما

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۵۷

عليه الوجود في النظام الأتم و الخير الأعظم و علة لذاته للخير و الكمال بحسب أقصى ما يمكن و راضيا به على النحو المذكور و هذه المعاني الثلاثة التي يجمعها معنى العناية من العلم و العلية و الرضا كلها عين ذاته بمعنى أن ذاته عين العلم بنظام الخير و عين السبب التام له و عين الرضا به و هو المشية الأزلية فذاته بذاته صورة بنظام الخير على وجه أعلى و أشرف لأنه الوجود الحق الذي لا غاية له و لا حد في الكمال وراءه فإذا كان كذلك فيعقل نظام الخير على الوجه الأبلغ في النظام و الأتم بحسب الإمكان فيفيض عنه ما يعقله نظاما و خيرا على الوجه المذكور الذي عقله فيضانا و صدورا متأديا إلى غاية النظام و صورة التمام على أتم تأدية.

فهذا هو معنى العناية الخالية عن الشين و النقص و من اعتقد غير هذا من القائلين بالاتفاق المنسوب إلى بعض القدماء و القائلين بالإرادة الخالية عن الحكمة- و العناية المنسوبة إلى الشيخ الأشعري و القائلين بالفرض السفلي العائد إلى الخلق فقد ضلوا ضلالا بعيدا حيث جهلوا تنزيه الله تعالى و توحيده و ما قدروا الله حق قدره

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۵۸

الفصل (۳) في مباحث الخير و الشر

إن الخير ما يتشوقه كل شيء و يتوخاه و يتم به قسطه من الكمال الممكن في حقه- و يكون كل ذات مولية وجد القصد إلى شطره في ضروريات وجودها و أوائل فطرتها و في مكملات حقيقتها و متممات صفاتها و أفعالها و ثواني فضائلها و لواحقها فالخير المطلق الذي يتشوقه كل الأشياء و يتم به أو بما يفيض منه ذواتها و كمالات ذواتها هو القيوم الواجب بالذات جل ذكره لأنه وجود مطلق لا نقص فيه و نور محض و بهاء محض و تام و فوق التمام فيعشقه و يتشوقه كل ممكن بطباع إمكانه و كل موجود دونه بطباع نقصانه فيخضع له كل معلول بقوام معلوليته و فقره فكل ما سواه لا يخلو من شوب نقص و فقر فلم يكن شيء مع المعلولات خيرا محضا من كل جهة بل فيه شوب شرية بقدر نقصان درجته عن درجة الخير المطلق الذي لا ينتهي خيريته إلى حد و لا يكون فوقه غاية و للشر معنى آخر هو المصطلح عليه و هو فقد ذات الشيء أو فقد كمال من الكمالات التي يخصه من حيث هو ذلك الشيء بعينه- و الشر على كلا المعنيين أمر عدمي و إن كان له حصول في بعض كحصول الأعدام و الإمكانات للأشياء ضربا من الحصول في طرف الاتصاف و

لأجل ذلك قالت الحكماء إن الشر لا ذات له بل هو أمر عدمي إما عدم ذات أو عدم كمال ذات و الدليل عليه أنه لو كان أمرا

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۵۹

وجوديا لكان إما شرا لنفسه أو شرا لغيره لا جائز أن يكون شرا لنفسه و إلا لم يوجد لأن وجود الشيء لا يقتضي عدم نفسه و لا عدم شيء من كمالاته و لو اقتضى الشيء عدم بعض ما له- من الكمالات لكان الشر هو ذلك العدم لا هو نفسه ثم كيف يتصور أن يكون الشيء مقتضيا لعدم كمالاته مع كون جميع الأشياء طالبة لكمالاتها اللائقة بها و العناية الإلهية كما أشير إليها لا نقتضي إهمال شيء بل توجب إيصال كل شيء إلى كماله فيكون الأشياء بطبائعها و غرائزها طالبة لكمالاتها و غاياتها لا مقتضية لعدمها و نقصانها و لا جائز أيضا أن يكون الشر على تقدير كونه وجوديا شرا لغيره لأن كونه شرا لغيره إما أن يكون لأنه يعدم ذلك الغير أو يعدم بعض كمالاته أو لأنه لا يعدم شيئا فإن كان كونه شرا لكونه معدما للشيء أو لبعض كمالاته فليس الشر إلا عدم ذلك الشيء أو عدم كماله لا نفس ذلك الأمر الوجودي المعدم و إن لم يكن معدما لشيء أصلا فليس بشر لما فرض أنه شر له- فإن العلم الضروري حاصل بأن كلما لا يوجب عدم شيء و لا عدم كماله فإنه لا يكون شرا لذلك لعدم استضراره به و إذا لم يكن الشر الذي فرضناه أمرا وجوديا شرا لنفسه- و لا شرا لغيره فلا يجوز عده من الشر و صورة هذا القياس على نظمه الطبيعي هكذا لو كان الشر أمرا وجوديا لكان الشر غير شر و التالي باطل فكذا المقدم و بيان اللزوم و بطلان التالي ما مر تقريره فعلم أن الشر أمر عدمي لا ذات له إما عدم ذات أو عدم كمال ذات و أنت إذا تأملت و استقريت معاني الشرور و أحوالها و نسبها وجدت كلما يطلق عليه اسم الشر لا يخرج من أمرين فإنه إما عدم محض أو مؤد إلى عدم فيقال شر لمثل الموت و الجهل البسيط و الفقر و الضعف و التشويه في الخلقة و نقصان العضو و القحط و أمثالها من عدميات محضة و يقال شر لما هو مثل الألم و الحزن و الجهل المركب و غير ذلك من الأمور التي فيها إدراك لمبدإ ما و سبب ما لا فقد لمبدإ ما و سبب ما فقط فإن السبب المضر المنافي للخير و الكمال الموجب للفقد و الزوال قسمان.

القسم الأول ما كان مواصلا للمضرور به

المئوف من جهة وجوده فيدركه مدرك عدم الصحة و السلامة كمن يتأذى بفقدان اتصال عضو بوجود حرارته ممزقة له قطاعة لذاعة فإنه من حيث يدرك فقدان الاتصال و زوال الصحة بقوة شاعرة في مادة ذلك العضو

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۶۰

و طبيعته يدرك بتلك القوة بعينها السبب الموذي الحار أيضا فيكون هناك إدراكان إدراك أمر عدمي على نحو إدراك سائر الأمور العدمية و إدراك أمر وجودي على نحو إدراك سائر الأمور الوجودية و هذا المدرك الوجودي ليس شرا في نفسه بل بالقياس إلى هذا الشيء و أما المدرك الآخر من عدم الكمال و زوال الاتصال فهو شر في نفسه و ليس شرا بالقياس إليه فقط حتى يتصور له وجود ليس يكون بحسبه شرا بل و ليس نفس وجوده إلا شرا فيه و على نحو كونه شرا- فإن العمى لا يجوز أن يكون إلا في العين و من حيث هو في العين لا يجوز أن يكون إلا شرا- و ليس له جهة أخرى يكون بها غير شر بخلاف ذلك الأمر الوجودي المضر المؤلم فإن الحرارة الموذية أو الخلط اللذاع أو السم القاتل يتصور لها

نحو آخر من الوجود لا تكون بحسبه شرا بل خيرا.

و القسم الثاني ما كان غير مواصل للمضرر به

كالسحاب المظل المانع لإشراق الشمس على المحتاج إليه في استكماله بالتسخين و كالبرد المفسد للثمار و المطر المانع عن تبيض الثياب فإن كان المفتقر إلى الاستكمال دراكا أدرك فقد كماله و عدم انتفاعه و لكن لم يدرك من حيث إنه يدرك لذاك أن السحاب قد حجب أو المطر قد منع أو البرد قد أفسد ثماره بل من حيث إنه مدرك بقوة أخرى كالبصر أو غيره فإن المفتقر إلى التسخن بشعاع الشمس مثلا مزاج بدنه بقوة اللمسية و هي بالحقيقة عادته للكمال اللمسي و فاقدة للسلامة و الاعتدال المزاجيين و هي أيضا مدركة لهذا الشر الحقيقي الذي هو العدم و الفقدان و أما المدرك للمزيل المانع كالسحاب

الحكمة المتعالية فی الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۶۱

هاهنا فهو البصر لا قوة اللمس فليس هو من حيث إنه مبصر متأذيا عن السحاب و لا متضررا منه و لا منتقصا بل من حيث كونه ذا لمس و ذا قوة لمسية و القوة اللمسية لا تدرك السحاب المعدم لكماله بل الذي تدركه هذه القوة هو عدم الصحة و زوال الكيفية الملائمة فالشر بالذات هو العدم و لا كل عدم بل عدم واصل إلى الشيء و لا كل عدم واصل إليه فإن عدم الحلاوة في قوة السمع و البصر ليس بشر لهما بل عدم واصل إليه- يكون عدم مقتضى طبيعته من الكمالات التي تخص لنوعه و طبيعته.

و أما الوجودات فهي كلها خيرات إما مطلقا أي بالذات و بالقياس جميعا- أو بالذات و لكن قد يعرضها بالقياس إلى بعض الأشياء أن يؤدي إلى عدمه أو عدم حال من أحواله و يقال لها الشر بالعرض و هو المعدم المزيل أو الحابس المانع للخير عن مستحقه أو المضاد المنافي لكمال يقابله و خير يضاده.

و من هذا القسم الأخلاق المذمومة المانعة للنفوس عن الوصول إلى كمالاتها العقلية كالبخل و الجبن و الإسراف و الكبر و العجب و كذا الأفعال الذميمة كالظلم و القتل عدوانا و كالزنا و السرقة و الغيبة و النميمة و الفحش و ما أشبهها فإن كل واحد من هذه الأشياء في ذاته ليس بشر و إنما هي من الخيرات الوجودية و هي كمالات لأشياء طبيعية بل لقوى حيوانية أو طبيعية موجودة في الإنسان و إنما شريتها بالقياس إلى قوة شريفة عالية شأنها في الكمال أن تكون قاهرة على ما تحتها من القوى غير خاضعة و لا مذعنة إياها.

الحكمة المتعالية فی الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۶۲

فالحر و البرد المولمان للحيوان المفسدان للثمار و لأغذية الإنسان و سائر الأنعام كيفيتان من الكيفيات الفعلية و هما من كمالات الأجسام الطبيعية العنصرية و إنما الشر في فقد الصحة و السلامة و زوال الاعتدال من أمزجة النبات و الحيوان و كذلك الأخلاق الذميمة كلها كمالات للنفوس السبعية و البهيمية و ليست بشرور للقوى الغضبية و الشهوية- و إنما شرية هذه الأخلاق الرذيلة بالقياس إلى النفوس الضعيفة العاجزة عن ضبط قواها عن الإفراط و التفريط و عن سوقها إلى مسلك الطاعة للتدبير الأتم الذي ينوط به السعادة الباقية و كذا شرية هذه الأفعال الذميمة كالزنا و الظلم بالنسبة إلى السياسة البدنية أو المدنية و الظلم إنما هو شر بالنسبة إلى المظلوم على الوجه الذي عرفته و أما بالنسبة إلى الظالم من

حيث هو ظالم فليس بشر إلا بكونه ذا قوة نطقية فيتضرر به أزيد مما يتضرر به المظلوم في أكثر الأمر و كذلك الآلام و الأوجاع و الغموم و الهموم و غيرها فهي من حيث كونها إدراكات لأمور و من حيث وجودها أو صدورها من العلل الفاعلة- لها خيرات كمالية و إنما هي شرور بالقياس إلى متعلقاتها من الأعدام و الفقدانات أو المفسدات و المولمات.

فإذا تصفحت عن جميع الأشياء الموجودة في هذا العالم المسماة عند الجمهور شرورا لم تجدها في أنفسها شرورا بل هي شرور بالعرض خيرات بالذات كما مر بيانه بالوجه القياسي.

و الغرض من ذكر هذه الأمثلة ليس الاستدلال على هذا المطلب من جهة الاستقراء أو التمثيل بل لدفع النقوض بإيرادها و ليتضح الفرق بين الشر بالذات و الشر بالعرض و يزول الاشتباه بين الأمرين و ينكشف أن الشر في كل ما يعدونه شرا يرجع إلى الأمر العدمي- و إلا فالبرهان هو الذي مر بيانه في أول هذا الفصل و ربما يدعى البداهة في هذا المطلوب- و المذكور من الأمثلة للتنبيه و التذكير.

شك و تحقيق

اعلم أن هاهنا إشكالا معضلا لم تنحل عقدته إلى هذا الوقت و هي منحلة

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‌۷، ص ۶۳

بعون الله العزيز.

تقريره أن الألم هو نوع من الإدراك فيكون وجوديا معدودا من الخيرات بالذات و إن كان متعلقة عدميا فيكون شرا بالعرض كما ذكروا فيكون هناك شر واحد بالحقيقة هو عدم كمال ما لكنا نجد بالوجدان أنه يحصل هناك شران أحدهما ذلك الأمر العدمي كقطع العضو مثلا و زوال الصحة و الآخر الأمر الوجودي الذي هو نفس الألم و ذلك الأمر الوجودي المخصوص شر لذاته و إن كان متعلقة أيضا شرا آخر فإنه لا شك أن تفرق الاتصال شر سواء أدرك أو لم يدرك ثم الألم المترتب عليه شر آخر بين الحصول لا ينكره عاقل حتى لو كان التفرق حاصلا بدون الألم لم يتحقق هذا الشر الآخر و لو فرض تحقق هذا الألم من غير حصول التفرق لكان الشر بحاله فثبت أن نحوا من الوجود شر بالذات فبطلت هذه القاعدة الكلية أن كلما هو شر بالذات فهو أمر عدمي فهذا ما ذكره العلامة الدواني في حاشية التجريد و لم يتيسر له دفعه و لذا قال و التحقيق أنهم إن أرادوا أن منشأ الشرية هو العدم فلا يرد هذا النقض عليهم- و إن أرادوا أن الشر بالذات هو العدم و ما عداه إنما يوصف به بالعرض حتى لا يكون بالحقيقة- إلا شرية واحدة هي صفة العدم بالذات و ينسب إلى غيره بالتوسط كما هو شأن الاتصاف بالعرض- فهو وارد فافهم انتهى كلامه.

و أقول في دفعه إن مقصودهم هو الثاني و الإيراد مدفوع عنهم بأن الألم

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‌۷، ص ۶۴

إدراك للمنافي العدمي كتفرق الاتصال و نحوه بالعلم الحضوري و هو الذي يكون العلم فيه هو المعلوم بعينه لا صورة أخرى حاصلة منه فليس في الألم أمران أحدهما مثل

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‌۷، ص ۶۵

التفرق و القطع و فساد المزاج و الثاني صورة حاصلة منه عند المتألم يتألم لأجلها بل حضور ذلك المنافي العدمي هو الألم بعينه فهو و إن كان نوعا من الإدراك لكنه من أفراد العدم فيكون شرا بالذات و هو و إن كان نحوا من العدم لكن له ثبوت على نحو ثبوت أعدام

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۶۶

الملكات كالعمى و السكون و الفقر و النقص و الإمكان و القوة و نظائرها.

و قد علمت أن وجود كل شيء عين ماهيته فوجود العدم عين ذلك العدم كما أن وجود الإنسان عين الإنسان و وجود الفلك عين الفلك و علمت أيضا أن العلم بكل شيء عين المعلوم منه بالذات فهاهنا الوجود عين التفرق أو الانقطاع أو الفساد الذي هو عدمي و الإدراك المتعلق به عين ذلك الوجود الذي هو نفس الأمر العدمي.

فقد ثبت أن الألم الذي هو الشر بالذات من أفراد العدم و لا شك أن العدم الذي يقال إنه شر هو العدم الحاصل لشيء لا العدم مطلقا كما أشير إليه سابقا فإذن لا يرد نقض على قاعدة الحكماء أن كلما هو شر بالذات فهو من أفراد العدم البتة.

و الذي يزيدك إيضاحا لهذا المقام من أن الآلام و الأوجاع من جملة الأعدام- أن النفس قد أشرنا إلى أن قواها سارية في البدن و أنها هي التي تشعر و تحس بأنواع المحسوسات- فهي بعينها الجوهر اللامس الذائق الشام و هي عين الصورة الطبيعية الاتصالية المزاجية- و كل ما يرد على البدن من الأحوال وجوديا كان أو عدميا فالنفس تنفعل منه و تناله بالحقيقة و تتأثر منه لأجل قواها السارية في البدن فتفرق الاتصال الوارد على الجسم- لا شك أنه شر للجسم لأنه زوال اتصاله و عدم كماله فلو كان الجسم موجودا حيا عند انفصاله شاعرا يتفرق اتصاله كان له غاية الشرية التي لا تتصور فوقها شرية الشيء لأنه

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۶۷

يثبت عدمه له عند وجوده فإذا كان كذلك و النفس كما علمت لها ضرب من الاتحاد بالبدن- فكلما يرد على البدن عند تعلق النفس به فكأنما ورد على ذات النفس و لهذا تتأذى و تتألم بالجراحات و الأمراض و سوء المزاج البدني بقدر تعلقها به و اتحادها لكن النفس لما كانت لها مقامات أخرى و نشأت غير هذه النشأة التي وقع لها الأذى بسببها لم يكن أذاها من جراحة عظيمة أو سوء مزاج شديد أو فساد أو موت مثل أذى الحي [الحس] الذي حياته بعينها حياة البدن.

فتأمل يا حبيبي لتدرك أن الشر غير لاحق إلا لما في طباعه ما بالقوة و ذلك لأجل المادة الجسمية بسبب أن وجودها وجود ناقص متهيىء لقبول الفساد و الانقسام و التكثر- و حصول الأضداد و الاستحالة و التجدد في الأحوال و الانقلاب في الصور فكلما هو أكثر براءة من المادة فهو أقل شرا و وبالا.

و اعلم أن الشرور تلحق المواد على وجهين

لأنها إما أن تلحقها لأول أمر يعرضها في أول الكون و إما لأمر يطرأ عليها بعد التكون

فالقسم الأول

كما تتمكن في أول وجودها هيئة من الهيئات تمنعها تلك الهيئة استعدادها الخاص للكمال الذي هنيت المادة بشر يقابله و يوازيه كالمادة التي تتكون منها صورة إنسان أو فرس أو نبات إذا عرض لها من الهيئات ما جعلها أسوء مزاجا و أقل

اعتدالا و أعصى جوهرا من قبول تلك الصورة على الوجه الأكمل فلم يقبل التقويم الأحسن و التشكيل الأتم و التخطيط الأليق فتشوهت الخلقة بسببها و لم يوجد المحتاج إليه من كمال الاعتدال في المزاج و تمام الشكل في البينة لا لأن الفاعل المعطي قد قصر و ما أجاد فيما أفاد بل لأن المنفعل لم يقبل.

و أما القسم الآخر

فهو أحد أمرين إما مانع و حاجب يحول بين الشيء و مكمله

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۶۸

و إما مضاد واصل مبطل للكمال ممحق مثال الأول وقوع سحب كثيرة متراكمة أو أظلال جبال شاهقة تمنع تأثير الشمس في الثمار لتبلغ إلى النضج و تنال الكمال و مثال الثاني حصول البرد الشديد للنبات المصيب لكماله في وقته حتى يفسد استعداده الخاص و ما يتبعه من الصورة الكمالية

الفصل (۳) في أقسام الاحتمالات التي للموجود من جهة الخير و الشر

قد جرت عادة الحكماء بأن يقسموا الموجودات الممكنة بالقسمة العقلية في بادي الاحتمال إلى خمسة أقسام ما هو خير كله لا شر فيه أصلا و ما فيه خير كثير مع شر قليل و ما فيه شر كثير مع خير قليل و ما يتساوى فيه الخير و الشر و ما هو شر مطلق لا خير فيه أصلا و الأقسام الثلاثة الأخيرة غير موجودة في العالم أصلا إنما الموجود من الخمسة المذكورة هو قسمان-

فالقسم الأول الذي كله خير مطلق لا شر فيه أصلا

هي أمور وقعت تامة الوجود- لا يفوتها شي‏ء مما ينبغي أن يكون لها بالإمكان العام إلا و قد حصل لها في فطرتها الأصلية الأولية و لا يخالطها ما لا ينبغي لها لا في أول الوجود و لا بعده لأنها بالفعل من جميع الوجوه- و هي كالعقول المقدسة و كلمات الله التامات التي لا تبيد و لا تنقص و يتلوها من حزبها النفوس السماوية فإنها و إن كان فيها ما بالقوة إلا أنها مستكفية بذاتها و مقوم ذاتها في خروجها من القوة إلى الفعل غير ممنوعة عن البلوغ من حد النقص إلى الكمال الممكن

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۶۹

و كذلك ضرب من النفوس الكاملة الإنسانية إذا لحقت بالسابقين المقربين فهي أيضا من هذا القسم فيجب وجود هذا القسم من المبدإ الأعلى لأجل كونه خيرا محضا يفعل الخير لا محالة و قد علمت مما سبق من البراهين وجود العالم العقلي و من قاعدة إمكان الأشرف و الأخس وجود الأشرف قبل وجود الأخس.

و القسم الثاني و هو الذي فيه خير كثير يلزمه شر قليل

فيجب وجود هذا القسم أيضا منه لأن تركه لأجل شره القليل ترك الخير الكثير و ترك الخير الكثير شر كثير فلم يجز تركه فيجب إيجاده عن فاعل الخيرات و مبدإ الكمالات و مثال هذا القسم الموجودات الطبيعية التي لا يمكن وجودها على كمالها اللائق بها إلا و قد يعرض لها بحسب المصادمات و المصاكات الاتفاقية منع غيرها عن كمالاتها أو محق الكمالات عن غيرها كالنار التي كمالها في قوة الحرارة و الإحراق و بها تحصل المصالح العظيمة و المنافع الكثيرة لكن

قد يعرض لها إحراق بيت ولي و ثياب نبي و كذا الماء الذي كماله في البرودة و الرطوبة و السيلان و قد يعرض له تغريق بلاد و هلاك عباد و كذلك الأرض و الهواء و المطر و السحاب و غير ذلك.

و هذا القسم من الموجودات الممكنة إنما يكون فيما يمكن فيه الإحالة و الاستحالة- و الكون و الفساد لكن إذا تأملنا حال الشخص المستضر بشيء من هذه العناصر الأربعة- و تأملنا حال انتفائه طول عمره بكل واحد منها لم يكن لذلك القدر اليسير من الضرر نسبة يعتد بها إلى ذلك النفع الكثير و إذا كان الأمر كذلك في الشخص الواحد المستضر فكيف يكون الحال في نسبة ذلك الضرر اليسير إلى انتفاع جميع الأشخاص الإنسانية و الحيوانية و غيرها و كذلك الأدوية و الأغذية النباتية التي قد يتضرر بها في الندرة و كذلك وجود حيوانات في أنفسها خير إلا أنه يعرض لها بسبب مصاكات اتفاقية تأدى ضررها إلى غيرها من الحيوانات كالحيات و العقارب و السباع الضارية و الجوارح المفترسة و غير ذلك- و كذلك الإنسان المستعد للكمالات النفسانية و العقلية و الخيرات الظنية و الحقيقية قد يعتريه بسبب أمور اتفاقية اعتقادات فاسدة و جهالات مركبة و أخلاق ذميمة و أعمال سيئة و اقتراف خطيئات تضره في المعاد و لكن هذه الشرور إنما تكون في أشخاص

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۷۰

قليلة أقل من أشخاص سالمين عن هذه الشرور و الآفات و في أوقات أقل من أوقات العافية و السلامة عنها

الفصل (٤) في أن جميع أنواع الشرور من القسم المذكور لا توجد إلا في عالم الكون و الفساد بسبب وقوع التضاد فيه

و ذلك لأنك قد علمت أن الشر الذي كلامنا فيه و يقع الاصطلاح عليه هو عدم ذات أو عدم كمال لها و أما كون نوع أدون منزلة من نوع آخر أو أخس درجة منه في حد نفسه- فليس ذلك شرا في حقه فكون العقل أدون من الواجب و كون النفوس أخس منها و الأفلاك أدون من الكواكب و الطبيعة أدون من النفس لا يعد من الشرور فعلى هذا لا يوجد الشر في

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۷۱

عالم الأفلاك و ما فيها و ما فوقها أصلا بل إنما توجد تحت السماء و في عالم الكون و الفساد- و مادة الكائنات العنصرية.

و التي يقع فيها من أنواع الشرور قليلة بالنسبة إلى الخيرات الواقعة فيها و منشأ ذلك الوقوع هو قبولها للتضاد الموجب للكون و الفساد فإنه لو لا التضاد ما صح حدوث الحادثات التي بسبب الاستحالات الباعثة للاستعدادات فما صح وجود نفوس غير متناهية و أشخاص كذلك و النفوس لا تحصل إلا عند حصول الأبدان و استعدادات مادتها لتعلق النفس بها و ذلك لا يحصل إلا بتفاعل الكيفيات المتضادة فالتضاد الحاصل في هذا العالم سبب دوام الفيض فيكون خيرا بالنسبة إلى النظام الكلي و شرا بالنسبة إلى الأشخاص الجزئية على أن التضاد الذي هو سبب الكون و الفساد ليس بجعل جاعل لأن كون الكيفيات كالحرارة و الرطوبة و اليبوسة و أشباهها متضادة إنما هو من لوازم ماهياتها- بحسب وجودها الخارجي المادي و إن لم يكن من لوازم وجودها العقلي كما وقعت الإشارة إليه و لوازم الوجودات كلوازم الماهيات غير

مجعولة بالذات فالمجعول بالذات في هذه الأنواع نفس وجوداتها لا نقائصها و نقصاناتها الذاتية كما مر ذكره و قبولها للتضاد من النقائص اللازمة لذاتها لا بجعل جاعل و كما لا يمكن أن يجعل الفاعل و الأشكال الكرية

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۷۲

متراصة دون خلل و يمكن ذلك في المربعات و المسدسات و ما ينحل هي إليه كالمثلث المتساوي الأضلاع كذلك لا يمكن للفاعل أن يجعل أصول الكائنات غير متضادة

الفصل (۵) في كيفية دخول الشرور في القضاء الإلهي

قد علمت أنه ليس للماهيات الممكنة في إمكانها و افتقار وجودها إلى موجد علة- و لا لكون وجودها ناقصا عن التمام الواجبي و لا لكون مادة الكائنات متضادة الصور سبب- و لا لكون المتضادين متفاسدين سبب و لا لكون النار محرقة و البحر مغرقا سبب و لا لكون المستغرق في شهوات الدنيا و لذاتها محترقا بنار الجحيم محجوبا عن الجنة و النعيم سبب- فهذه هي اللوازم الضرورية التي ليست بجعل جاعل إنما المجعول ملزوماتها التي هي من جملة الخيرات فكثير من الغايات الكمالية لبعض الأشياء مضرة أو مفسدة لبعض الأشياء- كما أن غاية القوة الغضبية مضرة بالقوة الناطقة.

و قد عرفت فيما تقدم في العلم الكلي من مباحث العلة الغائية الضرورات التي تلزم الغايات الذاتية فهذه الشرور من لوازم الغايات الخيرية كالإمكانات اللازمة للهويات- و النقصانات الضرورية للوجودات و النقصانات الوجودية عن رتبة الوجود الأول متفاوتة

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۷۳

فإن نقصان الجسم عن درجة الواجب أكثر من نقصان النفس و نقصان الحس عن درجة العقل الأول أكثر من نقصان الخيال فلو كان النقصان في جميع الممكنات متشابها كانت الأنواع كلها نوعا واحدا و ماهياتها ماهية واحدة و كما أن ماهيات الأنواع بحقائقها متفاوتة فكذلك هويات الأشخاص التي تحت نوع واحد متفاوتة.

و بالجملة الإبداع يوجب نقصان المبدع عن المبدع و إلا لم يكن أحدهما بكونه مبدعا و الآخر مبدعا أولى من العكس فإذن من الضرورة أن لا يكون ممكن ما خاليا عن نقص و قصور و من الضرورة أن يكون النقص في عالم النفوس أكثر منه في عالم العقول- و في عالم الطبائع أكثر و أوفر مما في عالم النفوس و في عالم العناصر أكثر و أشد مما في عالم الأفلاك و هكذا إلى أن ينتهي إلى مادة مشتركة لا خيرية فيها إلا القوة و الاستعداد لقبول الأشياء و ستعلم أنها و إن بلغت إلى نهاية الخسة و الشرية في ذاتها لكنها وسيلة لحدوث الخيرات كلها و أن الوجود بسببها يعود و يرجع إلى الكمال بعد النقص- و إلى الشرف من الخسة و إلى الصعود من الهبوط و هذه المادة كما أنها قابلة للصورة قابلة للعدم و لا يمكن لها أن يقبل الصور كلها و لا يقبل أعدامها و مقابلاتها.

فإذن نقول إن الشرور التي هي من باب الأعدام و النقصانات و القصورات في الجبلة فليس ثبوتها لأن فاعلا يفعلها بل لأن الفاعل لم يفعلها و هي التي ليست خيرا بالقياس إلى شيء آخر و أما الشرور التي تلحق بأشياء هي في نفسها خيرات و بالقياس إلى بعض الأشياء شرور كوجود النار و الماء و السيف و السنان و السبع و الحية و غيرها من الذوات و كوجود الغضب و الشهوة و الجربزة و الشيطنة و غيرها من الصفات و كوجود الضرب و الطعن و القتل و غير ذلك

من الأفعال فإنما هي من سببين سبب من جهة المادة لأنها قابلة للصورة و العدم و كان ممتنعا أن لا تكون قابلة للمتقابلات و سبب من جهة الفاعل لأنه وجب أن يفعل فعله الخاص إذا لاقى في مادة لفعله.

و استحالة أن يكون للقوى الفعالة لذواتها أفعال متضادة أو يكون قد حصل وجودها و هي لا تفعل فعلها فمن المحال أن تفعل النار الأغراض المقصودة منها و لا تحرق بدن إنسان لاقته أو أن يفعل السيف الأغراض التي لأجلها و لا يقطع عضو إنسان إذا ضرب

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۷۴

به عليه فلم يكن بد من أن يكون الغرض النافع في وجود هذه الأشياء مستتبعا- لآفات يعرض منها في بعض المواد لكن الأمر الأكثري و الأمر الدائم هو الخير المقصود منها في الطبيعة.

أما الأكثري فإن المنتفعين بالنار مثلا أكثر من المستضرين و المستضرون أيضا- أوقاتهم التي هم فيها في كنف السلامة من الاحتراق أكثر من زمان استضرارهم.

و أما الدائم فلأن أنواعا كثيرة لا تستحفظ إلا بوجود مثل النار فلم يحسن في الإرادة الأزلية و العناية الأولى أن يترك المنافع الأكثرية و الخيرات الدائمة لعوارض شرية أقلية فالحكمة الإلهية اقتضت أن لا يترك الخيرات الفائضة الدائمة النوعية و المنافع الأكثرية لأجل شرور في أمور شخصية غير دائمة و لا أكثرية فالخير مقضي بالذات و الشر مقضي بالعرض.

و اعلم أن هذا القسم من الشر الوجودي لا يوجد في عالم القضاء الإلهي- الذي هو عبارة عن وجود جميع الأشياء بصورتها العقلية لخلوصها عن المادة و نقائصها- فالنار العقلية لا شر فيها و كذا الماء العقلي و الإنسان العقلي و الفرس العقلي و الأسد العقلي و كذا سائر الصور العقلية لسائر الأشياء لا شرية لها بل كلها خير محض- و إنما يوجد الشرور في عالم القدر الذي هو تفصيل الصور التي في عالم القضاء- و تجسيمها و تقديرها بقدرها المعلوم و هذا الوجود الجسماني لا يخلو من تضاد و تمانع- توجبان التفرقة و التكثير و يعدمان تلك الجمعية و الوحدة و منبع التفرقة هي المادة- كما أن منبع وجود المادة هو الإمكان فإن صدور المواد الجرمانية من العقول الفعالة- إنما هو من جهة إمكاناتها و نقصاناتها لا من جهة وجوب وجوداتها و كمالاتها فالهيولى منبع الشرور و النقص و لا بد من وجودها كما علمت.

قال المحقق الطوسي ره في شرح الإشارات عند قول الشيخ لأن كل شيء لازم له بوسط أو بغير وسط يتأدى إليه بعينه قدره الذي هو تفصيل قضائه الأول تأديا

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۷۵

واجبا إذ كان ما لا يجب لا يكون كما علمت بهذه العبارة أقول في تقريره لما كان جميع صور الموجودات الكلية و الجزئية التي لا نهاية لها حاصلة من حيث هي معقولة- في العالم العقلي بإبداع الأول الواجب إياها و كان إيجاد ما يتعلق منها بالمادة في المادة- على سبيل الإبداع ممتنعا إذ هي غير متهيئة لقبول صورتين معا فضلا عن تلك الكثرة- و كان الجود الإلهي مقتضيا لتكميل المادة بإبداع تلك الصور فيها و إخراج ما فيها بالقوة- من قبول تلك الصور إلى الفعل قدر بلطيف حكمته زمانا غير منقطع في الطرفين- يخرج فيه تلك الأمور من القوة إلى الفعل واحدا بعد واحد فتصير الصور

في جميع ذلك الزمان موجودة في موادها و المادة كاملة بها و إذا تقرر ذلك فاعلم أن القضاء عبارة عن وجود جميع الموجودات في العالم العقلي مجملة على سبيل الإبداع و القدر عبارة عن وجودها في موادها الخارجية بعد حصول شرائطها مفصلة واحدا بعد واحد كما جاء في التنزيل **وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ** و الجواهر العقلية و ما معها موجودة في القضاء و القدر مرة واحدة باعتبارين و الجسمانية و ما معها موجودة

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ٧٦

فيهما مرتين انتهى كلامهو قال الشيخ الإشراقي في التلويحات لو نظرت إلى آثار رحمة الله في هذا العالم لقضيت العجب من أن الرحمة الإلهية لما كان غير جائز أن تقف على حد يبقى وراءها الإمكان غير المتناهي وجدت هيولى ذات قوة القبول إلى غير النهاية كما للمبادي قوة الفعل إلى غير النهاية و كان لا بد أيضا لتجدد الفيض من تجدد أمر ما فوجدت أشخاص فلكية دائرة الأغراض علوية يتبعها استعداد غير متناه ينضم إلى فاعل غير متناه و قابل كذلك فينفتح باب نزول البركات و رشح الخير الدائم في الآزال و الآباد و يحصل

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ٧٧

الفيض على كل قابل بحسب استعداده إذ المبدأ الواهب لا تغير فيه و لو كان للنمل استعداد قبول نفس أشرف كما للإنسان لحصل فيها من فيض العقل الفياض.

ثم لما كان أشرف ما يتعلق بالهيولى النفس الناطقة و كان غير جائز خروج الممكن فيها دفعة دون الأبدان و لا مع الأبدان فبحسب الأدوار و الأكوار و الاستعدادات يحصل نفوس من فيض واهبها قرنا بعد قرن راجعة إلى ربها إذا كملت انتهى كلامه.

فقد تبين و اتضح أن اللانهاية في الأشخاص و النفوس التي اقتضتها العناية الأزلية- من ضرورتها وقوع الاستحالة و التضاد في عالم الكون و الفساد و لو لا التضاد لما صح الكون و الفساد و لو لا الكون و الفساد ما أمكن وجود أشخاص غير متناهية و لا التي هي أشرف منها و هي النفوس غير المتناهية الحيوانية و لا التي هي أشرف من القبيلتين و هي النفوس غير المتناهية النطقية و كون الصور و الكيفيات مضادا بعضها لبعض قد علمت أنها ليست بفعل فاعل بل من لوازم وجودها القدري المادي و من ضرورة التفاعل بينها حتى يقع الاعتدال و يحصل به كمال تضادها فصح أنه لو لا التضاد ما صح دوام الفيض من المبدإ الجواد و لوقف الجود و لتعطل العالم العنصري عن قبول الحياة التي بها يحصل نيل المقصود و بقي أكثر ما يمكن في مكمن الإمكان و كتم العدم البحت و لم يمكن للسلاك السفر إلى الله تعالى و الرجوع إليه و قد قال سبحانه **كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ**.

و من تأمل في أمر الموت الذي يعده الجمهور من أقوى أنحاء الشرور لعلم أن فيه خيرا كثيرا لا نسبة لشريته إليه يصل إلى الميت و إلى غيره أما الواصل إلى غيره فإنه لو ارتفع الموت لاشتد الأمر على الناس و ضاق المكان حتى لا يمكنهم التنفس فضلا عن الحركة و الأكل و الشرب فالمفروض أنه حي عند ذلك أسوأ حالا من الميت و أما الخير الواصل إليه فخلاصة عن هذا الوجود الدنيوي المعرض للآفات و المحن و مآله إلى الرحمة كما سنبينه إن شاء الله

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۷۸

الفصل (٦) في دفع أوهام وقعت للناس في مسألة الخير و الشر

منها أن القسم الثاني الذي الخير فيه غالب على الشر

لم لم يوجد عن الباري على وجه لا يعتريه شر أصلا حتى يكون الموجودات كلها خيرات محضة.

و أجيب بأنه لو كان كذلك لكان الشيء غير نفسه إذ كان هذا غير ممكن في هذا القسم من الوجود و هو ممكن في الوجود المطلق لإمكانه في النمط الأول من الوجود فإنه قد فاض عن المدبر الأول الفياض على الأشياء الصور العقلية المجردة- بالكلية و الصور النفسية المتعلقة نحوا ما من التعلق و الطبائع السماوية المتقدرة الذوات المرتفعة عن المفاسد و المضار و بقي هذا النمط الثاني الذي لا يمكن وجوده إلا بمخالطة القوى و الأعدام و الأضداد.

فإذا قلت لم لا توجد النار التي هي أحد أنواع هذا القسم على وجه لا يلزمها شر فكأنك قلت لم لم يجعل النار غير النار و من المستحيل أن يجعل النار غير النار و من المستحيل أن يكون النار نارا و تمس ثوب ناسك و لا مانع من الحريق و لا تحرقه.

و منها أنكم زعمتم أن الخير في العالم كثير و الشر قليل

و نحن إذا نظرنا في أنواع

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۷۹

الكائنات وجدنا الإنسان أشرف الجميع و إذا نظرنا إلى أكثر أفراده وجدنا الغالب عليهم الشرور لوجود أفعال قبيحة و أعمال سيئة و أخلاق و ملكات ردية و اعتقادات باطلة- و بالجملة الغالب عليهم طاعة الشهوة و الغضب بحسب القوة العملية و الجهل المركب بحسب القوة النظرية و هذان الأمران مضران في المعاد مولمان للنفس موجبان للشقاوة في العقبى مانعان عن السعادة الأخروية فيكون الشر غالبا على هذا النوع- الذي هو الثمرة القصوى و الغاية العظمى لوجود هذه الأكوان و بناء عالم العناصر و الأركان- و أما الاستمتاع بالشهوة و اللهو و اللعب الذي هو السعادة الدنيوية التي هي في التحقيق شقاوة فهو مع ذلك حقير جدا بالنسبة إلى ما يحرمونه من السعادة الحقيقية و يكتسبونه من نار الجحيم و العذاب الأليم.

و أجيب عن هذا بأن أحوال الناس في العقبى كأحوالهم في الدنيا و أحوالهم في النشأة الأولى على ثلاثة أقسام.

الأول هم البالغون في الحسن و الصحة.

و الثاني المتوسطون فيهما و هم الأكثر على تفاوتهم في درجات التوسط.

و القسم الثالث البالغون في النقصان الممنوون بالقبح و السقم و العاهات- و هؤلاء أقل من المتوسطين و إذا نسبتهم إلى مجموع القسمين الأولين كانوا في غاية ما يكون من القلة و الحقارة بالنسبة إليهم فكذلك أحوال النفوس في الآخرة على ثلاثة أقسام.

الأول الكاملون في القوتين البالغون في تحصيل الكمالات الحكمية النظرية- و اقتناء الملكات الكريمة العملية.

الثاني المتوسطون في تحصيل ذلك و هم الأكثر و الأغلب على تفاوت مراتبهم في ذلك من القرب إلى الطرف الأشرف و البعد عنه إلى الأرذل.

و الثالث هم البالغون في الجهالات البسيطة و المركبة الممعنون في رداءة أخلاق- فهؤلاء أقل عددا من القسم الثاني بكثير و إذا نسبتهم إلى مجموع القسمين الأولين كانوا

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۸۰

في غاية القلة و الحقارة فلأهل الرحمة و السلامة غلبة وافرة في كلتا النشأتين.

قال الشيخ الرئيس في الإشارات لا يقعن عندك أن السعادة في الآخرة نوع واحد و لا يقعن عندك بل إنما يهلك الهلاك السرمد ضرب من الجهل و الرذيلة و إنما يعرض للعذاب ضرب من الرذيلة و حد منه و ذلك في أقل أشخاص الناس و لا تضع إلى من يجعل النجاة وقفا على عدد و مصروفة عن أهل الجهل و الخطايا صرفا إلى الأبد و استوسع رحمة الله انتهى كلامه أقول هذا الكلام و الذي قبله و إن كان منافيا لظواهر بعض النصوص و الروايات إلا أن الإمعان في الأصول الإيمانية و القواعد العقلية يعطي الجزم بأن أكثر الناس في الآخرة وجب أن يكون من أهل السلامة و النجاة و لأهل المعرفة و الكشف نمط آخر من التحقيق في هذا المقام سيجيء ذكره من ذي قبل إن شاء الله.

على أن البرهان اللمي قائم على أن خلق كل نوع طبيعي من إفاضة الله- و ترتيبه النظام يجب أن يكون على نهج يبلغ جميع آحاد ذلك النوع أو أكثرها إلى كمالها الخاص بها من غير مانع و لا مزاحم إلا على سبيل الندرة الاتفاقية من غير دوام- لكن يجب أن يعلم أن الذي كلامنا فيه هو الكمال الأول و الثاني لا الذي بعدهما

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۸۱

من الكمالات و أن يعلم أن أفراد الإنسان بما هم إناث ليس مقتضى كمالهم الأول و لا الثاني أن يكونوا حكماء عرفاء بالله و ملكوته و آياته و اليوم الآخر فإن هذا ليس في جبلة أكثر الناس بل في طباع طائفة مخصوصة هم في الحقيقة نوع آخر من الناس مخالف لما سواهم فإن الإنسان قد أشرنا إلى أنه من حيث النشأة الأولى نوع واحد و من حيث نشأة الفطرة الثانية من طينة سره و باطنه أنواع كثيرة و لكل نوع منهم كمال يخصه و سعادة لأجله و شقاوة تقابلها كما سيجيء و شرحه في بحث المعاد.

قال الشيخ في الشفا اعلم أن الشر الذي هو بمعنى العدم إما أنه يكون شرا بحسب أمر واجب أو نافع قريب من الواجب و إما أن لا يكون شرا بحسب ذلك بل شرا بحسب الأمر الذي هو ممكن في الأول و لو وجد لكان على سبيل ما هو فضل من الكمالات التي بعد الكمالات الثانية و لا مقتضي له من طباع الممكن فيه و هذا القسم غير الذي نحن فيه و هو الذي استثنيناه هذه و ليس هو شرا بحسب النوع بل بحسب اعتبار زائد على واجب النوع كالجهل بالفلسفة أو بالهندسة أو غير ذلك فإن ذلك ليس شرا من جهة ما نحن ناس بل هو شر بحسب كمال لا صلاح في أن يعم و ستعرف أنه إنما يكون شرا إذا اقتضاه شخص إنسان أو شخص نفسه و إنما يقتضيه الشخص لا لأنه إنسان أو نفس بل لأنه قد ثبت عنده حسن ذلك و اشتاق إليه و استعد لذلك الاستعدادات و أما قبل ذلك فليس مما ينبعث إليه الشيء في بقاء طبيعة النوع انبعاثه إلى الكمالات الثانية التي تتلو الكمال الأول فإذا لم يكن كان عدما في أمر ما مقتضي له كان في الطباع انتهى عبارته.

و منها أنه إذا كان ما يستر عن الإنسان من المعاصي أو يتصف به من الرذائل واقعا- بقضاء الله

داخلا في قدره كما اعترفتم به فيجب وقوع تلك المعاصي و الآثام منه بالضرورة- شاع الإنسان أو أبى و إذا كان وقوعها واجبا اضطراريا فلا يليق بالواجب جل الذي هو منبع الجود و الإحسان عن أن يعاقب بذلك أهل العصيان و يعذب الإنسان الضعيف العاجز على فعل يجب صدوره عنه على سبيل الاضطرار فإن ذلك ينسب إلى خلاف

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۸۲

مقتضى العدل و الإحسان بل إلى الجور و العدوان و ذلك محال على الواجب تعالى- كيف و **إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسٰانِ وَ إِيتٰاءِ ذِي الْقُرْبىٰ وَ يَنْهىٰ عَنِ الْفَحْشٰاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ**.

و الجواب على مقتضى قواعد الحكماء أن الله غني عن العالمين و بريء عن طاعة المحسنين و معصية المسيئين و إنما الوارد على النفس بعد مفارقة الدنيا إنما هو على تقصيرها و تلطيخ جوهرها بالكدورات المؤلمة و الظلمات الموذية الموحشة لا أن عقابها لمنتقم خارجي يعاقبها و يؤذيها و ينتقم منها في أفعالها كما يتوهم النفوس العامة- مما يرون من العقاب الحاصل في هذا العالم بالأسباب الخارجية و ليست الأمور الأخروية كذلك فإن العقوبات هنالك من لوازم أعمال و أفعال قبيحة و نتائج هيئات ردية و ملكات سيئة فهي حمالة لحطب نيرانها و معها وقود جحيمها فإذا فارقت النفس

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۸۳

البدنة متلطخة بالملكات المذمومة و الهيئات المرذولة و زال الحجاب البدني و فيها مادة الشعلات الجحيمية و كبريت الحرقات الباطنية و النيرانات الكامنة اليوم فشاهدتها بعين اليقين و قد أحاطت بها سرادقها و أحدقت بقلبها عقاربها و حياتها و عاينت مرارة شهوات الدنيا و تأذت بموذيات أخلاقها و عاداتها و ردت إليها مساوي أفعالها و نتائج أعمالها كما

قال الصادق ع: إنما هي أعمالكم ترد إليكم

و قال

: رب شهوة ساعة أورث حزنا طويلا

و يكون حال الإنسان المتألم بهذا العقاب بسبب الهيئات الردية كحال الإنسان المنهوم المقصر في الحمية إذا ردت إليه شدة نهمته و قوة شهوته و ضعف معدته أوجاعا و أمراضا مولمة فيكون هذا التألم من لوازم ما ساق القدر إليه من الشهوة المؤدية إلى هذا التألم لا لأن الطبيب الذي أمره بالاحتماء ينتقم منه.

و منها و هو من ركيك الاعتراضات على الحكماء

أنهم لما لم يقولوا بالحسن و القبح في الأفعال كما ذهب إليه المعتزلة و نفوا في أفعال الواجب تعالى الغرض

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۸۴

بل قالوا بالإيجاب فإذن خوضهم في هذه المسألة من قبيل الفضول فإن السؤال بلم غير وارد مع القول بالإيجاب في الأفعال أو مع القول بنفي التحسين و التقبيح فيها

و الجواب أما أولا

فإنهم ما نفوا الغاية و الغرض عن شيء من أفعاله مطلقا- بل إنما نفوا في فعله المطلق و في فعله الأول غرضا زائدا على ذاته تعالى و أما ثواني الأفعال و الأفعال المخصوصة و المقيدة فأثبتوا لكل منها غاية مخصوصة كيف و كتبهم مشحونة

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۸۵

بالبحث عن غايات الموجودات و منافعها كما يعلم من مباحث الفلكيات و مباحث الأمزجة و المركبات و علم التشريح و علم الأدوية و غيرها.

و أما ثانيا

فلما علمت غير مرة أن فعله تعالى بعين الإرادة و الرضا المنبعثين عن ذاته بذاته و الإيجاب الحاصل منهما غير الجبر الذي يكون في المبادي الطبيعية- العديمة الشعور و المبادي التسخيرية.

و أما ثالثا

فهب أن الأمر كما زعمه فللحكيم أن يبحث عن كيفية ترتب الأفعال- من مباديها الذاتية على وجه المناسبة و عدم المنافاة و أن يبحث عن كيفية صدور الشر عما هو خير بالذات فينبه على أن الصادر منه أولا و بالذات هو الخير و أن الشر غير صادر منه بالذات بل صدور الخيرات الكلية أدى إلى شرور جزئية قليلة العدد بالإضافة إلى تلك الخيرات العظيمة فلم يكن الصادر منه تعالى شرا أصلا كيف و بما ذكروه يدفع شبهة عظيمة من المجوس القائلين بشرك عظيم من إثبات اثنينية القديم سموهما يزدان فاعل الخير و أهرمن فاعل الشر و كفى شرفا و فضلا لهم في بحث يدفع به ما هي بذر الشبهات كشبهة إبليس اللعين حين اعترض على الملائكة الذين هم من أفاضل عالم السماوات كما أن الحكماء من أفاضل طبقات الجنات بأن الله لم خلقني و قد علم أني أضل عباده عن الطريق و أغويهم عن الصراط المستقيم فأجيب بالجواب القاطع لسؤاله على وجه الإلزام للمجادل الذي لا يستعد لإدراك النهج البرهاني و قيل

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۸۶

لا يسأل عما يفعل و هو أحد الطرق الثلاثة المذكورة في كتاب الله أحدها الحكمة البرهانية للكاملين المقربين.

و الثاني الموعظة الخطابية لأهل السلامة و أصحاب اليمين و الثالث المجادلة لدفع شبهة الضالين من أصحاب الشمال المكذبين بيوم الدين.

و منها أنه إذا جاز عند الفلاسفة

أن يصدر عن الواجب تعالى جوهر شريف

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۸۷

لأجل أمر خسيس حيث فعل عالم العقل أولا ثم فعل بتوسطه عالم النفس و خلق من النفس الطبيعة الجسمية و هكذا إلى أن انتهى فعله في الغاية إلى الهيولى التي هي أخس الأشياء- حسب ما هو مذهبهم في الترتيب فليجز عندهم أن يصدر عن الخير ما هو شر بالذات- و الجواب أن هذا غلط نشأ إما من الاشتباه بين الغاية الحقيقية و الأمر الضروري- و

إما من توهم انعكاس الموجبة الكلية كنفسها و ليس كذلك فليس يلزم من كون كل غاية متأخر بالذات عن الشيء ذي الغاية أن يكون كل متأخر بالذات عن الشيء غاية له حتى يلزم أن يكون الهيولى المشتركة أشرف من السماويات و السماويات أشرف من العقول الفعالة و الغاية بمعنى الذي لأجله الفعل ليست الغاية التي هي نهاية الفعل فإنه يصح أن يقال انتهت سلسلة الأمور الدائمة إلى الهيولى المشتركة أو نحوها و يصح أن يقال للأفعال انتهاء و لا يصح بوجه آخر فإن الجود الإلهي لا غاية له و متى قال الحكماء- إنه تعالى أبدع الأشياء على الترتيب من العقل منتهية إلى الهيولى شبه ما وقع في الكلام الإلهي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض فليس المراد أن الهيولى و ما يجري مجراها- غاية الفيض و الجود و لو كان الأمر كما توهموه لم يرجع الوجود منعطفا من هذا المنزل الأدنى و الأرض السفلى إلى غاية الشرف الأقصى على عكس الترتيب الأول كما قال تعالى **ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** و قوله **كَمٰا بَدَأْنٰا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنٰا إِنّٰا كُنّٰا فٰاعِلِينَ**.

و أكثر من يطول حديث الخير و الشر و يستشكل الأمر من يظن أن الأمور العظيمة الإلهية من الأفلاك و ما فيها إنما خلقت لأجل الإنسان و أن الأفعال الإلهية منشؤها إرادة- قصدت بها أشياء و أغراض على نحو إرادتنا و أغراضنا في الأفعال الصادرة عنا بالاختيار- و لو تأمل هذا الجاهل المحجوب عن شهود العارفين أدنى تأمل لدرى أن الأمر لو كان كما توهمه و لم يكن هناك أحكام مضبوطة و علوم حقة الإلهية و ضوابط ضرورية أزلا و أبدا ما كان أحوال أولياء الله في الدنيا على هذا الوجه من المحن الشديدة و تسلط الأعادي و الظلمة و أهل الجور عليهم و ما كان أحوال أعداء الله من الفراعنة و الدجاجلة- على ما وقع من تمكين أديانهم الفاسدة و معتقداتهم الباطلة و آرائهم الخبيثة و سبيهم و

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‌۷، ص ۸۸

نهبهم و طغيانهم و عداوتهم لأن الإرادة إذا كانت متجددة جزافية فما المانع من وقوع الأمر على نحو ما يلائم شهوة كل أحد فإن كل ما يجعلونه مانعا عن وقوع الفعل على ما يوافق مطلوبهم و مآربهم سيما إذا أعدوا نفسهم من أحياء الله و الصالحين من عباده فيقال لم ما جمع من له هذه الإرادة الجزافية بين دفع المانع و حصول المطلوب- و لم لم يجمع بين السلامة عن الآفة و حصول المثوبة بل يقال لم لم يرفع الكفر و الجور من العالم- حتى يملأ الأرض أزلا و أبدا قسطا و عدلا بل يجعل الأرض غير الأرض كما في الآخرة- و نقية فورانية صافية من أدناس الكفر و الفجور فإن قالوا التقدير الأزلي منعه عن ذلك- فيقال كون التقدير الأزلي عنه واجب أو ممكن فإن كان ممكن الطرفين و اختار أحدهما- فلا بد من مرجح زائد كما هو رأيكم و ترجيح الخير العام كان أولى إذ لا مصلحة للكافر في كفره و للشقي في شقائه و إن كان ذلك التقدير واجبا بحيث ما كان يصح الوجود إلا كما هو عليه فيثبت اللزوم فإن قالوا إنه فعل ما شاء و لا يسأل عن لم فيقال عدم السؤال بالمعنى الذي تصورتموه لأنه يحرق اللسان أو لأن النظر هاهنا حرام أو لأن الحجة لا تنتهي إليه و الأقسام كلها باطلة و إن كان الأمر كما زعمتم بأنه لا يسأل في المعقولات النظرية- فكل ما يراد الحجة عليه حتى كون العالم مفتقرا في تخصيص جهاته إلى المرجح و في صفات الباري نفيا و إثباتا و غيرها فللخصم أن يقول لا يسأل عن لم.

و من الإشكالات القوية في هذا المقام

أن الله تعالى لما ثبت أنه خير محض- جواد كريم غني عن طاعة المطيعين و معصية المجرمين فما السبب في تعذيب

الكفار– يوم الآخرة في النار أبد الآبدين كما قال تعالى **أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ*** و غير ذلك من النصوص الدالة على خلودهم في العذاب و قد أشرنا إلى أن البرهان ناهض في أن مقتضى الطبيعة لكل نوع غير ممنوع عن أفراده على الدوام و أن كل واحدة من طبائع الأشياء– ما دام كونها على تلك الطبيعة يجب أن تكون غير معوقة عن كمالها الخاص الثانوي دائما

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۸۹

و لا ممنوعة عن وصولها إلى ما خلق لأجله منعا مستمرا بل لا بد و أن تعود إليه عند زوال القاسر كما قال أشرف الخلق ع و الكل ميسر لما خلق له– إذ القسر كما علمت لا يكون دائميا و لا أكثريا فكل طبيعة لا تتعطل عن كمالها أبدا– فنقول لا يخلو الكفر أو ما يجري مجراه إما أن يخرج الإنسان عن الفطرة الأولى– و يدخله في فطرة أخرى من نوع آخر أو لا و على أي التقديرين يلزم أن لا يكون العذاب أبديا.

أما على تقدير الخروج فظاهر لأنه صار نوعا آخر بسبب تكرر أفاعيله الشهوية أو الغضبية فصارت الملكة النفسانية صورة ذاته و جوهر طبعه فيكون تلك الأفعال عند ذلك من كمالات ذاته كالبهيمة كمالها في قضاء الشهوة و السبع كماله في الغلبة و التهجم فلم يكن الشيء معذبا بما يلائم نفسه و طبعه بل مبتهجا به كما نرى من أحوال أكثر الخلق.

و أما على تقدير البقاء على الفطرة التي كانوا عليها فإنه وقع الاحتجاب عنها– بعوارض غير لازمة و لا دائمة فعند زوال العوارض يقع الرجوع إلى الفطرة الأصلية– فينالهم الرحمة الواسعة و الجود الأعم من غير دافع و لا حجاب فإذن لا وجه للخلود في العذاب.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۹۰

و الجواب عنه ما سينكشف لك في موعده إن شاء الله تعالى عند شرح أحوال النفوس بحسب أقسامها في الآخرة و سنذكر في بعض الفصول الآتية كلاما من ذلك النمط يستشعر منه عموم فضله تعالى و شمول رحمته لكافة خلقه في الآخرة و الأولى

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۹۱

الفصل (۷) في أن وقوع ما يعده الجمهور شرورا في هذا العالم قد تعلقت به الإرادة الأزلية صلاحا لحال الكائنات

إذ لا شبهة لأحد من أهل التحقيق حسبما يجيء شرحه في أن نظام العالم على هذا الوجه أشرف النظامات الممكنة و أكملها و أفضلها بحيث لا يتصور فوقه نظام آخر– و هذا ثابت محقق عند الكل و الحكيم و المتكلم متفقان فيه سواء في ذلك القائل بالقضاء الأزلي أو القائل بالاختيار التجددي و القصد الزائد فإن لمن يقول بالاختيار أن يقول لا يمكن أن يوجد العالم أحسن مما هو عليه لأنه لو أمكن ذلك و لم يعلم الصانع المختار أنه يمكن إيجاد ما هو أحسن منه فيتناهى علمه المحيط بالكليات و الجزئيات و إن علم و لم يفعل مع القدرة عليه فهو يناقض جوده الشامل لجميع الموجودات.

و هذا مما ذكره الغزالي في بعض كتبه و نقل عنه الشيخ الكامل محي الدين العربي في الفتوحات المكية و استحسنه و

هو كلام برهاني فإن الباري جل شأنه غير متناهي القوة تام الجود و الفيض فكل ما لا يكون له مادة و لا يحتاج إلى استعداد خاص و لا أيضا له مضاد ممانع فهو بمجرد إمكانه الذاتي فائض منه تعالى على وجه الإبداع و مجموع النظام له ماهية واحدة كلية و صورة نوعية وحدانية بلا مادة و كل ما لا مادة له نوعه منحصر في شخصه فلا محالة ليس ذاته مرهونة- باستعداد محدود أو زمان موقوت فلا محالة مبدع فلم يمكن أفضل من هذا النظام نوعا و لا شخصا.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۹۲

فإذا كان الأمر على هذا السبيل فأصول الممكنات في هذا النظام أفلاك دائرة و كواكب سائرة لأشواق عالية و عناصر مرتبة على الترتيب و هي متأتية لأن يخلق منها ضروب أخرى من المخلوقات و هذا لا يمكن إلا بالاستحالات و الانقلابات المنبعثة في مواد الكائنات من الحركات الوضعية للسماويات و لا يمكن أن يكون الكائن موقوفا مبنيا على الحركات ثم كان مقتضى جميع الحركات فيه واحدا بل يجب أن يكون مقتضى كل حركة غير مقتضى الأخرى فإذا كان مقتضى الأولى موافقا لطبعه كان مقتضى الثانية مخالفا لهو أيضا لا يمكن أن يكون مقتضى الحركة الواحدة إذا كان موافقا لطبيعة واحدة- موافقا لطبائع سائر الأشياء نعم يجب أن يراعى حال الأفضل فالأفضل فاستيلاء الحرارة مثلا بواسطة إضاءة الشمس على موضع من الأرض لتحيلها بالتلطيف و التسخير إلى طبيعة أخرى يتكون منها نوع أشرف من الأرض ليس موافقا لطبيعة الأرض بما هي أرض لكن الرحمة الإلهية مقتضية له على أن الأرض لو كانت ذات شعور لعلم أن خروجها عن هذا الكون و إن كان مكروها لها بحسب ما هي عليه الآن لكن تحت هذا الكره و القسر لطف عظيم حيث ينقلب من هذه الصور إلى صورة أشرف و أقرب إلى قبول الحياة و الرحمة الإلهية.

و قد أشير إلى هذا المعنى في الكلام الإلهي **ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ** فالإتيان إليه سبحانه كما في الموت و نحوه و إن كان مكروها أولا لتعلق الشيء بنشأته الجزئية لكنه إذا انقلب عنها إلى نشأة أخرى يصير المهروب عنه مطلوبا و المكروه مرغوبا فيه فإذن الموت و الفساد و نحوهما من الأمور الضرورية اللازمة للنظام و لهذا وجب أن يكون مثل هذه الأمور المنسوبة إلى الشر موجودة في هذا النظام و ما كان يليق في الحكمة أن لا يخلق هذا الخلق الذي يلزمه شر.

على أن التعمق في أسرار الكائنات يعطي الحكم بأن كله خير و نظام و هذا الموت الذي يتوحش منه الناس إذا حقق أمره يعلم أنه ليس معناه و غايته إلا تحويل النفس من نشأة سافلة إلى نشأة عالية و هو يرجع إلى أحد الاستكمالات الطبيعية

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۹۳

و كما أن كل استكمال يقع في الطبيعة يلزمه حصول أمر و زوال أمر دونه كما أن استكمال النطفة بالصورة الحيوانية يلزمه بطلان الصورة النطفية فكذلك استكمال الصور الحيوانية الحسية- بصورة أخروية مثالية أو عقلية يلزمه انخلاع هذه الصورة و انتزاع الروح عن هذا الهيكل الطبيعي و الحرارة الغريزية التي هي عند المحققين جوهر سماوي بيد ملك من ملائكة الله النازعة للأرواح الناقلة إياها من نشأة إلى نشأة ليست شأنها بالذات نفس الإذابة و التحليل و إفناء الرطوبات إلى أن يقع الموت و إلا لم يكن أفاضها سبحانه و لم يسلطها على البدن و لا يرضى سبحانه بموت أحد سيما الإنسان إلا لأجل حياة أخرى مستأنفة في عالم المعاد و ستعلم أن نفوس الحيوان بل النبات أيضا منتقلة إلى ذلك العالم بل فعل تلك

الحرارة بالذات- تعديل المزاج و تحويل البدن و تحريك مواده بالتسخين إلى مزاج حار يناسب الخفة و اللطافة لأن يبدل مركب النفس و يسوى له مركبا ذلولا برزخيا مطيعا للراكب غير جموح لعدم تركبه من الأضداد فيميل تارة إلى جانب و أخرى إلى جانب آخر فهذا التبديل في المراكب يهيىء النفس للخروج و الهجرة إلى الله من هذه الدار فالموت طبيعي بهذا المعنى لا كما قالته الأطباء و غيرهم من الطبيعيين إن ذلك لنفاد الرطوبة و وقوف القوة كما مر ذكره.

فإذن جميع أقسام الموت و الفساد و انفساخ الصور و نحو ذلك مما يقع بالطبع لا بالقسر أو الاتفاق سببه ما ذكرناه فإذن لا شر و لا ضير في أن يصير صورة أدون فداء للصورة الأشرف و لا أن يكون نوع أنزل و أنقص غذاء للنوع الأكمل الأعلى كما يصير العناصر غذاء المركبات و هي غذاء للنبات و الحيوان و الجميع أغذية للإنسان و بذلك يتم له الشرف و الفضل و له الاستعداد و التهيؤ للركوب و السفر إلى المحل الأنور و لنرجع إلى نمط آخر من الكلام في شرح أنواع من الخيرات و الشرور النسبية المؤدية إلى الخير الأعظم- على محاذاة ما في بعض كتب السابقين

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۹۴

الفصل (۸) في بيان كمية أنواع الخيرات و الشرور الإضافية

اعلمأن الخير و الشر يقالان على أربعة أوجه-

فمنها ما ينسب إلى السماويات

من سعود الكواكب و نحوسها.

و منها ما ينسب إلى الأمور الطبيعية

من الكون و الفساد و ما يلحق الأمزجة الحيوانية من الآلام و الأوجاع-

و منها ما ينسب إلى ما في طباع الأحياء العنصرية

من التالف و التنافر و التودد و التباغض و المحبة و الخصومة على ما في جبلتها من التنازع و التغالب-

و منها ما ينسب إلى النفوس التي تحت الأوامر و النواهي

في أحكام الناموس الإلهي و ما يلحقها من السعادة و الشقاوة الآجلتين و العاجلتين جميعا.

فنقول الخيرات التي تنسب إلى سعود الفلك

فهي بعناية من الحق الأول و إرادة منه بلا شك و أما الشرور التي تنسب إلى نحس الفلك فهي عارضة لا بالقصد الأول مثال ذلك إشراق الشمس و طلوعها على بعض البقاع تارة و تسخينها لها مدة و تغيبها عنها تارة أخرى كيما يبرد تلك البقاع مدة ما لنشو الحيوان و النبات و هي بعناية الحق الأول- و واجب حكمته لما فيه من الصلاح الكلي و النفع العام كما ذكره الله تعالى **قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً** الآية.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۹۵

و أما الذي يعرض لبعض الحيوانات أو لبعض النبات

من الحر المفرط أو البرد المفرط المهلك لها في بعض البقاع و في بعض الأوقات على سبيل الندرة و الشذوذ فليس ذلك بالقصد الأول.

و أما الخيرات التي تنسب إلى الأمور الطبيعية

من تكون الحيوان و النبات و المعادن و الأسباب المعينة لها على النشوء المبلغ لها إلى أتم حالاتها و أكمل غاياتها فهي كلها برضاء الله و إرادة من الباري القيوم و عناية منه و أما الشرور التي هي الفساد و البلاء التي يلحقها بعد الكون فهي عارضة لا بالقصد الأول بل حصولها بالعرض و الانجرار و التبعية- و ذلك لأن الكائنات لما لم يمكن أن يبقى أشخاصها في الهيولى دائما في هذا العالم تلطفت الحكمة الإلهية و العناية الربانية إلى بقائها بصورها و مبدإ نوعيتها و رب طلسمها الحافظ لديمومة طبيعتها بتعاقب الأفراد و توارد الأمثال على الاتصال و إن كانت الأشخاص في الذوبان و السيلان دائما و إنما كان ذلك بواجب في الحكمة و العناية لأن في القوة و الغيب فضائل جمة و خيرات كثيرة بلا نهاية.

و لا يمكن خروجها من القوة و الخفاء إلى الفعل و الظهور دفعة واحدة في وقت واحد لأن الهيولى الجسمية لا تتسع لقبولها فضائل نوع واحد من الأنواع الطبيعية المندمجة في عقله المدبر له و ملكوته الفياض على عينه الثابتة و أفراده إلا شيئا بعد شيء على سبيل التدريج و ممر الأوقات و الدهور دائما فكيف فضائل جميع الأنوار الطبيعية و حالاتها و كيفياتها و لوازمها و آثارها المفصلة المتفننة مثلا لو خلق الله تعالى بني آدم كلهم من مضى منهم و من هو موجود الآن و يجيء من بعد إلى يوم القيامة- في وقت واحد لم تكن تسعهم الأرض برحبها فكيف حيوانهم و نبات غذائهم و أمتعتهم

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۹۶

و ما يحتاجون إليه في أيام حياتهم فمن أجل هذا خلقهم الله قرنا بعد قرن و أمة بعد أمة- لأن الأرض لا تسعهم و الهيولى لا تحملهم دفعة واحدة فقد تبين بما ذكرنا أن النقص من جهة الهيولى و قابليتها لا من الصانع فإن القصور في الفعل كما يكون من الفاعل لضعف قوته أو لقلة معرفته فقد يكون أيضا من عدم الأدوات و فتور الآلات التي لا بد وجودها للصانع في أحكام صنعه و إتقان فعله أو من عدم المكان أو الزمان و الحركات و ما شاكلهما و قد يكون من قبل الهيولى مثل عسر قبول الحديد للفتل و تصييره حبلا طويلا كما يفعل الحبال من القنب و الصوف و غيرهما فليس العجز من الحداد بل لقصور الحديد و عسر قبوله الفتل و مثل الهواء لا يقبل كتابة الكاتب فيه لسيلان عنصره و مثل النجار لا يمكن أن يعمل سلما يبلغ السماء لعدم الخشب لا لعجز فيه و مثل الرجل الحكيم لا يمكن أن يعلم الطفل لعجز في الطفل لا في الحكيم- و كذا عدم اهتداء بعض أشقياء الأمم بدعوة نبيهم إياهم و إنذاره لهم كما في قوله تعالى **إِنَّكَ لاٰ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ** ليس لقصور الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين و لا لعجزهم عن الهداية و الإنذار بل لعسر قبول الأنفس الخبيثة ما يقربها إلى الله و ملكوته الأعلى- فعلى هذا يؤخذ القياس في العجز من الهيولى و عسر قبولها للصور لا لعجز في الصانع الحكيم و المدبر العليم.

و السبب الآخر في ذلك أن هذا الكائنات لما كانت يبتدي كونها من أنقص الوجود- و أضعف القوة مترقيا شيئا فشيئا إلى أتم الحالات و أكمل الغايات بأسباب معينة لها على النشو و النمو و مبلغه بها إلى أكمل غاياتها بعناية من الباري جل شأنه سميت تلك الأسباب خيرات و كل سبب عارض يعوقها عن ذلك سمي شرا و هي عارضة لا بالقصد الأول فإنه و إن كان بالقياس إلى هذا الشيء الذي عاقه عن الوصول إلى كماله و غايته شرا لكنه بالقياس إلى شيء آخر يكون من الأسباب المعينة له على البلوغ إلى كماله و تمامه خيرا و لأجل هذا خلق الأول و بالذات لا لأجل ذاك فيكون خيريته

بالذات و شريته بالعرض.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۹۷

و لما تحققت ما ذكرناه من أن عدم الفعل قد يكون لعجز الهيولى أو عدم المكان أو الزمان أو الحركات أو ما شاكلها علمت فساد ظن كثير من العوام و أهل الكلام الذين لا يعرفون كيفية العجز من الهيولى و لا يتصورونه فينسبون العجز كله إلى الفاعل الحكيم القادر العليم و ذلك لأنهم ربما يتوهمون ذلك على الله تعالى فيقولون إنه لا يقدر على كثير من الأشياء و يعجز عنها مثل قولهم إنه لا يقدر أن يخرج إبليس عن مملكته و لا يتفطنون مع قطع النظر عن المصالح التي روعيت في خلقه أن العجز في عدم الإخراج إنما هو من عدم المملكة التي غير مملكة الله تعالى حتى يتصور إخراجه إليها و ليس من عدم القدرة من الخالق و يقولون إنه لا يقدر أن يدخل السماوات في جوف إبرة و لا يدرون أن العجز من الإبرة و خرمها و يقولون إن الله لا يقدر أن يجمع بين النقيضين و لا يدرون أن العجز منهما فإذا سئلوا عن معنى قوله تعالى **وَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** قالوا هذه الآية مخصصة خلاف ما قال الله تعالى لأنه ذكر على العموم و صرح بإيراد لفظ الكل و لم يعلموا أن هذه الممتنعات التي يتصورونها ليست بأشياء خارجة عن أوهامهم و تصوراتهم- بل الذهن يتصور بعض المفهومات و يجعله عنوانا للمستحيلات و يحكم عليها بأحكام غير بتية بل على سبيل الفرض و التقدير كما في القضايا الحقيقية غير البتية على ما هو مفصل- في بعض مواضع هذا الكتاب.

و أما الخيرات التي توجد في أنفس الحيوانات العنصرية

من المحبة و اللذة و الألفة و الأكل و الشرب و الوقاع فلا شك أنها مستودعة في جبلتها مغروسة في فطرتها بعناية الله تعالى و رضاه بالذات و بالقصد الأول و أما ما يلحقها من التنافر و الوحشة و المبغضة و الجوع و الألم و العطش و الجرح و الأمراض و الأوجاع و الموت و أشباهها فهي واردة عليها على سبيل الضرورة و الانجرار و التبعية واقعة بقدر الله تعالى بالعرض و بالقصد الثاني

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۹۸

فإنه لما جعل الباري بمقتضى مصلحته و حكمته في جبلة الحيوانات للجوع و العطش و اللذة من الملائم و الأذى من المنافر صارت هي أسبابا لانتهائها و دواعي عطب أبدانها- و هلاك هياكلها و شقاوة نفوسها على الضرورة و الاستتباع.

أما قصد الباري الحكيم في إيجاده و صنعه ذلك فهو لأجل بقائها و صلاحها- فإنه تعالى جعل لها الجوع و العطش لكيما يدعوها إلى الأكل و الشرب ليخلف على أبدانها من الكيموس بدلا مما يتحلل منها ساعة فساعة إذا كانت أجسامها دائما في الذوبان و السيلان و أما الشهوات فلكيما يدعو بها إلى المأكولات المختلفة الموافقة لأمزجة أبدانها و ما يحتاج إليه طباعها و أما اللذة فكيما تأكل بقدر الحاجة و لا يزيد و لا ينقص و أما الآلام و الأوجاع عند الآفات العارضة لأجسادها لكيما تحرس نفوسها على حفظ أجسادها من الآفات لها إلى أجل معلوم و أما كون بعض الحيوانات آكلة لجيف بعض فلئلا يضيع شيء مما خلق بغير نفع.

و اعلم يا حبيبي أنه قد تحيرت العقول في كون بعض الحيوانات آكلة لبعض- و فيما جعل الله تعالى ذلك في طباعها و هيأ لها الآلات و الأدوات التي يتمكن بها على ذلك كالأنياب و المخاليب و الأظافير الحداد التي بها يقدر على القبض و

الضبط و الخرق و النهش و الأكل و الشهوة و اللذة و الجوع و ما شاكل ذلك مع ما يلحق المأكولات منها- من الآلام و الأوجاع و الفزع عند الذبح و القتل فلما تفكروا في ذلك و لم تسنح لهم العلة- و لا الغاية و الحكمة فاختلف عند ذلك بهم الآراء و تفننت بهم المذاهب حتى قال بعضهم إن تسلط الحيوانات بعضها على بعض و أكل بعضها لبعض ليس من فعل حكيم بل فعل شرير قليل الرحمة ظلام للعبيد فلهذا قالوا إن للعالم فاعلين خيرا و شريرا.

و منهم من نسب ذلك إلى النجوم و منهم من قال إن هذا عقوبة لها لما سلف منها من الذنوب و المعاصي في الأدوار السابقة و هؤلاء هم التناسخية و منهم من قال بالعرض- و منهم من قال إن هذا أصلح و منهم من أقر على نفسه بالعجز قال لا أدري ما العلة في أكل الحيوانات بعضها بعضا غير أنه قال إن الباري تعالى لا يفعل إلا الحكمة و كل هذه الأقاويل قالوها في طلبهم العلة و وجه الحكمة.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۹۹

و إنما لم يقفوا عليها لأن نظرهم كان جزئيا و بحثهم عن علل الأشياء مخصوصا- و يمتنع أن يعلم أسباب الأشياء الكلية بالأنظار الجزئية لأن أفعال الباري تعالى إنما الغرض منها هو النفع الكلي و الصلاح على العموم و إن كان يعرض من ذلك ضرر جزئي- و مكاره مخصوصة أحيانا و المثال أحكامه في الشريعة الحقة و حدوده فيها و ذلك أنه حكم بالقصاص في القتل و قال **وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ** و إن كان موتا و ألما لمن يقتص منه و كذلك قطع يد السارق فيه نفع عمومي و صلاح كلي و إن كان ألما للسارق و ضررا له.

و هكذا خلق الله الشمس و القمر و الأمطار لأجل النفع و المصلحة العامة و إن كان قد يعرض لبعض الناس و الحيوان و النبات من ذلك ضرر و كذلك أيضا قد ينال لاتباع الأنبياء و الأئمة ع شدائد و آلام في إظهار الدين و إقامة سنن الشريعة في أوائل الأمر لكن لما كان حكمة الباري و غرضه في إظهار الدين و إعلان قواعد الشريعة هو النفع العام و المصلحة الكلية للذين يجيئون من بعدهم إلى يوم القيامة و لا يحصى عددهم و عدد ما يلحق بهم من السعادات و الخيرات سهل في جنب ذلك ما نال النبي و أئمته و أولاده المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين من أذية المشركين و جهاد الأعداء المخالفين- و ما لاقوا من الحروب و العداوات و تعب الأسفار ثم ما نال المؤمن من قيام الليل و صيام النهار و أداء الفرائض و ما فيها من الجهد على النفوس و التعب على الأبدان نزر قليل في جنب ما أعد الله لهم من نعيم الجنان و الحور العين و رضوان الله الأكبر و لما كان الأمر يئول إلى الصلاح الكلي كانت تلك الشدائد من جهته صغيرا جزئيا.

فعلى هذا المثال نقول في وجه الحكمة في أكل بعض الحيوانات بعضا إن قصد الباري جل ثناؤه و غرضه في ألم الحيوانات و ما جبل عليه طباعها من الأوجاع و الآلام التي يلحق نفوسها عند الآفات العارضة ليس عقوبة لها و عذابا كما ظن أهل التناسخ بل حثا لنفوسها على حفظ أجسادها و صيانة لهياكلها من الآفات العارضة

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۰۰

لها إذ كانت الأجساد لا تقدر على جر منفعة و دفع مضرة فلو لم يكن ذلك لتهاونت النفوس بالأجساد و خذلتها و أسلمتها إلى المهالك قبل فناء أعمارها و تقارب آجالها- و لهلكت كلها دفعة واحدة في أسرع مدة فلهذه العلة جعلت الآلام و الأوجاع للحيوان- دون النبات و جعل فيها جبلة الدفع إما بالحرب و القتال و إما بالهرب و الفرار و التحرز

لحفظ أنفسها من الآلام العارضة إلى وقت معلوم فإذا جاء أجلها فلا ينفعها الهرب و القتال و لا التحرز بل لا بد من التسليم و الانقياد و إن كان ينالها بعض الآلام و الأوجاعو إذ قد ذكرنا هذه المقدمة فنقول الآن إن الباري تعالى لما خلق أجناسا من الحيوانات الأرضية و علم بأنه لا يدوم بقاؤها أبد الآبدين جعل لكل منها عمرا طبيعيا أكثر ما يمكن ثم يجيئه الموت الطبيعي إن شاء أو أبى و قد علم الله تعالى بأنه يموت كل يوم منها في البر و البحر و السهل و الجبل عدد لا يحصيه إلا هو سبحانه فجعل بواجب حكمته جثث جيف موتاها غذاء لأحيائها و مادة لبقائها لئلا يضيع شيء مما خلق بلا نفع و فائدة- و كان هذا منفعة للأحياء و لم يكن فيه ضرر على الموتى.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۰۱

حكمة أخرى

لو لم يكن الأحياء تأكل جثث الموتى لبقيت تلك الجثث و اجتمع منها على ممر الأيام و الدهور حتى كان يمتلي بها وجه الأرض و قعر البحار و يفسد الهواء من ريحها فيصير تلك سببا للوباء و هلاكا للأحياء فأي حكمة أكثر من هذه إذ جعل الباري سبحانه في أكل الحيوانات بعضها بعضا جر منفعة الأحياء و دفع المضرة عنها كلها و إن كان ينال بعضها الآلام و الأوجاع عند الذبح و القتل و القبض و ليس قصد القاتل و القابض إدخال الألم و الوجع عليها بل جلب المنفعة منها أو دفع المضرة بها- و اعلم أن الباري الحكيم جل ثناؤه لما أبدع الموجودات و رتب المخلوقات- قسمها قسمين أحدهما إبداعي و الآخر خلقي و رتب الجميع و نظمها كان بترتيبه للكليات الإبداعية بأن جعل الأشرف علة لوجود الأدون و سببا لبقائه و متمما له و مبلغا إلى أقصى غاياته و أكمل نهاياته و جعل حكم الجزئيات الخلقية بالعكس منها و ذلك أنه رتبها في الوجود من أدون حالاته إلى أشرفها و أكملها و جعل الناقص منها علة للتمام و سببا لبقاء الكامل و الأدون خادما للأشراف و معينا له و مسخرا له.

و بيان ذلك أن النبات الجزئي لما كان أدون رتبة من الحيوان الجزئي و أخس حالة منه جعل جسم النبات غذاء لجسم الحيوان و مادة لبقائه و جعل النفس النباتية في ذلك خادمة للنفس الحيوانية و مسخرة لها و هكذا أيضا لما كانت رتبة نفوس

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۰۲

الحيوانات أنقص و أدون من رتبة النفس الإنسانية جعلت خادمة و مسخرة للناطقة و على هذا الحكم و القياس لما كان في بعض الحيوانات ما هو أتم خلقة و أكمل صورة جعلت النفوس الناقصة منها خادمة و مسخرة للتامة الكاملة منها و جعلت أجسادها مادة و غذاء الأجساد التامة منها و سببا لبقائها لتبلغ إلى أتم غاياتها و أكمل نهاياتها إذ كان هيولى الأشخاص دائما في السيلان و الذوبان.

فقد تبين بما ذكرنا العلة الموجبة في أكل الحيوانات بعضها بعضا و أما الحكمة الغائبة فيه فهي أن الباري الحكيم جل ثناؤه لما خلق الأشياء الكونية إما لجر منفعة أو لدفع مضرة عن الحيوانات لم يترك شيئا بلا نفع و لا فائدة فلو لم يجعل جثث الحيوانات غذاء لهذه الأجساد لكانت تلك الجيف باطلة بلا فائدة و لا عائدة و كان يعرض منها ضرر و هلاك كلي كما ذكر قبل ذلك و أما الآلام و الأوجاع التي تعرض عند الذبح و القتل- و القبض فقد مر أن الحكيم عز شأنه لم

يجعل ذلك تعذيبا و عقوبة لنفوسها على ذنوب- سلفت منها كما ظنه التناسخية بل حثا لنفوسها على حفظ أجسادها من الآفات و عدم تهاونها بالأجساد و تسليمها إلى المهالك إلى أجل معلوم.

فإن قلت ما العلة في محبة الحيوانات الحياة و كراهيتها للممات.

قلنا لعلل شتى إحداها أن الحياة تشبه البقاء و الممات الفناء و البقاء محبوب- و الفناء مكروه في طباع الموجودات إذ كان البقاء قرين الوجود و الفناء قرين العدم- و الوجود و العدم متقابلان و الباري عز شأنه لما كان علة الموجودات و هو باق أبدا صارت الموجودات كلها تحب البقاء و تشتاق إليه لأنه صفة لعلتها و المعلول يحب علته و صفاتها و يشتاق إليها و يتشبه بها فمن أجل هذا قال الحكماء بأن الواجب بالذات هو المعشوق الأول المشتاق إليه سائر الخلائق كما ستطلع على بيانه إن شاء الله.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۰۳

و ثانيتها ما يلحقها من الآلام و الأوجاع و الفزع و الجزع عند مفارقة نفوسها الأبدان- و ثالثتها أن نفوسها لا تدري بأن لها وجودا خلوا من الأجسام و لك أن تقول لم لا تلهم نفوسها بأن لها وجودا خلوا من الأجساد فنقول في الجواب لأن هذه المعاني لا تصح لها معرفتها لأنها لو علمت بها لفارقت أجسادها قبل أن تتم و تكمل فإذا فارقت أجسادها قبل التمام و الكمال بقيت فارغة معطلة من دون شغل و عمل و لا معطل في الوجود إذ كل وجود له أثر خاص و ليس من الحكمة إبقاء النفوس فارغة بلا تدبير إذ كان مبدأ الجميع لم يخل لحظة من تدبير العالم و حفظ الأشياء بل كل يوم هو في شأن و لو أمسك طرفة عين عن تدبير العالم و إبقائه و حفظه لتهافت السماوات و تساقطت الكواكب و انطمست الأكوان و انعدمت النفوس و الأبدان.

و اعلم أن النفوس التامة الكاملة إذا فارقت الأجساد أما أن تكون مستغرقة في شهود جمال الأزل مستضيئة بأضواء كبرياء الأول منخرطة في سلك ملائكة الله المهيمين متحيرة في عظمة جلال أول الأولين و أما أن تكون مشغولة بتأييد النفوس الناقصة المتجسدة ليتخلص تلك من حال النقص و تبلغ إلى حال الكمال و يرتقي هذه المؤيدة أيضا إلى حاله هي أكمل و أشرف حتى تصل إلى الطائفة الأولى السابقين

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۰۴

المقربين **وَ أَنَّ إِلىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهىٰ** و المثال لذلك في هذه الدنيا الأب الشفيق و الأستاذ الرفيق في تعليم التلامذة و الأولاد و إخراجهم إياهم من ظلمات الجهالات إلى فسحة العلوم و المعارف ليتمرن التلامذة و الأولاد و يكمل الآباء و الأستاذون بإخراج ما في قوة نفوسهم من العلوم و المعارف و الصنائع و الحكم إلى الفعل و الظهور اقتداء بالباري جلت عظمته و كبرياؤه و تشبها به في حكمته إذ هو العلة و السبب في إخراج الموجودات- من القوة إلى الفعل و من الخفاء إلى الظهور فكل نفس علومها أكثر و صناؤها أحكم- و أعمالها أجود و إفاضتها على غيرها أكثر فنسبتها إلى الله أقرب و تشبهها به أشد و هذه هي رتبة الملائكة الذين **لاٰ يَعْصُونَ اللّٰهَ مٰا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مٰا يُؤْمَرُونَ** فيبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب و لهذا المعنى قال الحكماء في حد الفلسفة إنها التشبه بالإله بقدر الطاقة البشرية و مفاده أن من يكون علومه حقيقية و صنائعه محكمة و أعماله صالحة و أخلاقه جميلة و آراؤه صحيحة و فيضه على غيره متصلا

یکون قربه إلی الله و تشبهه به أکثر لأن الله سبحانه کذلك

و أما الخيرات و الشرور المنسوبة إلى النفوس الإنسانية

من جهة دخولها تحت الأوامر و النواهي الدينية و الأحكام و الأفعال الناموسية فجميعها سواء عد من الخيرات كالقيام و الصيام و الحج و العمرة و الزكاة و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و صلة الرحم- و عيادة المريض و تشييع الجنازات و زيارة القبور لأولياء الله و غير ذلك من الطاعات- أو عد من الشرور و المعاصي كالزنا و السرقة و النميمة و القتل و أكل مال اليتيم و الظلم و الجور و الطغيان و أشباهها من المعاصي أمور وجودية و الوجود لا ينفك عن خيرية ما فكل

الحکمة المتعالیة فی الاسفار العقلیة الاربعة، ج۷، ص ۱۰۵

منها كمال و خير للإنسان لا بما هو إنسان أي باعتبار الجزء النطقي له بل باعتبار القوى المتعلقة بحيوانيته المطلقة و أن الذم العقلي أو الشرعي لا يترتب عليها إلا باعتبار تعينها و نسبتها إلى الجوهر النطقي الذي يكون كمالها في كسر قوتها الشهوية و الغضبية و اكتسابها هيئة استعلائية عليها و يكون نقصها في انقهارها عن البدن و انفعالها عن القوى الجرمانية فإن انفعال النفس عن الأداني و الأسافل من شقاوتها و بعدها عن رحمة الله و عدم مناسبتها إلى ملكوته الأعلى فلو قطع النظر عما يؤدي إليه هذه الأفاعيل المذمومة بحسب العقل و الشرع بالقياس إلى الجزء الأشرف من الإنسان لانقلب الذم مدحا و التقبيح حمدا بحسب الحقيقة و بحسب نسب أخر أكثر من تلك النسبة مثلا الشهوة مذمومة و الزاني و الزنا مذمومان عقلا و شرعا و لا شك أن حقيقة الشهوة و ماهيتها هي قوة جبلية سارية في وجود النفس و لا شك أنها ظل صفة شوقية من صفات الملائكة المقربين المهيمين كما أن الغضب في الإنسان ظل لقاهرية القواهر العلوية فيكون لا محالة محمود في ذاته ألا ترى أن العنة كيف ذمت في نفسها و كذا الزاني باعتبار أنه إنسان- و الزنا باعتبار أنه وقاع فعل كمالي لو لم يقدر الإنسان عليه كان ناقصا مذموما فالشهوة باعتبار حقيقتها التي هي الحب و باعتبار تعينها في الصورة الذكورية و الأنوثية و كونها سبب حفظ النوع و توليد المثل و موجبة للذة كمال محمود بذاته و كذا الزنا باعتبار أن قطع النظر عن العارض المذكور كان محمودا حسنا في نفسه و باعتبار سائر النسب فانقلب الذم حمدا في الجميع و لم يبق توجه الذم و التقبيح إلا إلى عدم طاعة الشهوة للعقل و ترك سياسته لها فكونها مذمومة إنما هو بالإعراض عن حكم العقل و الشرع حتى أدى فعلها إلى انقطاع النسب و الإرث و التربية للأولاد و اختلال النظام لأجل التنازع- و وقوع الهرج و المرج و الفتنة و كلها أمور عدمية راجعة إلى اعتبار التعين الخلقي- و النقائص الإمكانية و أوصاف الممكنات باعتبار إمكانها و عدميتها و قصورها في الموجودية- و إلا فالوجود و الوجوب و أحكامهما من الفعلية و التمام و الكمال و البقاء و البهجة و العشق و اللذة

الحکمة المتعالیة فی الاسفار العقلیة الاربعة، ج۷، ص ۱۰۶

كلها خير و محمود و مؤثر فالأمر حمد كله و ليس في الوجود ما هو مذموم حقيقة بل اعتبارا فقط و لنأخذ في توضيح هذا المقام بالبرهان الأتم و البحث الأقوم

الفصل (۹) في أن العالم المحسوس كالعالم المعقول مخلوق على أجود ما يتصور في حقه و أبلغ ما يمكن

على وجه الإجمال

فنقول قد تحقق و اتضح أن واجب الوجود إله العالم جل ذكره بريء من أنحاء النقص و وجوده الذي هو ذاته و حقيقته أفضل أنحاء الوجود و أتمها بل هو حقيقة الوجود و ماهيته و ما سواه لمعة و رشح أو ظل له و لذلك قلنا إنه واجب الوجود من كل جهة و إنه كل الوجود إذ كله الوجود و لأجل ذلك لا سبب له و لا أقدم من وجوده وجود فلا فاعل له و لا مادة و لا صورة و لا موضوع و لا غاية بل هو غاية الغايات و مبدأ المبادي و صورة الصور و حقيقة الحقائق و مذوت الذوات و مجوهر الجواهر و مشيئ الأشياء و كل ما هو كذلك فما يصدر عنه و يفعله فإنما يصدر عن حاق ذاته و ينشأ عن صميم هويته من غير داع زائد يدعوه أو غرض يحمله على الفعل و لا يفيده وجود ما يوجد عنه كمالا لم يكن أو كرامة أو بهجة و لذة أو نفعا أو طلبا لمحمدة أو تخلصا من مذمة أو غير ذلك من المنافع و الخيرات الظنية أو الحقيقية لأنه بريء من كل نقيصة غني عن العالمين فلذلك وجوده الذي به تجوهر ذاته- هو بعينه وجوده الذي به فاعليته فالذات هناك في كونه ذاتا و في كونه مبدأ شيء واحد حقيقة و اعتبارا لا كغيره من الفاعلين حيث ينقسم بشيئين بأحدهما يتجوهر بالآخر يفعل كالكاتب منا يتجوهر بأنه ناطق و يكتب بأنه ذو ملكة كتابة و كالشمس في كونها مضيئة للأرض و النار في كونها محرقة لحطب فاعليتهما بغير ما يتحقق به ماهيتهما فتفتقران إلى صفة زائدة بل إلى قابل يقبل تأثيرهما لا كالباري جل اسمه يبدع الأشياء من نفسه لا من قابل لأنه الذي يخلق القابل و المقبول- و المادة و الصورة جميعا و إذا كان كذلك فكل ما يوجد منه حيث يوجد من أصل حقيقته- يجب أن يكون أشرف الممكنات المفروضة و أجل المجعولات المتصورة بحيث لا أفضل

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۱۰۷

منه إلا الجاعل القيوم له.

و إذ قد علمت أنه ذاته تعالى علم بما سواه على أحسن الوجوه لكون الصورة العلمية للأشياء هي عين ذاته تعالى فللأشياء قبل وجودها الكوني صور علمية إلهية لها وجود إلهي قدوسي و كل وجود إلهي بالضرورة يكون في غاية الحسن و البهاء فإذا تحقق مثال تلك الصور في عالم الكون وجب أن يكون أبهى و أشرف ما يمكن في عالم الكون و إذا رتبت الأشياء كان ترتيبها أجود الترتيب و أشرف النظام فيبتدي من أشرفها وجودا كالعقول الفعالة ثم يتلوه ما هو أنقص منه قليلا كالنفوس الفلكية ثم صورها المنطبعة و هكذا متدرجا إلى أن ينتهي إلى أنقص الموجودات و أدونها فيقطع سلسلة الأبداع في النزول عنده و لا يتخطى إلى ما دونه لعدم إمكان ذلك فهو نهاية تدبير الأمر المشار إليها بقوله تعالى **يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ** ثم تفيض عنه بالامتزاج- بين المواد الحسية و وقوع الحركات و الاستحالات الصور النوعية المتعاقبة على تفاوت مراتبها على القوابل بحسب الاستعدادات و إعداد الحركات فلا يزال يترقى الوجود في الصعود إلى قرب المعبود من الأرذل إلى الأفضل حتى ينتهي الأفضل الذي لا أفضل منه في هذه السلسلة الصعودية كما قال سبحانه **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** فعنده يقف ترتيب الخير و الجود و به يتصل دائرة الوجود فهذا أحسن وجوه الصنع و الإيجاد حيث يجعل المصنوع بحيث يبلغ إلى غاية ما أراد به الصانع- من الخير المترتب عليه و لا خير في صنعة صانع أفضل من أن يكون الغاية المؤدية إليها ذلك الصنع هي ذات الباري جل ذكره فالعالم كله صار بهذا الترتيب كشخص واحد أوله الحق و آخره الحق و صورته صورة الحق بل تمامه الحق

كدائرة واحدة أولها النقطة و آخرها النقطة بل كلها النقطة السيالة من ذاتها في ذاتها إلى ذاتها فسبحان

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۰۸

ذاته الأعظم مما يضرب له الأمثال و لا يبلغ إلى وصفه المقال

الفصل (۱۰) في بيان أن كل مرتبة من مراتب مجعولاته أفضل ما يمكن و أشرف ما يتصور على الوجه التفصيلي

و فيه منهجان لمي و إني

أما المنهج اللمي ففيه ثلاثة مباحث-

المبحث الأول في بيان أن كل ما وقع في مراتب البدء على أفضل أنحاء الوجود

و ذلك أن كلما وقع في مرتبة من هذه السلسلة لا يتصور ما هو أشرف من شخصه و لا من نوعه من الجهة التي بها يصدر من فاعله.

أما الأول

فلوجوب انحصار نوع كل منها في شخصه لأن تكثر الأشخاص لنوع واحد فيما هو قبل الحركات و الاتفاقات التي يقع بها تحصل المميزات المكثرة- من العوارض غير اللازمة للنوع فإن اختصاص بعض الأفراد بعارض للماهية مشخص له مميز عن غيره إن كان لأجل وقوعه تحت تلك الماهية أو لازم من لوازمها فالجميع متساوي الاستحقاق له فوقوع اختصاصه بالبعض دون آخر ترجيح من غير مرجح- و إن كان لأمر خارج عن الطبيعة لاحق لها من خارج فلا بد من مادة قابلة للتأثيرات الخارجية بحسب اختلاف استعداداتها و انفعالاتها و ذلك لم يتصور في عالم الإبداع- فحق كل نوع أن ينحصر في شخصه.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۰۹

و أما الثاني

فلما دلت عليه قاعدة إمكان الأشرف التي مر ذكر البرهان عليها من أن الفياض المطلق و الجواد الحق لا يقتضي الأخس حيثما يمكن الأشرف بل يلزم من فيض وجوده و مقتضى جوده الأشرف فالأشرف فلا جرم أبدع جل شأنه أولا العقول الفعالة و الصور المكرمة و الملائكة المهيمة و الأنوار القاهرة إذ هي أشرف ما في الإمكان في الواقع و بحسب طبقتهم و أفضل تلك الذوات المقدسة و أنورها و أضوأها هو أقدمها و أقربها من نور الأنوار جلت آلاؤه ثم سائرها و ما سواه على الترتيب إلى أواخر تلك الطبقة و هي أرباب الأصنام و مثل الأنواع الطبيعية التي أثبتها أفلاطون و الأفلاطونيون

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۱۰

و نحن قد أحيينا رسوم المتقدمين في القول بهذا المذهب و تقويمه و ذببنا عنه بقمع الشبه و رفع الشكوك بتوفيق العزيز الحكيم كما سبق و آخر هذه العقول الزواهر هو رب طلسم الأرض و به يقع كدبانوئية الأرض على مصطلح حكماء الفرس في كل ما وردت في هذا العالم من صور الأنواع المركبة و عند انتهاء سلسلة العقول في النزول- يبتدي

سلسلة النفوس من نفس أقصى الأفلاك و هو الفلك المحيط بعالم السماوات ثم نفس أشرف الكواكب و بعدها نفس كل كوكب كوكب و فلك فلك إلى نفس أدون الأفلاك و هو السماء الدنيا و بعد طبقتها طبقة الصور الفلكية و النجومية على أفضل ما يمكن في وجود كل منها و أفضل ترتيب يقع بينها لأن ترتيبها ظل ترتيب العقول كما أن صورة كل منها مثال العقل الذي بحذائها على وجه لا يعتريها فتور و لا قصور و لا إعياء و لا لغوب و أجرامها أفضل الأجرام و أشكالها أفضل الأشكال و حركاتها أفضل الحركات.

أما الأولى فلبساطتها و بساطة كيفيتها الملموسة و مع بساطتها فإن فيها جميع الكيفيات المحسوسة على وجه ألطف و أصفى و ألذ ففي تلك الكيفية الواحدة جميع الطعوم اللذيذة و الروائح الطيبة و الألوان الحسنة و النغمات المبهجة.

و أما الثانية فلأنها كريه الأشكال و قد بين في موضعه أفضلية الشكل الكري- على سائر الأشكال.

و أما الثالثة فلأن حركاتها عشقية شوقية و محركاتها عشاق إلهية و ملائكة عقلية و أخرى نفسية فتحريك الأولين تحريك غائي و هو تحريك محرك غير متحرك- كتحريك المعشوق للعاشق و تحريك المعلم بل ماهية العلم للمتعلم و تحريك الثواني تحريك فاعلي من فاعل مباشر للفعل بأشواق متجددة كتحريك الشوق للمشتاق و تحريك الفكر للمتفكر و تحريك العلم الحادث للمتعلم و كل من هذه التحريكات تحريك محرك متحرك.

و بالجملة حركاتها أفضل الحركات لأن حركاتها عبادة إلهية و نسك عقلية يزعجهم الشوق إلى الله و الوجد و الكل من هذه الأشخاص معشوق عقلي يخصه و محرك خاص

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۱۱

يحرك على سبيل الشوق و التوجه إلى ذلك الإمام و الايتمام به على أن الكل مشتاقون إلى جمال رب العالمين رقاصون لأجل ما ينالون من روح وصال أول الأولين ففي كل لحظة يتجدد لهم بالحركة شوق و طرب آخر يرد على ذواتهم و بسبب ذلك الوارد القدسي- يقع لهم حركة أخرى يؤدي بهم تلك الحركة إلى نيل شوق آخر و لذة أخرى و هكذا إلى ما شاء الله و يترشح منهم من الفضائل و الخيرات التي لهم ما يليق بهذا العالم من الأشعة- و الأضواء المستقيمة و المنعكسة و المنعطفة مما يستعد به الهيولى للصور و الكمالات- التي تفاض عليها من المبدإ الفعال في كل وقت و هكذا إلى أن يرث الله الأرض و من عليها.

المبحث الثاني في بيان أن الموجودات العائدة و الكائنات الواقعة في مراتب الصعود

التي في عالم التركيب في غاية الجودة و أفضل النظام فنقول إن الأمور الواقعة في هذا العالم لما كان نظامها متعلقا بحركات الأفلاك و أوضاعها و نظام الأفلاك ظل لنظام عالم القضاء الإلهي الذي قد علمت أنه في غاية التمام و الكمال و لما تبين و تحقق مرارا أن هذه الموجودات غير صادرة على سبيل البخت و الاتفاق كما نسب إلى ذيمقراطيس- و لا على طريقة الإرادة الجزافية كما توهمه الأشاعرة و لا عن إرادة ناقصة و قصد زائد كإرادتنا المحوجة إلى دواع خارجة عن ذاتنا و لا بحسب طبيعة لا شعور لها بذاتها فضلا عن شعور بما يصدر عنها كما ذهبت إليه أوساخ الدهرية و الطباعية بل النظام المعقول المسمى عند الحكماء بالعناية مصدر لهذا النظام الموجود فيكون في غاية ما يمكن من الخير و الفضيلة فعلى هذا يلزم أن لا يكون في هذا العالم بالنظر إلى الأسباب و العلل أمر جزافي أو اتفاقي بل كله ضروري فطري بالقياس إلى طباع الكل سواء كان طبيعيا بحسب ذاته كحركة الحجر إلى أسفل أو قسريا كحركته إلى فوق أو

إراديا كحركة الحيوان

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۱۲

على وجه الأرض إذ كل ما يحدث في عالم الكون فيجب عن سبب إذ الشيء ما لم يجب لم يوجد و يرتقي سلسلة الأسباب إلى مبدإ واحد يتسبب عنه الأشياء على كيفية علمه بها و حكمته و عنايته فليس في الوجود شيء مناف لطبيعة علله و أسبابه المرتقية إلى الواحد الحق إذا المعلول يناسب علته بل فيض منها فالحركات المتنافرة بحسب الظاهر متوافقة منتظمة بالقياس إلى جملة النظام و وجود الإصبع الزائد على جبلة هذا الإنسان طبيعي في جبلة العالم و كذا كل عمر فهو عمر طبيعي بالقياس إلى الكل و إن لم يكن طبيعيا على الإطلاق و لو تيسر لك أن تعلم كل شيء بأسبابه و علله بأن تخرج بعقلك من هذه الهاوية المظلمة مهاجرا إلى الله و ملكوته و تشاهد عالم الأفلاك و عجائب الترتيب فيها ثم تعرج إلى الملكوت الأعلى لترى عجائب القدرة فيه و تعرف المبدأ الأول حق معرفته ثم تسافر بالحق من الحق إلى الخلق فتعرف

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۱۳

بنوره نور ما يتلوه من الملائكة العلامة ثم ما يتلوها من الملائكة العمالة بإذن الله ثم ما يباشر تحريكها و تدويرها بالتسخير و ما بيدها أمرها بالتدبير مع لوازم حركاتها و أشواقها و هيئات عباداتها و أنوار طاعاتها و قرباتها من انفعال العنصريات و تركيب ممتزجاتها و ما يترتب عليها من صور الكائنات و نفوس أبدانها المستحيلات لرأيت جميع الأشياء حسنا شريفا عندك موافقا لرضاك و لكنت عرفت ما ذكرنا لك بالوجدان كما عرفت الآن بالبرهان و مثلك يكون بالحقيقة من أهل الرضوان الفائز بروح الجنان

المبحث الثالث في أن مجموع العالم من حيث المجموع على أفضل نظام و أكمل تمام

نوعا و شخصا ماهية و حقيقة فنقول أولا إن مجموع العالم من حيث هو- مجموع شخص واحد له وحدة طبيعية و ليست وحدته كوحدة أشياء متغايرة اتفق أن صار بالاجتماع و الانضمام كشيء واحد مثل اجتماع البيت من اللبنات أو اجتماع العسكر من الأفراد و ذلك لأن بين أجزاء العالم علاقة ذاتية لأنها حاصلة على الترتيب العلي و المعلولي و هي مترتبة بالأشرف فالأشرف إلى الأخس فالأخس و من الأعلى فالأعلى إلى الأدنى فالأدنى فكل جميعة تقع على هذا الوجه يكون الوحدة فيها وحدة ذاتية- و ذلك لما علمت أن العلة تمام المعلول و الأشرف تمام الذي دونه في الشرف و الشيء أن يكون مع تمامه هو أولى به أن يكون مع نفسه فيكون واحدا بوحدته.

و بالجملة كون العالم شخصا واحدا برهاني عندنا و قد صرح الحكيم أرسطاطاليس بأن العالم حيوان واحد مطلب ما هو و لم هو فيه واحد فمن علم أنه ما هو علم أنه لم هو فإذا كان كذلك و لا شبهة أن العلة الغائية لجملة العالم المسمى عند العرفاء

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۱۴

بالإنسان الكبير هو الحق الأول جل ذكره فيكون هو الجواب عن السؤال عن مطلب لم هو لهذا الإنسان الكبير و إذا اتحد

مطلبا لم هو أو ما هو فيه فيكون الحق تعالى مقوما لماهيته و مقررا لذاته و حقيقته فإذن لا يمكن أن يتصور حقيقة من الحقائق الإمكانية فوق ما يكون الحق الأول تمام وجوده و كمال حقيقته فثبت و تحقق أن العالم بكليته أفضل ما يمكن و أشرف ما يتصور و لنفصل في بيان هذا فنقول إذا كان العالم بتمامه شخصا واحدا فلا يجوز أن يتصور نظام آخر بدله سواء كان فوقه في الفضيلة أو مثله و ذلك لأن ذلك النظام المفروض لا يخلو إما أن يكون مخالفا لهذا النظام الواقع غير مندرج معه تحت ماهية نوعية أو غير مخالف له و كل من الاحتمالين باطل فتصور نظام آخر مطلقا باطل.

أما [بطلان] الأول

فلما تبين أن جواهر مخالفة لجواهر هذا العالم الموجود و كذا أعراضا مخالفة لأعراضه ممتنع الوجود أما أن العقول و النفوس الكلية و صور الأفلاك و الكواكب و هيولياتها لا يمكن غيرها في مرتبتها مخالفا لها في نوعها فذلك واضح لأن كلا منها صدر عن فاعله بجهة واحدة من الجهات الفاعلة اللازمة التي يقتضيها ذلك الفاعل بلا شركة من أمر آخر كمادة أو غيرها و أما الجسم بما هو جسم فهو غير مختلف الحقيقة و أما الأنواع البسيطة منه فاختلافها في النوع بصور نوعية تصدر من المبادي العقلية بجهاتها اللازمة إما مطلقا و إما بإعانة من الصور السابقة بلا مدخلية الأمور العارضة لأنها قبل

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۱۵

الحركات و الاستعدادات و أما أعراض تلك البسائط فلأنها تابعة للجواهر متقومة بها- فمع اتفاق الموضوعات و الحيثيات الفاعلية و القابلية التي على سبيل اللزوم لا يمكن غيرها فكما علمت هذا في البسائط فقس عليه المركبات و صورها النوعية لأنها تابعة للمواد و أنحاء التركيبات و الاستعدادات التي منشؤها تلك الجواهر و أعراضها اللازمة- كحركات الأفلاك و أوضاعها فإذا لم يمكن تحقق جواهر و لا أعراض سوى هذه التي قد وجدت فلو فرض عالم آخر يكون لا محالة موافقا لهذا العالم في الماهية غير مخالف له في أمر مقوم ذاتي.

و أما بطلان الشق الثاني فلوجوه

منها أن كل ما لا مادة له و لا حركة قبل وجوده فوجوده على سبيل الإبداع و كل ما كان كذلك لا يختلف بالخارجيات فلا يتكثر نوعه بالأشخاص فحق نوعه أن يكون في شخص لأن الذي به يقع التميز ذاته أو لازم ذاته فلا يتعدد.

و منها أن الفاعل لوجوده هو ذات الواجب بذاته بلا جهة أخرى و وحدة العلة توجب وحدة المعلول و منها أن تشخصه بذات الباري جل ذكره المتشخص بنفس حقيقته و كذا تشخص كل معلول بنفس علته الموجدة القريبة فلا يمكن تعدده و منها أن علمه تعالى بنظام الخير الذي هو عين ذاته اقتضى وجود العالم فلا يمكن غيره و منها ما وقعت الإشارة إليه من أن العلة الغائية في وجوده هي ذات المبدإ الأعلى و علة بدئه هي بعينها علة تمامه و كل ما غايته أجل الأشياء فهو أجل الممكنات.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۱۶

بحث و تحصيل

و لعلك تقول إذا كان العالم بكله أعني الإنسان الكبير شخصا واحدا أشرف الممكنات لأجل أن علة بدئه و علة تمامه شيء واحد هو الحق تعالى فنقول هذا الحكم جار في المعلول الأول فيكون مثله في الحقيقة فيلزم أن يصدر من الواحد

الحق أمران في أول الإبداع و هو محال و أيضا يلزم وجود اثنين من نوع واحد فيما فوق الكون و هذا أيضا يخالف أصول الحكمة فدفعه بأنه ليس يلزم هناك في الحقيقة تعدد لما حققنا سابقا أن تمام حقيقة الشيء إنما هو بما يكون بمنزلة فصله الأخير و هي صورته التي بها تقوم سائر معانيه.

و قد علمت أن الشيء بصورته هو ذلك الشيء لا بمادته فالصادر من الحق تعالى شيء واحد هو الإنسان الكبير بشخصه لكن له اعتباران اعتبار إجمال و اعتبار تفصيل- و قد مر أن لا تفاوت بين الإجمال و التفصيل إلا بنحوي الإدراك لا بتفاوت في المدرك فإذا

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۱۷

نظرت إلى مجموع العالم بما هو حقيقة واحدة حكمت بأنه صدر عن الواحد الحق صدورا واحدا و جعلا بسيطا و إذا نظرت إلى معانيه المفصلة واحدا واحدا تحكم بأن الصادر منه أولا هو أشرف أجزائه و أتم مقوماته و هو العقل الأول إذ العقل هو كل أشياء كما مر ذكره ثم باقي الأجزاء واحدا فواحدا على ترتيب الأشرف فالأشرف و الأتم فالأتم و هكذا إلى أدون الوجود و أضعفه فإذن تبين و تحقق أن الإنسان الكبير و المجعول الأول شيء واحد بالذات و الحقيقة فإذا قلت العقل الأول فكأنك قلت مجموع العالم و إذا قلت مجموع العالم فكأنك قلت العقل الأول بلا اختلاف حيثية تقييدية و لا تعليلية إلا مجرد الإجمال و التفصيل فإن قلت كيف أبدع الباري جل ذكره مجموع العالم بكليته مرة واحدة مع أن بعض أجزائه تدريجية الوجود كالأزمنة و الحركات و بعضها دفعية الوجود و بعضها خارج عن القسمين قلنا وحدة العالم وحدة أخرى جامعة للوحدات محيطة بالكل و هذه الحركات و التجددات و الأجسام و الجسمانيات كلها منطوية تحت تلك الوحدة على ما يعرفه الراسخون في العلم و الله أعلم-

و أما المنهج الإني

فلما نشاهد من ارتباط الموجودات بعضها ببعض و انتفاع بعضها عن بعض و توجه كل ناقص إلى كماله و طلب كل سافل للاتصال إلى العالي توجها غريزيا و طلبا جبليا بحسب ما أودع الله في ذاته و نرى عطوفة كل عال لما تحته و عناية كل قوي لما دونه و تدبير كل نفس و عقل لما يقع تحت تدبيره أحكم تدبير و أشد تصوير- و أحسن تقويم و ألطف تكميل و تتميم و على وجه يبلغ إلى غاية كماله و تمامه الممكن في حقه فالصورة تكمل المادة بالتقدير و التشكيل و التكييف بكل كيفية يناسبها و يفيدها

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۱۸

التسكين في حيز يخصها إذا كانت فيها و التحريك على أسهل الوجوه و أقصر الطرق- إليه إن كانت خارجة عنه و النفس تكمل طبيعة البدن بإفاضة القوى و الآلات عليها و إفادة الأشكال و الأعضاء لها على حسب حاجتها إلى كل واحدة منها و تبقية شخصها أقصى ما يمكن و تبليغها إلى غاية نشوها بالتغذية و التنمية و تبقية نوعها بالتوليد للمثل و حفظ الصحة على مزاج بدنها على وجه يترتب عليها هذه الأفاعيل بحرارة غريزية- شأنها النضج للمادة و الطبخ و الهضم و دفع الفضول الردية و إمساك الأخلاط الدموية- المحمودة التي يقع بها الاغتذاء و الأخلاط التي بها صلاح البدن من البلغم و الصفراء و السوداء و غير ذلك من صور الأعضاء و أشكالها و أقدارها و مواضعها اللائقة و ترتيبها على أحسن الترتيب و

غير ذلك مما يطول شرحه و يدل عليه علم الهيئة و التشريح كل ذلك بإذن الله و الهامة إياها كما قال **وَ نَفْسٍ وَ ما سَوّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها** و كذلك العقل يكمل النفس و يقومها و يهذبها و يطهرها عن الأدناس المادية و الأرجاس البدنية بإفادتها العلم و الحكمة و تنويرها بنور المعرفة و الهداية و إخراجها من القوة إلى الفعل و من الظلمات إلى النور و تجريدها من الأغشية البدنية و بعثها من القبور الداثرة و المضاجع البالية المندرسة إلى عالم القيامة و المثول بين يدي الله و شأن الحق الأول مع العقل و النفس و الطبيعة و سائر الأشياء في التقويم و الإيجاد و الهداية و الإرشاد و العناية و اللطف و الرحمة و الجود و الكرم فوق ذلك كله و لنأخذ في شرح هذا المطلب على وجه أبسط

الفصل (۱۱) في نبذ من آثار حكمته تعالى و عنايته في خلق السماوات و الأرض

و اعلم أن أفاضل البشر قاصرون عن إدراك حقائق الأمور السماوية و الأرضية على وجهها و عن الإحاطة بدقائق الصنعة و عجائب الفطرة و آثار العناية و الحكمة التي

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۱۹

فيها بل الأكثرون عاجزون عن إدراك حقيقة النفس التي هي ذات الشخص و تفاصيل أحوالها و سريان قوتها في آلات البدن و حواسه و أعضائه و كيفية ترتيب الأعضاء و أشكالها و أوضاعها و أجزائها و منافع كل واحد واحد منها و أحوالها و أفعالها و غاية كل فعل فإن الذي تفطن به المشرحون و لاح لهم بقوة الفكر شيء قليل لا نسبة له إلى ما ذهلوا عنها من الدقائق و العجائب و الحكم في صنع الباري فيها فإذا كانت إحاطة الإنسان بنفسه و بدنه على ما ينبغي متعذرة فكيف يكون الإحاطة بما في العالم الجسماني و الروحاني ممكنة و أكثره لا يمكننا الاطلاع على حقيقة وجوده فضلا عن إدراك حقائق جميع الموجودات إلا أنا مع هذا العجز الموجود في الطبع و نحن في عالم الغربة لا بد أن نتأمّل- و نتفكر في عجائب الخلقة و بدائع الفطرة امتثالا لقوله تعالى **أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ**

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۲۰

و قوله **أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ** و قوله إن في خلق السماوات و الأرض لآيات للمؤمنين و قوله **أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَ زَيَّنّاها وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَ ذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ** و لما وقع منه تعالى من مدح المتفكرين فيها فقال- **يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ** الآية و ذم المعرضين عن النظر و التأمل كما قال تعالى **وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَ هُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ** و قال **وَيْلٌ لِكُلِّ أَفّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آياتِ اللهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ** فلا بد من ذكر أنموذج من الحكمة الموجودة في العالم الجسماني و تناسب أوضاعه و حسن انتظامه ليستدل بها على عظمة المبدع و سعة رحمته و فخامة جوده و لطف عناية.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۲۱

فنقول انظر أيها الذكي الفهم المتفكر في صنع الله المتدبر في آيات كتابه أن مبدع الأشياء لما كان غير متناهي القوة و

القدرة على إفادة الخير و الرحمة فلم يجز وقوف رحمته- و فضله عند حد لا يتجاوزه فيبقى بعد ذلك الإمكان غير المتناهي من غير أن يخرج من القوة إلى الفعل و من مكمن الخفاء إلى مجلى الظهور و ذلك ممتنع جدا و لكن لما امتنع صدور غير المتناهي من الأكوان مجتمعا لا متفرقا و دفعيا لا متدرجا لنهوض البراهين عليه فبالضرورة لا يمكن ذلك إلا على سبيل التعاقب و الافتراق فلا جرم وجب أن يكون من صنع الله وجود جوهر بواسطته يستصح صدور المحدثات و المتجددات عنه تعالى- لتقدسه عن التغير و لا بد أن يكون ذلك الجوهر ذا قوة غير متناهية في الانفعال على وجه الإمداد من الغير كأن الواجب جل ذكره ذو قوة غير متناهية في الفعل على وجه الاستقلال ثم لما كان تجدد الحوادث بتوارد الاستعدادات متوقفا على أمر متجدد بالطبع حادث بالذات ليصير تجدده و حدوثه الذاتيين منشأين لحدوث الحادثات و تغير المتغيرات- و ارتباط الحوادث بالمبدع القديم المرتفع ذاته عن الأزمنة و الحركات فأفاد بفضل جوده أجراما كريمة نورية متجددة الطبائع دائمة الحركات النفسانية و الطبيعية و الوضعية لأغراض علوية نفسانية و غايات حكمية عقلية هي العلة لإفاضات أنوار حسية و أضواء

الحکمة المتعالیة فی الاسفار العقلیة الاربعة، ج۷، ص ۱۲۲

صورية بها يقع استعدادات مادية غير متناهية تلحق من فاعل غير متناهي التأثير إلى قابل غير متناهي القبول ليوجب ذلك إفاضة الخيرات و فتح أبواب البركات على الدوام من غير انقطاع كما في قوله تعالى **وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاٰ تُحْصُوهٰا** و إذا لم يكن الفاعل القيوم على الغيب بضنين فيحصل الفيض منه على كل قابل مستعد بحسب استعداده حتى أن النمل الصغار و الضب و السوسمار مع حقارتها لو كانت مستعدة لقبول نفس ناطقة وجب أن يفاض عليها.

و قد علمت أن أشرف ما يتعلق بالهيولى و الأجسام إنما هي النفوس الناطقة التي لا يمكن خروج جميع ما يمكن منها من القوة إلى الفعل دفعة واحدة لا مع الأبدان لاستلزامه لا تناهي الأبعاد و الأجرام و لا بدونها لكونها متعلقة الذوات بها حدوثا فبحسب استعداد الهيولى استعدادات غير متناهية في الأدوار و الأكوار يقبل فيض النفوس من العقل المفارق إلى غير النهاية ثم يرجع منها ما كملت إلى العالم العقلي و الوطن الأصلي و ما لم تكمل تلبث في بعض طبقات البرازخ و المقابر المثالية أزمانا طويلة أو قصيرة- و أحقابا كثيرة أو قليلة بحسب كثافة الحجاب و رقته و بحسب كثرة الجرائم و قلتها.

ثم انظر أيها المتأمل الطالب لمعرفة الله و ملكوته من ملاحظة أحوال العلويات و أوضاعها لانتفاع السفليات من أنها لو كانت كلها نيرات لأفسدت بإحراق أضوائها مواد الكائنات كلها و لو كانت عرية عن النور بالكلية لبقي ما دون الفلك في ظلمة شديدة و ليل مظلم طويل لا أوحش منه و كذا لو ثبت أنوارها أو لازمت دائرة واحدة- لأثرت بإفراط فيما قابلها و تفريط فيما وراء ذلك و لو لم يكن لها حركة سريعة لفعلت ما يفعله السكون و اللزوم و لو لم يجعل الأنوار الكوكبية ذوات حركة سريعة مشتركة و أخرى بطيئة مختصة و لم يجعل دوائر الحركات البطيئة مائلة عن مدار الحركة السريعة لما مالت إلى النواحي شمالا و جنوبا فلم تنتشر منافعها على بقاع الأرض و لو لا أن حركة الشمس خصوصا على هذا المنوال من تخالف سمتها لسمت الحركة السريعة لما حصلت الفصول الأربعة التي بها يقع الكون و الفساد و يصلح أمزجة البقاع و البلاد و إلى هذا المعنى أشار الكتاب الإلهي **قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلىٰ يَوْمِ**

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۲۳

الْقِيامَةِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ الآية ثم قال **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً- إِلىٰ يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلا تُبْصِرُونَ**.

و لما كان القمر نائبا للشمس خليفة لها في النضج و التحليل إذا كان قوي النور جعل مجراه يخالف مجراها في الصيف و الشتاء شمالا و جنوبا فالشمس تكون في الشتاء جنوبية و القمر شماليا لئلا ينعدم السببان و في الصيف بعكس ذلك لئلا يجتمع المسخنان- و لما كانت الشمس شمالية الحركة صيفا جنوبيتها شتاء جعل أوجها أعني أبعد إبعادها عن الأرض في الشمال و حضيضها و هو أقرب إبعادها في الجنوب ليخبر قرب الميل ببعد المسافة لئلا يشتد التسخين و التنوير و ينكسر بعد الميل بقربها لئلا يضعف القوة المسخنة عن التأثير فانظر كيف جعل الكواكب مع حركة الكل السريعة حركات أخرى بطيئة- تميل بها إلى شمال و جنوب على مدارات متفاوتة في العظم و الصغر و السرعة و البطوء و القرب و البعد من الأرض بحسب أوجاتها و حضيضاتها و لأجل اختلاف أحوالها المنفعة الكائنات و غرض النظام قال الله تعالى **وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ*** أي بما يقتضي حركاتها طالعة و غاربة و شمالية تارة و جنوبية أخرى و كذلك أوجيه مرة و حضيضيه أخرى و غير ذلك من أحوال الكواكب كالرجوع و الإقامة و الاستقامة و كونها في بيوتها التي لها و وبالها و شرفها و هبوطها و كونها بطبيعة كل برج وقعت فيه من الثابتة و المنقلبة و ذوات الجسدين و أمثال ذلك مما هو مذكور في كتب الأحكاميين على الإجمال- و لا يحيط بتفاصيله إلا الباري جل ذكره و ملائكته المقربين الذي هم الأنوار العقلية و الأشعة الإلهية.

ثم أ ما تأملت أيها الناظر البصير في ملكوت السماوات و ما فيها من خلق أرواح الأفلاك و نفوس الكواكب و قوام جوهرها و إشراق نورها و طاعتها للباري و دئوبها في الحركات على الدوام عشقا و شوقا إلى بارئها و مبدعها.

ثم من عجائب الحكمة و غرائب اللطف و الرحمة حسن ترتيب العناصر و جعل الأرض في وسط الكل لمناسبة الكثافة و الظلمة للبعد عن أفق النور و لأنها لو كانت مجاورة للأجرام العلوية لاحترقت بشدة تسخين الحركة الدائمة و لأنها على تقدير بقائها هناك- ما كان يمكن أن يتكون عليها حيوان و لا ينبت منها نبات و جعل النار مجاورة

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۲۴

للفلك لمناسبة اللطافة و النورية و لو جاوره غيرها من العناصر تسخن بدوام حركته- فصار نارا و انضم إليها تسخين النار فاحترقت باقي العناصر و صار الكل نارا فانفسد الجميع و لما كانت العناية الأزلية اقتضت وجود نفوس ناطقة و غير ناطقة احتاجت إلى أبدان حيوانية و نباتية يغلب على أكثرها العنصر اليابس الذي بيبسه تتحفظ الصور و الأشكال- وجب أن يكون الأرض باردة يابسة متماسكة الأجزاء ليجاورها الحيوان و النبات الغالب عليهما عنصرها و يجب أيضا لما ذكرنا من الحكمة أن لا يكون الماء محيطا بالأرض إحاطة تامة لاحتياج أكثر الحيوان و النبات لاستنشاق الهواء و جذبه ثم جعل الهواء مجاورا للنار لمناسبتها في الحر و الميعان و جعل الماء متوسطا بين الهواء و الأرض- لمناسبة الهواء في الميعان و مناسبة الأرض في البرد لئلا يبطل العدل.

ثم انظر لو لم يكن طبقات الأجرام التي فوق الأرض من العناصر و الأفلاك شفافة بل ملونة لوقفت أضواء الكواكب على سطوحها أو انعكست إلى ما فوقها و ما وصلت إلى عالم الكون و الفساد فبقي أهل هاوية الهيولى في ظلمة لا أوحش

منها فجعلت الكواكب مضيئة- و الأفلاك و باقي العناصر شفافة و لو كانت العناصر كلها قابلة للنور اشتد الحر فيها و قوي إلى حد- يؤدي إلى إحراق ما في هذا العالم كله

الفصل (١٣) في ذكر أنموذج من آثار عنايته في خلق المركبات

أ لم تر يا عارف إلى ربك كيف خلق للعنصريات حرارة هي محللة ملطفة محركة- و برودة مسكنة غاقدة و رطوبة قابلة للتشكل و التقسيم و يبوسة حافظة لما أفيد من التصوير و التقويم و كيف ركب المواليد من امتزاج كيفيات العناصر و أعد لكل كمال مزاجا خاصا و أفاض على كل مستعد ما يستحقه من الكمال و لم يقتصر له على هذا بل زاده من الإفضال ما يهتدي به إلى الثواني من الكمالات و الغايات و بذلك يقع الارتفاع في القوس الصعودي إلى الدرجات و لذلك قال **رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى‏** فانظر لما كانت أجساد النبات و الحيوان لم يحصل إلا و يلزمها قبول التحليل كيف رتب لها قوة غاذية

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۲۵

متصرفة للغذاء بالهضم و الإحاطة إلى شبيه جوهر المغتذي و لما لم يمكن حصول الحيوانات و النباتات على كمالها المقداري أول مرة كيف أودع فيها قوة نامية موجبة لزيادة أقطار المغتذي في الجوانب على نسبة مضبوطة تليق بها.

ثم ابتهج يا عارف و اذكر رحمة ربك و تزمزم في عشق جماله بالتسبيح و التهليل- بأن القسمة لما أوجبت باقيات بالشخص و باقيات لا بالشخص كيف تمم جود الواهب الحق نقصان الديمومة العددية بإعطاء الديمومة النوعية فأوفى لكل منهما قسطه من الوجود و نصيبه من الدوام فصار العالم الطبيعي منتظما بصنفي الثبات و البقاء- فانظر في أحوال ما لا يحصل غالبا من النبات و الحيوان إلا بالتوالد كيف استبقى نوع ما وجب فساد شخصه بقوة مولدة مودعة في أعضاء التوليد قاطعة لفضله من مادة هي مبدأ الشخص الآخر.

ثم انظر كيف خلق لمن كانت أفعاله بالاختيار لا بالطبيعة و الاضطرار شهوة الغذاء و لذة الوقاع كالأجير الذي لا يفعل فعله إلا بالأجرة فهذه الشهوة التي تكون لقوى نفس الحيوان لصدور هذه الأفاعيل التي يتوقف عليها بقاء الشخص و النوع من هذه الأبدان- بمنزلة الأجرة للأجير و الجعالة و الرشوة للخدم و الأعوان كيلا يقع الذهول و الإعراض عن إيقاع هذه الأغراض.

ثم انظر كيف رتب للغاذية خوادم من قوى أربع جاذبة تأتيها بما يتصرف فيه- و هاضمة محللة للغذاء معدة إياها لتصرف الغاذية و ماسكة لحفظها مدة لتصرف المتصرف فيها- بالإحالة و الطبخ و دافعة لما لا يقبل المشابهة.

ثم انظر كيف رتب للحيوان لكونه أشرف من النبات قوى أخرى من مدركة و محركة لأن نفسه دراكة مختارة في حركاتها البدنية و النفسانية و زاد البدن الإنساني لكون مزاجه أشرف كلمة روحانية إذا أطاعت أمر ربها و كلمت بالعلم و العمل صعدت إلى عالم الملكوت و قربت من مبدإها بقطع علائق الناسوت و شابهت الملإ الأعلى و أهل عالم الجبروت

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۲۶

و لو تدبرت تدبرا شافيا في كيفية تدبير النفس للبدن و حصول الألفة و العلاقة و شوق التصرف و التحريك و عشق

المقارنة و ألم المفارقة بينهما مع أن البدن كالثقل الكثيف- و النفس كالنور اللطيف لقضيت العجب و قلت كيف يتصور الازدواج بين النور و الظلمة و الايتلاف بين المجرد و المادي و بين العلوي الذي قال تعالى تعظيما لشأنه- **وَ رَفَعْنٰاهُ مَكٰاناً عَلِيًّا** و قال **إِنَّ كِتٰابَ الْأَبْرٰارِ لَفِي عِلِّيِّينَ** و السفلي المشار إليه بقوله **إِنَّ كِتٰابَ الْفُجّٰارِ لَفِي سِجِّينٍ** إذ بينهما من المخالفة و المنافرة في الماهية ما لا يخفى على صاحب الروية و جل الخلق بل كلهم إلا النادر منهم غافلون بل منكرون لهذه الارتباط و الاتحاد بينهما حتى أنكر أكثر المتسبين إلى العلم تجرد النفس و ظن جمهور القائلين تجردها أن إنسانية الإنسان بصورة أخرى نوعية منطبعة في البدن يتحصل منهما حقيقة الإنسان و أما المشار إليه بأنا فهو المسمى بالنفس الناطقة و لها إضافة عارضة شوقية بالقياس إلى البدن لأنه موضوع أفاعيلها الجسمانية و هؤلاء بمعزل عندنا عن معرفة النفس و مقاماتها في الهبوط و الصعود- حسبما قررنا سابقا من أنها هي الجوهر المغتذي النامي المتحرك الساكن الآكل الشارب اللامس الشام الذائق فانظر في حكمة الصانع كيف كثف اللطيف لا بل لطف الكثيف بحسن تدبير فخلق من زبدة العناصر البدن الكثيف المخلوق من مادة النطفة

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۲۷

و من لطافته و زبدته خلق القلب الصنوبري و من لطافة الدم الخالص و من صفوة الروح البخاري النابع في العضو الرئيس الذي هو في النقاء و الصفاء كالفلك البعيد عن التضاد و لاعتداله و توسطه بين الأضداد مع جامعية لكيفيات الأطراف يشبه السبع الشداد و لنوره و ضيائه كالكواكب اللامعة على الأبصار و لأجل صفائه و صقاله صار مرآة تتلألأ فيها الصور العينية و يتجلى فيها المثل المحسوسة التي هي واسطة بين العالمين فهو كأنه موضع للنفس متحد بها عند ما خرج جوهره من قوته النفسية إلى العقل كما أن النفس مادة للعقل و متحدة به عند ما خرج جوهر ذاتها من القوة العلية إلى الفعل فذلك الجوهر مرآة يتجلى فيها النفس و النفس مرآة يتجلى فيها العقل و الإنسان قد تطور في ذاته بهذه الأطوار- و تبدلت عليه هذه النشئات من حد النطفة إلى حد العقل شيئا فشيئا على التدريج ففيه الملك و الملكوت و هو جامع الكونين ففيه شيء كالفلك و هو مرآة يدرك بها الصور الجزئية الغائبة و الحاضرة و شيئا كالملك و هو مرآة يدرك بها الحقائق الكلية الثابتة فانظر إلى القدرة و الحكمة ثم إلى اللطف و الرحمة تبهرك عجائب الحضرة الربوبية و إن أردت زيادة شرح و إيضاح فاستمع

الفصل (۱۳) في آيات حكمته و عنايته في خلق الإنسان

الإنسان مخلوق أول خلقه من أخس الأشياء و أنقص المواد و أضعف الأجساد- لأنه مكون من القوة الهيولانية و هي كالشيء ثم من التراب المظلم و الطين اللازب ثم

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۲۸

من النطفة و أشير في الكتاب الإلهي إلى المرتبة الأولى للإنسان بقوله تعالى **هَلْ أَتىٰ عَلَى الْإِنْسٰانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً** و إلى المرتبة الثانية و الثالثة بقوله تعالى **إِنّٰا خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشٰاجٍ نَبْتَلِيهِ** و بقوله **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ** و بعد هذا المنازل و المراتب يتكون له القوى النباتية و الأعضاء الإلهية لها- ثم يدخلها في باب الحيوانية لقوله **فَجَعَلْنٰاهُ سَمِيعاً بَصِيراً** ثم يتدرج له الكون إلى أن يحدث له الأكوان الحيوانية كلها

التي أولها قوة المس و آخرها قوة الوهم ثم ينشأ فيه خلق آخر كما قال تعالى **ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**.

فانظر أيها الناظر في علوم آفاق و الأنفس إلى النطفة و هي مائية قذرة لو تركت ساعة لفسد مزاجها كيف أخرجها رب الأرباب من بين الصلب و الترائب و حفظها عن التلاشي و الافتراق ثم جعلها في قرار مكين ثم جعلها و هي بيضاء علقة حمراء ثم جعلها مضغة ثم انظر كيف قسم أجزاء النطفة و هي متشابهة إلى العظام و الأعصاب و العروق و الأوتار و اللحوم و غيرها من الأعضاء البسيطة ثم كيف ركب من هذه الأعضاء البسيطة الأعضاء المركبة من الرأس و اليد و الرجل و غيرها و شكلها بأشكال مختلفة مناسبة لأفاعيلها كما يستعلم من قواعد علم التشريح و غيره ثم خلق هذا كله في جوف الرحم في ظلمات ثلاث و لو كشف الغطاء عنك و امتد البصر منك إليها لكنت ترى التخاطيط و التصاوير يظهر عليها شيئا فشيئا و لا ترى آلته فسبحان من مصور فاعل للنقوش و التصاوير لا يرى في تصويره آلة و لا إصبع- ثم إذا بلغ في تدرجه في الاستكمال إلى جذب الغذاء و فعل النماء أفاض عليها صورة

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏٧، ص ١٢٩

نباتية لها خوادم من قوى كثيرة توكل عليها ملائكة يتمشى بهم ما يرجع إلى الغذاء و النماء فانظر كيف وكل الله الملائكة بك في انتظام أمورك حتى في أمر غذائك فإن أهل المكاشفة قد رأوا ببصائر قلوبهم أن كل جزء من أعضاء بدنك لا يغتذي إلا بأن يوكل الله به سبعة من الملائكة هذا هو الأقل إلى عشرة إلى مأة إلى ألف أو يزيدون و ذلك لأن معنى التغذي أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء قد تلف و ذلك بعد أن يتغير تغيرات- يصير دما في آخر الأمر ثم لحما و عظما.

ثم إن الغذاء جسم لا يتحرك بطبعه و لا يتغير بنفسه في أطوار الخلقة كما أن البر لا يصير طحينا ثم منخولا ثم عجينا ثم خبزا مستديرا مطبوخا إلا بصناعة صناع و الصناع في الباطن إذا كانت للصنع غاية حكمية هم الملائكة كما أن الصناع في الظاهر هم أهل المدينة و قد أسبغ الله عليكم نعمه ظاهرة و باطنة و الناس غافلون عن نعمة الباطنة و العارف يعلم أنه لا بد من ملائكة سبعة أحدهم جاذب للغذاء إلى الأعضاء و الآخر ممسك له في جوار العضو و الثالث يخلع عنه صورته السابقة فيخلع صورة الدم و الرابع يكسوه صورة اللحم و العظم و غيرهما و الخامس يدفع الفضل الزائد و السادس يلصق ما اكتسى كسوة اللحم باللحم و ما اكتسى كسوة العظم بالعظم حتى لا يكون منفصلا و السابع يرعى المقادير و النسب في الإلصاق.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏٧، ص ١٣٠

فإن قلت فهلا فوضت هذه الأفعال إلى ملك واحد و لم احتيجت إلى سبعة أملاك- و الحنطة أيضا يحتاج إلى طاحن و نخال ثانيا و صاب للماء إليه ثالثا و عاجن له رابعا و إلى قاطع له كرات مدورة خامسا و إلى مرقق له رغفانا عريضة سادسا و إلى من يلصقها بالتنور سابعا فهلا كانت أفعال الملائكة باطنا كأفعال الإنس ظاهرا.

قلنا يجب عليك أن تعلم أن خلقة الملائكة تخالف خلقة الإنس لأن وجودهم وجود صوري بسيط من غير اختلاط تركيبي و لا تزاحم بين أفعالهم كما لا تزاحم بين صفاتهم و ذواتهم و لا يكون لكل منهم إلا فعل واحد و إليه الإشارة

بقوله تعالى وَ ما مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ فلذلك ليس بينهم تناقش و تقاتل و لا تزاحم و لا تضاد في فعل أو صفة بل مثالهم في تعيين مرتبة كل منهم و فعله مثال الحواس منا فإن البصر لا يزاحم السمع في فعله و هو إدراك الأصوات و لا الشم يزاحمها في إدراك الروائح و لا هما يزاحمان الشم و لا الذوق و لا غير ذلك يزاحم بعضها بعضا و ليست هي كالأعضاء مثل اليد و الرجل فإن أصابع الرجل قد تبطش بطشا ضعيفا و رأينا إنسانا يكتب بأصابع رجله و آخر يمشي بيديه و قد تضرب غيرك برأسك فيزاحم به اليد التي هي آلة الضرب و لا كالإنسان الواحد الذي- يتولى بنفسه الطحن و العجن و الخبز و هذا نوع من الاعوجاج و العدول عن العدل- سببه اختلاف صفات الإنسان و اختلاف دواعيه فلم يكن وحداني الفعل و لذلك يرى الإنسان يعصي الله مرة و يطيعه أخرى و ذلك غير ممكن في طباع الملائكة لأنهم مجبولون على الطاعة لا مجال للمعصية في حقهم فلا جرم لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ و يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لا يَفْتُرُونَ و الراكع منهم راكع أبدا و الساجد منهم ساجد أبدا و القائم منهم قائم أبدا.

و هاهنا دقيقة يجب التنبيه عليها

و هي أن لأحد أن يقول إذا كان كل ملك من ملائكة الله موكلا على فعل واحد

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۳۱

لا يمكنه التعدي منه إلى غيره فيكون ناقص الجبلة لقصوره عن فعل الخيرات الكثيرة- و الجواب أن ذات كل ملك متصل بذات ما هو أشرف منه على وجه يقوم به و يحيا بروحه لكن لا على وجه التركيب و التمزيج الذين في الأجسام و كل منهم وحداني الذات وحداني الفعل و إن صدر عنه أنواع كثيرة من الأفعال لأن كثرتها على الترتيب الصدوري على وجه يكون بعضها تحت بعض على نسق و نظام لا يتغير أصلا و قد علمت أن الترتيب يجعل الكثير واحدا فيرتقي الأفعال منهم إلى فعل واحد يتشعب منه الأثر- و كذا الذوات ترجع كثرتها إلى ذات واحدة تتحد بها الذوات و كل ملك من الملائكة- حي عليم بحياة الملك الذي هو دونه و تحت أمره و تسخيره و علمه لا كأعضائنا التي لا شعور لها بذاتها و لا بما يصدر عنها و إنما نسبة الملائكة إلى من هي تحت أمره و طاعته- كنسبة قوانا الإدراكية إلى الروح العقلي منا حسبما بيناه من أن كلا من الحواس و صورها الحاضرة عند النفس حية بحياة النفس و مع ذلك لكل حس منها شأن غير شأن الحس الآخرة و لا اختلاط بينها و لا تشويش لأنها من الجنبة العالية و الجهات الفاعلية لا القابلية كالأعضاء و ما في حكمها.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۳۲

و لنرجع إلى ما كنا بصدده فنقول

قد امتاز الإنسان بهذه الصورة النباتية و الأعوان الذين خلقهم الله لإفادة التغذية- و التوليد من الأجساد المعدنية فصار أكمل وجودا من الحجر و البلور و الحديد و النحاس و الذهب و الفضة و غيرها إلا أن صورة النبات مع هذا الكمال ناقص- فإنه ربما لم يصل إليه غذاء ينساق إليه و يماس أصله فجف و يبس إذ لم يمكنه طلب الغذاء- و المشي إليه من الموضع الذي فيه إلى موضع آخر فإن الطلب إنما يكون بشيئين معرفة و قدرة و هما مفقودتان عنه فلو وقف وجود الإنسان في هذه الدرجة لكان ناقصا عاجزا في خلقته و فعله فانظر كيف رفعه الله عن هذا المنزل بصورة أخرى امتاز بها

عن النباتات– و ارتفع وجوده عن وجود الهاويات الساكنات و قرب بخطوة أخرى إلى رب الأرباب– و معدن الأنوار عن قعر عالم الظلمات بأن خلق له آلة الإحساس و آلة الحركة الاختيارية– في طلب الغذاء و هما المشار إليهما في الكتاب **فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً**.

ثم انظر إلى ترتيب حكمة الله في خلق الحواس الخمس فأولها اللمس و هذا أنقص درجات الحس فإنه الشعور بما يلامس الحيوان و يلاصقه لا بما يبعد منه فإن الشعور بما يبعد منه– يحتاج إلى حاسة أقوى و أتم و هذا يعم الحيوانات كلها و لدناءة بعض الحيوانات القريب المنزلة من النبات كالدود التي في الطين يقتصر على هذا و لا يقدر على طلب الغذاء فلو لم يخلق فيك إلا هذا الحس لكنت ناقصا كالدود فافتقرت إلى حس آخر لإدراك البعيد فخلق لك الشم إلا أنك لا تدري به أن الرائحة من أي ناحية جاءت لتطلب بها ذي الرائحة فتطوف كثيرا حتى تظفر به فأنعم الله عليك بحاسة البصر لكن لا تدرك بها ما يحتجب بجدار أو حائل آخر و أيضا لا تدرك بها إلا ما هو الموجود الحاضر و أما الغائب فلا يمكنك معرفته إلا بكلام و إعلام يدرك بحس السمع فاشتدت حاجتك إليه فانظر كيف أنعم عليك و ميزك بفهم الكلام عن سائر الحيوان و كل ذلك ما يغنيك لو لم يكن لك حس الذوق إذ يصل إليك الغذاء فلا تدرك أنه موافق أو مخالف فتأكله فتهلك كالشجرة ربما يصب في أصلها ما هو سبب جفافها و لا ذوق لها فتجذبه فتجف ثم جميع ذلك لا يكفي في الاستكمال و لا يتم به الحياة الإنسانية لو لم يكن لك إدراك باطني يتأدى

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۳۳

إليه صور المحسوسات الخمس للتحفظ و التذكر و إلا لطال عليك الأمر في معرفة الأشياء المحسوسة لو لم يكن صورتها محفوظة عندك فأنعم الله عليك بمشاعر أخرى باطنة لتحفظ بها صورة ما تحسه و تذكرها متى شئت و تتصرف فيها و هذا كله يشاركك فيه الحيوانات– و لو لم يكن لك إلا هذا لكنت ناقصا لعدم إدراك عواقب الأمور و غاياتها العقلية فميزك الله و فضلك على كثير من خلقه تفضيلا و شرفك تشريفا بقوة أخرى هي قوة العقل تدرك مضرة الضار و منفعة النافع في المال و تدرك الخيرات الحقيقية و الشرور الآجلة فهذا أنموذج في بيان ما أنعم الله عليك في باب الإدراك و أما بيان ما أنعمه عليك من القوى المحركة التي هي طائفة أخرى من جنود الله– و كيفية نظمها و ترتيبها فيك فهو أنه لو خلق المشاعر و المدارك حتى تدرك بها الأمور التي لها مدخل في استكمالك و حفظ بقائك ما دمت في الدنيا من أسباب التغذية و غيرها– حتى تدركها من بعد أو قرب و لم يخلق لك ميل في الطبع و شهوة له و شوق إليه يستحثك على الحركة ثم قدرة في آلات البدن يتحرك إليه لكان الإدراك معطلا فاضطررت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك يسمى شهوة و نفرة عما يخالفك يسمى كراهة فخلق فيك شهوة الغذاء لبقاء شخصك و شهوة النكاح لبقاء نوعك و وكلها بك كالمتقاضي يلجئك– إلى تناول الغذاء و غيره.

ثم هذه الشهوة لو لم تسكن إذا حصل مقدار الحاجة من المشتهي و المرغوب فيه لأسرفت و أهلكت نفسك فخلق الله لك الكراهة عند الشبع و نحوه لتترك الفعل كالأكل و نحوه لا كالزرع فإنه لا يزال تجتذب الماء إذا انصب في أسافله حتى يفسد فيحتاج إلى آدمي يقدر غذاءه بقدر الحاجة.

ثم إنك قد علمت أن لك قوة طبيعية بها تشارك النبات و هي منبثة في جميع البدن منبعها الكبد و قوة أخرى تشارك بها الحيوان منبثة في الأعضاء تشارك بها الحيوان كله

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۳۴

و منبعها القلب و قوة أخرى نفسانية أخص منها تشارك بها بعض الحيوان منبعها الدماغ- و أخرى أشرف مما سبق كله لا تشارك بها الحيوان بل الملائكة فقط فأعطاك الله بحسب كل منها أخذا و تركا للمنافع و المضار فاللذان بحسب القوة الأولى يسميان بالجذب و الدفع و اللذان بحسب القوة الثانية يسميان بالميل و النفرة و اللذان بحسب القوة الثالثة يسميان بالشهوة و الغضب و اللذان بحسب القوة الرابعة يسميان بالإرادة و الكراهة فخلقهما الله فيك مسخرتين تحت إشارة العقل المعرف للعواقب كما خلق الشهوة و الغضب مسخرتين تحت إدراك الحس فتم بهما انتفاعك بالعقل إذ مجرد المعرفة- بأن هذا يضرك و هذا ينفعك لا يكفي في الاحتراز عنه أو في طلبه ما لم يكن لك إرادة بموجب المعرفة أو كراهة و بهذه الإرادة أفردك الله عن البهائم إكراما و تعظيما لبني آدم كما أفردك عنها بمعرفة العواقب

الفصل (١٤) في عنايته تعالى في خلق الأرض و ما عليها لينتفع بها الإنسان

قال سبحانه **خَلَقَ لَكُمْ مٰا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً** فإذا عرفت العناية الإلهية في نفسك و بدنك فانظر إلى آثار رحمته عليك بما هو خارج عنك و أقرب الخارجيات إليك ما تستقر عليه فانظر إلى صورة الأرض التي هي مقر جسدك و أم بدنك الذي كان في بطنها أولا ثم تولد منها ثم يعود إلى بطنها تارة أخرى- كما قال تعالى **مِنْهٰا خَلَقْنٰاكُمْ وَ فِيهٰا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهٰا نُخْرِجُكُمْ تٰارَةً أُخْرىٰ** ثم انظر إلى منافعها.

منها كونها فراشا و مهادا

لتسكن إليها و تنام عليها و بساطا لتسلك فيها كما قال تعالى **جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرٰاشاً** و قال **وَ اللّٰهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسٰاطاً لِتَسْلُكُوا مِنْهٰا سُبُلاً فِجٰاجاً** و ليس من

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۳۵

ضروريات الافتراش أن يكون سطحا مستويا بل يسهل الافتراش على سطح الكره إذا عظم جرمها و تباعدت أطرافها و لكن لا يتم الافتراش و لا المشي عليها ما لم تكن ساكنه في حيزها الطبيعي و هو وسط الأفلاك و إليه الإشارة بقوله تعالى **اللّٰهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرٰاراً** لأن الثقال بالطبع تميل إلى تحت كما أن الخفاف تميل بالطبع إلى فوق و الفوق من جميع الجوانب ما يلي السماء و التحت ما يلي المركز.

و منها ما به من الله علينا

و هو أن لم يجعلها في غاية الصلابة كالحديد و الحجر لكي تنفصل عنها مادة الأغذية و يتأتى حفر الآبار و إجراء الأنهار و لا في غاية اللين و الانغمار كالماء ليسهل النوم و المشي عليها و أمكنت الزراعة و اتخاذ الأبنية منها.

و منها أن لم تخلق في نهاية اللطافة و الشفيف

ليستقر عليها الأنوار و يتسخن منها فيمكن جوازها.

و منها أن جعلها بارزة بعضها من الماء

مع أن طبعها الغوص فيه لتصلح لتعيشنا- و تعيش ما يحتاج إليه من الحيوانات البرية عليها و سبب انكشاف ما يبرز منها و هو قريب من الرابع إن جعلها الله بواسطة هبوب الرياح و جري الأنهار و تموج البحار غير صحيحة الاستدارة بل

جعلها و الماء الذي يجاورها بحيث إذا انجذب الماء بطبعه- إلى المواضع الغائرة و المنخفضة منها بقي شيء منها مكشوفا و صار مجموع الماء و الأرض بمنزلة كرة واحدة يدل على ذلك فيما بين الخافقتين تقدم طلوع الكواكب و غروبها للمشرقيين على طلوعها و غروبها للمغربيين و فيما بين الشمال و الجنوب- ازدياد ارتفاع القطب الظاهر للواغلين في الشمال و بالعكس للواغلين في الجنوب

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۳۶

و تركب الاختلافين للسائرين على سموت تكون بين السمتين إلى غير ذلك من الأعراض المختصة بالاستدارة كأحوال الخسوفات و الكسوفات و اختلاف آنات ابتدائها و انتهائها في الأخذ و الانجلاء بالقياس إلى أهل البقاع فابتداء خسوف معين بالقياس إلى موضع أول الليل و بالقياس إلى آخر بعده بساعة و بالقياس إلى آخر بساعتين و بالقياس إلى آخر ربع الليل أو ثلثه أو نصفه أو غير ذلك على نسبة مضبوطة بحسب تباعد المواضع بعضها عن بعض طولا و عرضا و يستوي في ذلك راكب البر و راكب البحر.

و منها الأشياء المتولدة منها

كالمعادن و النبات و الحيوان.

و منها جذبها للماء من السماء

لقوله **وَ أَنْزَلْنٰا مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنّٰاهُ فِي الْأَرْضِ**.

و منها العيون و الأنهار العظام

التي فيها لقوله تعالى **وَ الْأَرْضَ مَدَدْنٰاهٰا**.

و منها انصداعها بالنبات و غيره

وَ الْأَرْضِ ذٰاتِ الصَّدْعِ.

و منها حياتها و موتها

ليستدل بها الإنسان على موته و نشره تارة أخرى لقوله **وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنٰاهٰا** و قوله **فَأَحْيَيْنٰا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا كَذٰلِكَ النُّشُورُ** و قوله **فَانْظُرْ إِلىٰ آثٰارِ رَحْمَتِ اللّٰهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا إِنَّ ذٰلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتىٰ- وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** و قوله **وَ مِنْ آيٰاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خٰاشِعَةً فَإِذٰا أَنْزَلْنٰا عَلَيْهَا الْمٰاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيٰاهٰا لَمُحْيِ الْمَوْتىٰ إِنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**.

و منها تولد الحيوانات المختلفة

وَ بَثَّ فِيهٰا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ بعضها للأكل **وَ الْأَنْعٰامَ خَلَقَهٰا لَكُمْ فِيهٰا دِفْءٌ وَ مَنٰافِعُ وَ مِنْهٰا تَأْكُلُونَ** و بعضها للركوب و الزينة **وَ الْخَيْلَ وَ الْبِغٰالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهٰا وَ زِينَةً** و بعضها للحمل **وَ تَحْمِلُ أَثْقٰالَكُمْ إِلىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بٰالِغِيهِ إِلاّٰ بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ** و بعضها للتجمل و الراحة **وَ لَكُمْ فِيهٰا جَمٰالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ** و بعضها للنكاح **وَ اللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجاً** و بعضها للملابس

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۳۷

و البيت و الأثاث **وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعٰامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهٰا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقٰامَتِكُمْ- وَ مِنْ أَصْوٰافِهٰا وَ أَوْبٰارِهٰا وَ أَشْعٰارِهٰا أَثٰاثاً وَ مَتٰاعاً إِلىٰ حِينٍ.**

و منها نشو النباتات المتنوعة

وَ أَنْبَتْنٰا فِيهٰا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ فاختلاف ألوانها آية و رحمة و اختلاف روائحها هداية و لطف فمنها قوت البشر و منها قوت البهائم- **كُلُوا وَ ارْعَوْا أَنْعٰامَكُمْ ... مَتٰاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعٰامِكُمْ**.

و منها الطعام و الإدام

و منها الدواء-

و منها الفواكه

يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ- وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنٰابَ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرٰاتِ

و منها الكسوة للإنسان

نباتية كالقطن و الكتان- و حيوانية كالشعر و الصوف و الإبريسم و الجلود

و منها الأحجار المختلفة لونا و صفاء

وَ مِنَ الْجِبٰالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوٰانُهٰا وَ غَرٰابِيبُ سُودٌ فبعضها للزينة و بعضها للأبنية فانظر إلى الحجر الذي يستخرج منه النار مع كثرته و انظر إلى الياقوت الأحمر مع عزته ثم انظر إلى كثرة النفع بذلك الحقير- و قلة النفع بذلك الخطير.

و منها ما أودع فيها من المعادن الشريفة

كالذهب و الفضة ثم تأمل أن البشر استنبطوا- الحرف الدقيقة و الصنائع الجليلة و استخرجوا السمك من قعر البحر و استنزلوا الطير من أوج الهواء لكن عجزوا عن اتخاذ الذهب و الفضة و الحكمة فيه أن معظم فائدتهما يرجع إلى الثمنية و هذه الفائدة لا تحصل إلا عند العزة و الندرة و القدرة على اتخاذهما تبطل الحكمة- فلذلك ضرب الله دونهما بابا مسدودا و لهذا اشتهر في الألسنة أن من طلب المال بالكيميا أفلس.

و منها أن لها طبع الكرم و السماحة

تأخذ حبة واحدة و ترد سبعمائة كما ذكر في القرآن.

و اختلفوا من طريق النقل في أن السماء أفضل من الأرض أم الأرض من السماء

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۱۳۸

فقال بعضهم السماء أفضل لأنها معبد الملائكة و ما فيها بقعة عصي الله فيها لأن أهلها معصومون عن الخطاء و العصيان و لما أتى أبونا آدم بتلك المعصية أهبط من الجنة- و قال تعالى

: **لا يسكن في جواري من عصاني**

و قال **وَ جَعَلْنَا السَّمٰاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَ هُمْ عَنْ آيٰاتِهٰا مُعْرِضُونَ** و قال **تَبٰارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمٰاءِ بُرُوجاً** و غير ذلك من الآيات الدالة على تعظيمها و تعظيم ما فيها و قال آخرون الأرض أفضل لأنه تعالى وصف بقاعا بالبركة قال تعالى **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّٰاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبٰارَكاً** و قال **سُبْحٰانَ الَّذِي أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ**

إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بٰارَكْنٰا حَوْلَهُ و قال مَشٰارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغٰارِبَهَا الَّتِي بٰارَكْنٰا فِيهٰا و المراد بها الشام و وصف جملة الأرض بالبركة- وَ بٰارَكَ فِيهٰا وَ قَدَّرَ فِيهٰا أَقْوٰاتَهٰا فإن قيل و أي بركة في المفاوز المهلكة قلنا إنها مساكن خلق لا يعلمهم إلا الله فلهذه البركات قال وَ فِي الْأَرْضِ آيٰاتٌ لِلْمُوقِنِينَ.

و التحقيق أن زينة السماء بالكواكب و زينة الكواكب بالملائكة الروحانيين- و زينة الأرض بالصور و النفوس الحيوانية و زينتها بالأرواح الإنسية المستخدمة إياها و زينتهم بالمعارف الإلهية التي شاركوا بها الملائكة المقربين و ظاهر السماء أشرف من ظاهر الأرض و باطنهما بالعكس لأن الغاية أشرف العلل كما مر و من منافع الأرض أنها

الحکمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۳۹

كالصدقة و الدرة المودعة فيها آدم و أولاده ثم علم الله أصناف حاجاتهم فقال

: يا آدم- لا أحوجك إلى شيء غير هذه الأرض التي هي لك كالأم

قال أَنّٰا صَبَبْنَا الْمٰاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا الآية وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرٰاتِ رِزْقاً لَكُمْ*

: يا عبدي إن أعز الأشياء عندك الذهب و الفضة و لو أني خلقت الأرض منهما هل كان يحصل منها هذه المنافع ثم إني جعلت هذه الأشياء لأجلك في الدنيا مع أنها سجن لك فكيف الحال في الجنة

الفصل (۱۵) في بدائع صنع الله في الأجرام الفلكية و الأنوار الكوكبية

فإذا علمت أنموذجا من منافع الأرض فارفع الآن رأسك إلى السماء و انظر و تفكر في كيفية خلق السماوات و في كواكبها و في دورانها على نسق و انتظام و في طلوعها و غروبها و اختلاف مشارقها و مغاربها و دئوب شمسها و قمرها و مشتريها و زحلها في الحركة على الدوام و سعيها في عشق الله و طلب لقائه من غير فتور و لا تقصير و لا تغيير في المسير بل يجري جميعها في منازل مقدرة بحساب مضبوط و كتاب مرقوم و أجل معلوم كما قال وَ الْقَمَرَ قَدَّرْنٰاهُ مَنٰازِلَ لا يزيد على ذلك و لا ينقص إلى أن يطويها الله طي السجل للكتب.

فتدبر أيها العارف عدد كواكبها و كثرة دراريها و اختلاف ألوانها ثم انظر كيفية أشكالها مع أن ألوانها ليست من جنس هذه الألوان المستحيلة الفاسدة و أشكالها أرفع نمطا

الحکمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۴۰

من هذه الأشكال و كذا طعومها و روائحها و أصواتها على وجه أعلى و أشرف مما يلينا من هذه المحسوسات لكونها نازلة إلى الأرض منها فهي هناك ألطف و أصفى و أبسط و ما من صورة على وجه الأرض إلا و لها المثل الأعلى في السماوات و ما من كوكب إلا و لله حكم كثيرة في خلقه و صورته ثم في مقداره و شكله ثم في وضعه و نسبته إلى كوكب آخر و قربه و بعده من وسط السماء و قس تلك الحكم التي فيها على الحكم التي روعيت في أعضاء بدنك مع حقارته و أمر السماء أعظم و أجل من الإنسان بما لا يحصى- كما قال تعالى أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمٰاءُ بَنٰاهٰا.

بل من جملة ما في عالم الأرض و قس التفاوت فيما بينها من عجائب الترتيب- و حسن النظام و بديع الفطرة على التفاوت فيما بينهما في المقدار و اللطافة.

الحکمة المتعالیة فی الاسفار العقلیة الاربعة، ج۷، ص ۱۴۱

أما تأملت يا عارف في ملكوت السماوات و ملكها و ما فيها من الكواكب و قوام جوهرها و إشراق نورها و طاعتها للباري في الحركات عشقا و شوقا إلى المبدع- أ ما تسمع كلام الله في تعظيمها و تعظيم النجوم في كتابه فكم من سورة ذكر فيها عظم أمر السماء و جلالة قدرها و كم أقسم بها في القرآن كقوله تعالى **وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها** و قوله **وَ النَّجْمِ إِذا هَوى** و قوله **فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ** ثم أثنى على المتفكرين فيها **وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ** و ذم المعرضين عن التدبر فيها **وَ هُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ** و جعلها **سَقْفاً مَحْفُوظاً** و **رَفَعَ سَمْكَها** و حفظها من ولوج الشياطين لكونها معبد الملائكة و موضع القدس و الطهارة و أهلها أهل التسبيح و التقديس لا يدخل مسجدهم الحرام أرجاس الكفر و أوساخ الشرك من النفوس الخبيثة الشيطانية كما لا يدخل المشركون الأنجاس مساجد الأرض كما قال **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ** فانظر إلى ملكوت السماء لترى عجائب العز و الجبروت و أطل فكرك في الملك فعسى أن ينفتح لك أبواب السماء فتدخل الجنة و تخرج إلى عالم النور من هذه الهاوية المظلمة فتجول بقلبك في أقطارها إلى أن تقوم بين يدي عرش الرحمن فعند ذلك نرجو لك أن تبلغ رتبة الأقصى- و لا يكون ذلك إلا بعد مجاوزتك عن مراتب العالم الأدنى

ثم الدلائل الدالة على شرف عالم السماء أكثر من أن تحصى

و كذا منافعها بالقياس إلى الإنسان.

فمنها ما أشار إليه سبحانه من أن خلقها مشتمل على حكم بليغة و غايات صحيحة

بقوله **رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً** و قوله **وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا**

و منها أن زينها بالمصابيح

لقوله **وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ** و بالقمر

الحکمة المتعالیة فی الاسفار العقلیة الاربعة، ج۷، ص ۱۴۲

وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً و بالشمس **وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً**.

و منها أن سماها سقفا محفوظا و سبعا طباقا

و سبعا شدادا.

و منها أن جعلها مصعد الأعمال

و مرتقى الكلمات الطيبات و هي النفوس الكاملة بالعلم و العمل لقوله **مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ** و قوله **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**.

و منها أنها قبلة الدعاء و محل الضياء

و السناء و منها أهبط الله الأنوار و الألوان- إلى عالم الأرض و جعل ألوانها أحسن الألوان و أشكالها أحسن الأشكال و أصواتها أحسن الأصوات و نعماتها ألذ النعمات و جميع كيفياتها أحسن الكيفيات و أمكنتها أعلى الأماكن لارتفاعها عن الأضداد و أمنها من الفساد و منافع للعباد.

و منها أن جعلها علامات يهتدى بها في ظلمات البر و البحر

و إن قيض للشمس طلوعا- فسهل معه التقلب لقضاء الأوطار في الأطراف و غروبا يصلح معه الهدوء و القران في الأكناف- لتحصيل الراحة و انبعاث القوة الهاضمة و تنفيذ الغذاء إلى الأعضاء و للهرب عن الأعداء- كما قال **وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبٰاساً وَ جَعَلْنَا النَّهٰارَ مَعٰاشاً** و قال **وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً** و أيضا لو لا طلوع الشمس لانجمدت المياه و غلبت البرودة و الكثافة و أفضت إلى جمود الحرارة الغريزية و انكسارها و لو لا الغروب لحميت الأرض حتى يحترق كل من عليها من حيوان فهو بمنزلة سراج يوضع لأهل بيت بمقدار حاجتهم ثم يرفع عنهم ليستقروا

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۴۳

و يستريحوا فصار النور و الظلمة على تضادهما متظاهرين على ما فيه صلاح قطان الأرض.

قيل و هاهنا نكتة كان الله يقول لو وقعت الشمس في جانب من السماء جنوبي أو شمالي فالغني قد يرفع بناءه على كوة الفقير فلا يصل النور إليه لكني أدير الفلك و أسيرها حتى يجد الفقير نصيبه كما وجد الغني نصيبه و أما ارتفاع الشمس و انحطاطها فقد جعله الله سببا لإقامة الفصول الأربعة كما مر ففي الشتاء تغور الحرارة في الشجر و النبات فيتولد منه مواد الأغذية و الثمار و تقوى أبدان الحيوانات بسبب احتقاق الحرارة الغريزية في البواطن و في الربيع يتحرك الطباع و يظهر المواد المتولدة في الشتاء و يتنور الشجر و يورق و يزهر و يهيج الحيوان للفساد- و في الصيف يحتدم الهواء فتنضج الثمار و يتحلل فضول الأبدان و يجف وجه الأرض- و يتهيأ للعمارة و الزراعة و في الخريف يظهر البرد و اليبس فيدرك الثمار و تستعد الأبدان قليلا قليلا للشتاء و أما القمر فهو تلو الشمس و خليفتها و به يعلم عدد السنين و الحساب و يضبط المواقيت الشرعية للصلاة و الصيام و الحج و منه يحصل النماء و الرواء و قد جعل الله في طلوعه و غيبته و تشكلاته البدرية و الهلالية مصلحة كثيرة لا يعلمها إلا هو.

قال الجاحظ إذا تأملت في هذا العالم الذي نحن الآن فيه وجدته كالبيت المعد فيه كل ما يحتاج إليه فالسماء مرفوعة كالسقف و الأرض ممدودة كالبساط و النجوم منضودة كالمصابيح و الإنسان كمالك البيت المتصرف فيه و ضروب النبات مهياة لمنافعه و صنوف الحيوان منصرفة في منافعه.

و إني أقول إذا تأملت في عالم السماء بعظمها و كثرة كواكبها وجدت بيتا معمورا

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۴۴

من **بُيُوتٍ أَذِنَ اللّٰهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ** فيها أصناف العابدين فمنهم سجود لا يركعون و منهم ركوع لا ينتصبون و مسبحون لا يسأمون لا يغشاهم نوم العيون و لا فترة الأبدان و لا غفلة النسيان و ليس من شرط الدار أن لا يكون جسمانيا ذات حياة قال تعالى **وَ إِنَّ الدّٰارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوٰانُ** و ليس من شرط عمارة البيت المعمور- أن يكون بالطين و الحجر و الخشب قال تعالى **إِنَّمٰا يَعْمُرُ مَسٰاجِدَ اللّٰهِ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَقٰامَ الصَّلاٰةَ** بل و لا يشترط أن يكون بيت العبادة جسمانيا فكل ما يقوم فيه العبادة و الذكر و التسبيح و التقديس فهو بيت عبادة.

فانظر إلى صنع الباري جل ذكره كيف بنى السماء و جعلها معبدا للملائكة المسبحين المهللين الذاكرين الله و أمسكها من غير عمد ترونها و من غير حبل أو علاقة يتدلى بها- و العجب ممن لا ينظر و لا يتأمل في صنع بيت تولى الله بنيانه

بقدرته و انفرد بعمارته و زينه

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۴۵

بأصناف الزينة و صوره بأنواع التصاوير ناسيا ذكر ربه بسبب نسيان نفسه و عدم حضور قلبه مشتغلا ببطنه و فرجه ليس له هم إلا هم شهوته أو حشمته.

و العجب منه أنه متى دخل بيت غني فيراه مروقا بالصبغ مموها بالذهب- فلا ينقطع تعجبه و لا يزال يصف حسنه و يثني على من صنعه و صوره و تراه غافلا عن بيت الله العظيم و عن ملائكته الذين هم سكان سماواته فلا يلتفت إليه بقلبه و لا يعرف من السماء إلا بقدر ما يعرف البهيمة أن فوقها سطحا أو بقدر ما يعرف النملة من سقف بيته- و لا يعرف من ملائكة السماوات و لا من تصاويرها العجيبة إلا بقدر ما يعرف النملة من نفوس سكان البيت و نقوش تصاويرهم في حيطانه فما هذه الغفلة العريضة و ما هذا النوم الغالب على أكثر الناس و السكر

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۴۶

العظيم و الجهل المفرط و الشقوة المحيطة بهم فهلم أيها العارف نسبح و نقدس لربنا- فهلم يا أخا الحقيقة نقوم بالتهليل و التكبير ندعو قيم العالم و ناظم الملك و الملكوت- و رابط الناسوت باللاهوت و صاحب الكبرياء و الجبروت بقلب كئيب حاضر و لسان ذاكر و صدر منشرح بنور الذكر و المعرفة و دمع ساكب فبادر يا عارف بروح شيقة و نفس زكية عاشقة لربها راجعة إليه حتى تنادي ربنا نداء خفيا و نتضرع إليه في ظلم الليالي و ندعوه دعاء المحبين المتأوهين و نداء الخاشعين و نتضرع إليه تضرع المشتاقين

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۴۷

و خضوع المحتاجين المتذللين سبحانك لا إله إلا أنت خلصنا من عذاب نار الفرقة و ألم القطيعة يا محيي الأموات و باعث الأرواح من القبور الدارسات و معطي الخيرات و منزل البركات- أفض على نفوسنا لوامع بركاتك و على أرواحنا سواطع خيراتك يا من إذا تجلى لشيء خضع له يا من رش من نوره على ذوات مظلمة و هياكل غاسقة في ليال مدلهمة- فنورها و صورها و شوقها إلى جماله و ساقها إلى طلب لقائه يا من قذف بشعلة شوقه على السماوات فهيجها و رقصها و دورها و كل من فيها بالتعشيق و طوفها أسبوعا في كل سبعة آلاف سنة حول البيت العتيق خلصنا بنورك عن ظلمات القبور و لا تعذب أرواحنا بعلائق أشباح عالم الزور و معدن الغرور و ثبت أقدامنا على المنهج الأبلج القويم و الصراط الحق المستقيم إنك أنت الجواد الكريم و البر الرحيم.

فهذا أنموذج من دقائق عناية الله و لطفه في المخلوقات الظاهرة فإنه لا مطمع لأحد في معرفة دقائق أسرار اللطف و الرحمة في عالم غيبه و ملكوته الأعلى و لا في استقصاء بدائع الصنع و الحكمة في الموجودات التي تلينا في أعمار طويلة لأن علوم العلماء نزر حقير بالقياس إلى ما عرفه الأنبياء و الأولياء ع و ما عرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه المقربون من الملائكة و العليون من الإنس عند قيامهم عند الله ثم جميع علوم الملائكة و الجن و الإنس إذا أضيف إلى علم الله لم يستحق أن يسمى علما بل هو إلى أن يسمى دهشا و حيرة و عجزا و قصورا أقرب من أن يسمى معرفة و

حكمة إذ الحكمة بالحقيقة معرفة الأشياء كما هي عليه و قد سبق أن العلم بكل شيء بالذات هو نحو وجوده و لا يحيط بالأشياء إلا مبدعها و موجدها

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۴۸

فلا حكيم بالحقيقة إلا الله وحده و إطلاق الحكمة و المعرفة على غيره بضرب من المجاز و التشبيه و لهذا خوطب الكل بقوله تعالى وَ ما أُوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَليلاً

الفصل (١٦) في إثبات أن جميع الموجودات عاشقة لله سبحانه مشتاقة إلى لقائه و الوصول إلى دار كرامته

اعلم أن الله سبحانه قد قرر لكل موجود من الموجودات العقلية و النفسية و الحسية و الطبيعية كمالا و ركزنا في ذاته عشقا و شوقا إلى ذلك الكمال و حركة إلى تتميمه فالعشق المجرد عن الشوق يختص بالمفارقات العقلية التي هي بالفعل من جميع الجهات- و لغيرها من أعيان الموجودات التي لا تخلو عن فقد كمال و فيها القوة و الاستعداد عشق و شوق إرادي بحسبه أو طبيعي بحسبه على تفاوت درجات كل منهما ثم حركة تناسب ذلك الميل إما نفسانية أو جسمانية و الجسمانية إما كيفية كما في المركبات الطبيعية أو كمية كما في الحيوان و النبات خاصة أو وضعية كما في الأفلاك أو أينية كما في العناصر.

و البرهان على ذلك

إنك قد علمت أن الوجود كله خير و مؤثر و لذيذ

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۴۹

و مقابله و هو العدم شر و كريه و مهروب عنه و علمت أن الوجود نوع واحد بسيط في ذاته لا اختلاف فيه إلا أن له حدودا و درجات و هي منشأ اختلاف ماهيات الممكنات و أجناسها و فصولها فالوجود في نفسه لا يتفاوت إلا بالأكمل و الأنقص و الأشد و الأضعف و غاية كماله هو الواجب الحق لكونه غير متناهي الشدة في الكمال و لكل واحد من الموجودات المعلولية نصيب من ذلك الكمال فائض منه و له نقص بحسب حده في المعلولية فإن حقيقة الوجود بما هي حقيقة لا يقتضي النقص و لا التناهي و التجدد إذ لو اقتضت ذلك لما كان واجب الوجود غير متناهي القوة و القدرة فقد ثبت أن النقص و التناهي من لوازم المعلولية إذ المعلول لا يمكن أن يساوي علته في رتبة الوجود و إلا لم يكن أحدهما بالعلية أولى من الآخر.

فإذن كل ما لم يكن معلولا لشيء كالواجب تعالى فلا نقص فيه أصلا لكونه محض حقيقة الوجود و الخير فهو أعظم الأشياء بهجة و محبة لذاته و ما يلزم لذاته من الخيرات من حيث هي خيرات و كل ما كانت المعلولية فيه أكثر و الوسائط بينه و بين الحق المحض أكثر فهو أنقص و كل ما هو أقرب منه تعالى فهو أكمل و أتمفإذا ثبت هذا فلا يخلو شيء من الموجودات عن نصيب من المحبة الإلهية و العشق الإلهي و العناية الربانية و لو خلا عن ذلك لحظة لانطمس و هلك فكل واحد عاشق للوجود طالب لكمال الوجود نافر عن العدم و النقص و كلما هو مطلوب فإنما يمكن حفظه و إدامته بما هو تمامه و كماله فالمعلول لا يدوم إلا بعلته لكونها كماله و تمامه و الحرارة لا تنحفظ و لا تدوم إلا بحرارة

أقوى منها و النور لا يكمل إلا بنور أقوى منه و العلم الناقص الظني

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۵۰

لا يتم حتى يصير يقينا دائما لا يزول إلا ببرهان عقلي فكل وجود ناقص لا يصير كاملا إلا بما هو أقوى منه و هو علته و مديم ذاته و محقق هويته فالهيولى لا يتم إلا بصورتها- و الصورة لا تتم إلا بمصورها و الحس لا يتم إلا بالنفس و النفس لا تتم إلا بالعقل و العقل لا يبقى إلا بواجب الوجود فإذن كل ناقص يتنفر عن نقصه و ينزع منه إلى كماله و يتمسك به عند نيله فيكون كل شيء لا محالة عاشقا لكماله مشتاقا إليه عند فقده فالعشق حاصل للشيء دائما سواء في حال وجود كماله أو في حال فقد ذلك الكمال.

و أما الاشتياق و الميل فإنما يحصلان للشيء حال فقدان الكمال و لذلك كان العشق ساريا في جميع الموجودات و الشوق غير سار في الجميع بل يختص بما يتصور في حقه الفقد و نحن قد بينا مرارا أن الحياة سارية في جميع الموجودات لسريان الوجود فيها لأنا بينا أن الوجود حقيقة واحدة هي عين العلم و القدرة و الحياة و كما لا يتصور موجود بدون طبيعة الوجود مطلقا فكذا لا يتصور موجود لا يكون له علم و فعل- و كل ما يعلم و يفعل بأي وجه كانا فله حياة فالكل إذن حي عند العرفا إلا أن الجمهور إذا أطلق الحيوان فهموا منه ما له حس ظاهرة و حركة إرادية من مكان إلى مكان.

فإذا ثبت أن كل موجود سواء كان بسيطا أو مركبا فله حياة و شعور فلا محالة له عشق و شوق فإذا نظرت في الموجودات و درجاتها في الوجود و تأملتها وجدتها إما كاملة من كل وجه في نفس الأمر أو ناقصة بوجه من الوجوه و الكامل من كل وجه إما أن يكون كماله بنفسه مع قطع النظر عما هو وراءه حتى يكون نفسه و كماله شيئا واحدا من غير تغاير لا في الذات و لا في الاعتبار أو يكون كماله بما وراءه.

فالأول هو الواجب الوجود و الثاني هو الذوات العقلية فهذا النمط من الموجود الكامل بقسميه غير منفك عن العشق و العشق عين ذاته أما الواجب فهو عاشق لذاته فحسب

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۵۱

معشوق لذاته و لما سوى ذاته و أما الذوات العقلية فعاشقة له لا لذواتهم إلا من حيث كونها آثارا له تعالى فعشق ذواتهم لذواتهم مستهلك في عشقهم للأول كما أن نور وجودهم مضمحل- مستهلك تحت نور الأحدية فبالحقيقة هناك عشق واحد متصل ذو مراتب بعضها محيط بالبعض و الله من ورائهم محيط.

و أما القسم الثاني فهو إما مكتف بذاته و بعلة ذاته في خروجه من حد نقصه إلى كماله أو ليس كذلك.

و الأول هو النفوس الفلكية فهي واجدة للكمال من وجه فاقدة له من وجه فلها العشق و الشوق على الاتصال فلها لذة المواصلة و ألم المفارقة و لما لم يكن لذتها يختص بوقت و ألمها بوقت آخر بل لها ألم ممزوج بلذة و لأنه منبعث عن وجد العشق فيكون ألما لذيذا و لذا شبهت الحكماء حال تلك النفوس في أشواقها إلى كمالاتها العقلية- و معاشيقها الروحانية تشبيها بعيدا بحال من به حكة و دغدغة.

و الثاني إما أن يكون ناقصا من كل جهة أو من جهة دون أخرى و الثاني من الثاني إما أن يكون كماله في أصل الطبيعة

النوعية للجسم من غير فضيلة زائدة عليها- فهو أخس الأنواع الجسمانية كالعناصر الأربعة المتضادة لنقص جوهرها أو يكون كماله بأمر زائد على مجرد الطبيعة الجسمية فالقسم الأول لنقص جوهره يتأتى منها التركيب- أو عند التركيب يزول تضادها و يقبل ضربا آخر من الحياة يصدر بسببها حفظ البنية- عن استيلاء أحد الأضداد عليها مدة يعتد بها فإن وقع لصورتها الحافظة عن إفساد الأضداد- الاقتصار على هذه الكمال فهو الجماد و إن كان لها مع ذلك طلب الكمال الشخصي- في النشو و الدوام النوعي في التوليد فهو النبات إن اقتصرت على هذا و إن زاد عليه بإحضار صورة غير مادية في ذاتها و إدخالها منتزعة عن المواد في آلاتها و مشاعرها فهو الحيوان فإن الحيوان يتقوى بالإحساس و التخيل كما يتقوى النبات بالتغذي و النشو.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۵۲

و ظاهر أن كل واحد من هذه الموجودات الناقصة طالبة للكمال الذي يتم به وجوده فالصورة الحافظة للتركيب كمالها في أن تصير ذات قوة تزيد بها في مقدار شخصه بأن يجذب الغذاء و يحيله إلى جوهره المغتذي و يلصقه بأجزائه على نسبة لائقة- و يزيد بها في إعداد نوعه بالتوليد و إذا حصل هذا الكمال و بحسبه درجة من القرب إلى المبدإ المتعال الذي هو الغاية في الفضيلة من كل وجه حاول كمالا أتم من ذلك- و أقرب إلى الكمال الحقيقي من جميع الوجوه و هو كونه ذا صورة حساسة ثم متخيلة ثم ذاكرة ثم عاقلة للأشياء بالملكة بإدراك الأوليات ثم عاقلة لها بالفعل بإدراك الثواني النظريات ثم صائرة عقلا بسيطا فعالا للمعقولات ثم راجعة إلى الله تعالى راضية مرضية- كل ذلك بأشواق متتالية و أذواق متلاحقة كل عشق سابق علة للوصول إلى معشوق لاحق يكون غاية لذلك العشق السابق و هكذا إلى أن يصل إلى معشوق المعاشيق و غاية اللذات و الرغبات و منتهى الحركات.

و الأول من الثاني و هو ما يكون ناقصا من كل جهة كالهيولى الجسمانية فإنها في ذاتها قوة كل شيء لا قوام لها إلا بما تحلها من الصور فحقيقتها عين الحاجة و الافتقار- بل عين التشوق إلى كل صورة كمالية بالفعل و الشيخ الرئيس أنكر في طبيعيات الشفا- كونها مشتاقة إلى الصور كما هو المنقول عن المتقدمين غاية الإنكار ثم إنه قد اعترف بذلك في رسالته التي صنفها في العشق و كيفية سريانه في جميع الموجودات لكنه اقتصر في بيان كيفية عشقها بعدم عريها عن جميع الصور و بكونها دائمة التلبس بشيء من الصور و كذا اقتصر في كيفية عشق سائر البسائط العنصرية و المركبات المعدنية بميلها الطبيعي إلى إحيازها و في النباتات بما فيها من قوة التغذية و طلب الزيادة في الأقطار و قصد التوليد من غير أن يثبت لها شعورا و حياة.

و أنت تعلم أن إثبات العشق في شيء بدون الحياة و الشعور فيه كان مجرد

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۵۳

التسمية و نحن قد بينا في السفر الأول في مباحث العلة و المعلول عشق الهيولى إلى الصورة بوجه قياسي حكمي لا مزيد عليه و قد مر أيضا إثبات الحياة و الشعور في جميع الموجودات و هو العمدة في هذا الباب و لم يتيسر للشيخ الرئيس تحقيقه و لا لأحد ممن تأخر عنه إلى يومنا هذا إلا لأهل الكشف من الصوفية فإنه لاح لهم بضرب من الوجدان و تتبع أنوار الكتاب و السنة أن جميع الأشياء حي ناطق ذاكر لله مسبح ساجد له كما نطق به القرآن في قوله **وَ إِنْ مِنْ**

شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰكِنْ لاٰ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ و قوله **وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ** و نحن بحمد الله عرفنا ذلك بالبرهان و الإيمان جميعا و هذا أمر قد اختص بنا بفضل الله و حسن توفيقه فإن الذي بلغ إليه نظر الشيخ و هو من أعظم الفلاسفة في هذه الدورة الإسلامية

الحكمة المتعالية فی الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۵۴

في إثبات العشق في البسائط غير الحية عنده ما ذكره في تلك الرسالة بقوله إن البسائط غير الحية ثلاثة أحدها الهيولى الحقيقية و الثاني الصورة التي لا يمكن لها القوام بانفراد ذاتها الثالث الأعراض و الفرق بينها و بين هذه الصورة أن هذه الصورة مقومة للجوهر- و لذلك استحفظ الأوائل من الإلهين لأن يجعلوها من أقسام الجواهر لكونها جزءا للجواهر القائمة بذاتها و لم يحرموها سمة الجوهرية لأجل امتناع وجودها بمفرد الذات- إذ الجوهر الهيولاني هذا حاله و مع هذا لا يستنكر اعتداده من جملة الجواهر لكونه في ذاته جزءا للجواهر القائمة بذاتها بل و لها أعني الصورة مزية في الجوهرية على الهيولى- إذ هذه صورة بها يقوم الجوهر بالفعل جوهرا و مهما وجد أوجب وجود جوهر بالفعل و لأجل ذلك قيل إن الصورة جوهر بنوع فعل و أما الهيولى فهي معدودة مما يقبل الجوهرية- بل قوة إذ لا يلزم بوجود كل هيولى جوهر ما وجوده بالفعل و لأجل ذلك قيل إنها جوهر بنوع قوة فقد تقرر من هذا القول حقيقة الصورة و لا يحمل إطلاق هذه الحقيقة على العرض.

فإذا تقرر هذا فنقول إن كل واحد من البسائط غير الحية قرين عشق غريزي لا يتخلى عنه البتة و هو سبب له في وجوده و أما الهيولى فلديمومة نزاعها إلى الصورة مفقودة و تنوعها بها موجودة و لذلك تلقاها متى عريت عن صورة بادرت إلى الاستبدال عنها بصورة إشفاقا عن ملازمة العدم المطلق فالهيولى تنفر للعدم فمهما كانت ذات صورة لم يقم فيها سوى العدم الإضافي و لولاها للابسها العدم المطلق و لا حاجة بنا هاهنا إلى الخوض في لمية ذلك فالهيولى كالمرأة الدميمة المشفقة عن استعلان قبحها فمهما تكشف قناعها غطت دميمتها بالكم فقد تقرر أن في الهيولى عشقا غريزيا و أما الصورة

الحكمة المتعالية فی الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۵۵

فالعشق الغريزي فيها ظاهر لوجهين أحدهما بالجد في ملازمتها موضوعها و منافاتها انسلاخها عنه و الثاني بالجد في مواضعه الطبيعية متى حصلت فيها و حركتها الشوقية متى باينتها كصورة الأجسام البسيطة الخمسة و المركبات عن الأربعة و لا صورة ملازمة غير هذه الستة و أما الأعراض فعشقها ظاهر بالجد في ملازمة الموضوع أيضا و ذلك عند تلاحقها لأضدادها في الاستبدال للموضوع فإذن ليس يعرى شيء من هذه البسائط عن عشق غريزي بطباعه انتهى كلامه.

و لا يخفى على أحد من الأذكياء أن كلامه هذا في غاية الضعف و القصور فإن ما ذكره لا يفيد إثبات معنى العشق في هذه البسائط إلا على ضرب من التشبيه.

أما ما ذكره في عشق الهيولى فمجرد تشبيه و تخييل بلا تحصيل و تبديل بعض الألفاظ إلى لفظ يناسب هذه الدعوى كالنزاع و الإشفاق و المبادرة على أن ما ذكره من مبادرة الهيولى إلى الاستبدال عن صورة بصورة أخرى غير صحيح

أصلا إذ الهيولى جوهر قابل لا فعل لها أصلا و ليس من قبلها اقتضاء و طلب إلا القبول و الطاعة و قد أشرنا سابقا على المنهج الذي سلكناه في إثبات سريان العشق في جميع الموجودات إلى أن الهيولى في ذاتها عبارة عن نفس قوة الشوق و العشق و قبولهما لا أنها مشتاقة أو عاشقه بالفعل إلى شيء و إلا لكانت صورة بالفعل لا هيولى.

و أما ما ذكره في عشق الصورة من جدها في ملازمة الموضوع و جدها في ملازمة الموضع الطبيعي متى حصلت فيه و حركتها الشوقية إليه متى باينته فليس في ذلك أيضا ما يدل هذا المطلوب بحسب البيان العلمي إلا إيراد لفظ الجد و الشوق و هو من قبيل المصادرة على المطلوب فإن مجرد القيام بالموضوع لا يدل على العشق له و كذا السكون

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۵۶

في الحيز عند الوقوع فيه و الحركة إليه عند الخروج عنه لا يدل على الشوق إليه إلا إذا ثبت أن للطبيعة الجسمانية شعورا بذاتها و بفعلها و لم يذكر الشيخ في تلك الرسالة و لا في غيرها ما يثبت ضربا من الشعور فيها و على هذا القياس حال ما ذكره في عشق العرض للموضوع و ادعى فيه الظهور و هو من أخفى الأشياء و لو كان كل ملازمة شيء لشيء عشقا له إياه لكان جميع لوازم الماهيات و النسب و الإضافات عشاقا لموصوفاتها و كذا السطوح و الأطراف لمحالها المقدارية و اللازم بديهي البطلان.

و هاهنا دقيقة يجب التنبيه عليها

و هو أن الإلهيين الذين ذهبوا إلى سريان العشق في جميع الموجودات إنما أثبتوا لكل شيء عشقا و شوقا إلى ما هو ذاته أو كمال ذاته- لا إلى ما هو أدون منه و أنقص إلا على سبيل التبعية أو بالعرض لا بالذات.

فإذن الذي ذكره الشيخ من عشق الصورة لموضوعها أعني المادة ليس بشيء بل الحق أن كل طبيعة أو نفس أو قوة من القوى إذا فعلت شيئا فليس مقصودها أولا و بالذات نفس ما يصدر عنها من الأفاعيل و لا موضوعات تلك الأفاعيل بل معشوقها و

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۵۷

مقصودها ما هو أجل و أعلى رتبة من أفاعيلها و موضوعات أفاعيلها أعني به نفس الغاية أو نفس كونها على الوجه الأكمل فليس مقصود الطبيعة من تحصيل المادة نفس تلك المادة بل جعلها وسيلة إلى تحصيل كمال آخر إذ الطبيعة نفسها كمال للمادة لا المادة كمال لها فإنما تحصل الطبيعة المادة و تقومها لأن تبلغ بها إلى كمال فوق كماله و كذا النفس لا تدبر البدن و لا تنشىء الآلات البدنية عشقا للبدن و الآلات و إنما تفعل ذلك عشقا لذاتها و تشوقا إلى نيل كمالها.

و بالجملة من سلك مسلك العرفاء الإلهيين في هذا المقام ينبغي له أن يرتب عشق الموجودات على ترتيب و نظام يؤدي و ينساق كل عشق للسافل إلى عشق للعالي على الوجه الأتم الأكمل و هكذا إلى أن ينتهي إلى عشق واجب الوجود حتى يلزم أن جميع الأشياء عاشقة له مشتاقة إلى لقائه و كذا لا بد أن يكون كل عشق للعالي عشقا للسافل لا على سبيل القصد و الاستكمال بل على سبيل التطفل و الاستجرار و الترشح.

فإذن لما كان تمام الجسم بالطبيعة فلا جرم يعشق تمامه الذي هو الطبيعة و تمام الطبيعة بالنفس المدبرة لها فلا جرم

يعشقها و تمام النفس بالعقل فتعشقه و تمام العقل بل تمام الكل بالواجب تعالى فيعشقه العقل و يتم به الكل بل هو الكل في وحدة و هو مبتهج بذاته لا بغيره إذ لا غير و لا ند و لا شريك له و هو العزيز القهار و هو القاهر فوق عباده و الله من ورائهم محيط فينطوي في عشقه لذاته عشقه لجميع الأشياء كما ينطوي في علمه بذاته علمه بجميع الأشياء و قد مر في مباحث العلم كيفية هذا الانطواء- على وجه لا يؤدي إلى انثلام في وحدته الحقة فجميع الأجرام العلوية و السفلية منطوية- تحت شوق النفوس إلى ذواتها و إلى ذوات كمالاتها العقلية و كذا شوق النفوس إلى ذواتها و كمالاتها منطو تحت عشق العقول لمبدإها الأعلى و عشق العقول لمبدإها الأعلى منطو تحت بهاء النور الأول و الخير الأتم و الجمال الأعظم و الجلال الأرفع لأنه مرجع الكل و غاية الكل

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۵۸

الفصل (۱۷) في بيان طريق آخر في سريان معنى العشق في كل الأشياء

اعلم أن قدماء الفلاسفة ذكروا وجها آخر لميا عاما في هذا المطلب فقالوا إن جميع الهويات و الموجودات كما لم يكن وجودها من ذاتها بل من عللها الفياضة- فكذلك كمالاتها مستفادة من تلك العلل و لما لم يكن تلك العلل قاصدة لإيجاد شيء من معلولاتها و لشيء من كمالاتها و لا التفات للعالي بالنسبة إلى السافل و لا بالنسبة إلى كماله فوجب في الحكمة الإلهية و العناية الربانية و حسن التدبير و جودة النظام أن يكون في كل موجود عشق ليكون بذلك العشق حافظا لما حصل له من الكمالات اللائقة و مشتاقا إلى تحصيلها عند فقدانها فيكون ذلك سببا للنظام الكلي و حسن الترتيب في التدبير الجزئي و هذا العشق الموجود في كل واحد من أعيان الموجودات يجب أن يكون لازما لها غير مفارق عنها إذ لو جازت مفارقته عنها لافتقرت إلى عشق آخر ليكون حافظا للعشق الأول الذي- فرض أن به ينحفظ كمال وجودها عند وجوده و مستردا له عند عدمه و ذلك العشق إن لم يكن لازما فيحتاج إلى عشق آخر و يتسلسل و إن كان لازما فيصير أحد العشقين معطلا و ذلك محال فعلم أن العشق سار في جميع الموجودات و أجزائها.

هذا ما قالوه و هو جيد إلا أن الذي أشرنا إليه أجود و أحكم و اللمية فيه أتم فإنا قد أشرنا إلى أن الوجود حقيقة واحدة في الكل متفاوت بالأتم و الأنقص و أن المعلول من سنخ حقيقة العلة و العلة تمام المعلول و قد ثبت أيضا أن الوجود خير

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۵۹

لذيذ فكل واحد يعشق ذاته و كمال ذاته لكن كمال ذاته يتم بعلته و إذا كان كمال ذاته يتم بما هو بعينه علته و مفيض وجوده فإذن العلة المفيدة و إن لم تكن قاصدة لمعلولها و لا ملتفتة أيضا لمعلولها لعلو ذاتها عن ذات المعلول لكنها لا محالة عاشقة لنفسها مريدة لذاتها و ذاتها بعينها هي كمال المعلول و تمامه و المعلول من لوازم هذه التمامية التي هي بعينها ذات العلة فلأجل ذلك- ينحفظ كل معلول بعشق علته و ينتظم كل سافل بعشق ما فوقه فلو لم يكن بين العالي و السافل هذا النحو من الارتباط لم ينحفظ الموجودات و لم يبق النظام على هذه النحو من التمام بل يختل النظام و يتطرق الفساد و الهرج و المرج فثبت أنه لم يكف لنظام العالم مجرد عشق كل واحد لذاته و لا أيضا كفى للنظام عشقه لكمال ذاته لو لم يكن ذلك الكمال بوجود علته حتى يكون عشقه لكمال ذاته و تمامه بعينه عشقا لعلته المفيضة لذاته و أيضا الشيء لا يجوز أن يكون حافظا لنفسه كما لا يجوز أن يكون موجدا لنفسه و إلا لزم تقدمه على نفسه- إذ لا

معنى للحفظ إلا الإدامة و الإبقاء و الشيء الممكن كما يفتقر في حدوثه إلى علة هي

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۶۰

غيره كذلك يفتقر في بقائه إلى علة هي غير ذاته فلا معنى لكون الشيء حافظا لكماله- بل الأمر بالعكس أولى لأن كمال كل شيء بما هو مقوم ذاته و محصل مادته و منوع جنسه.

فعلم من جميع ذلك أن العشق الحافظ لكل معلول هو عشقه لعلته الذي هو عبارة عن انتساب وجوده إليها و ارتباطه بها فبهذا الانتساب أعني الوجود الانتسابي- ينحفظ هوية المعلول و يتم بقاؤه بمفيد وجوده و مكمل ذاته و هذا معنى قولهم لو لا عشق العالي لانطمس السافل.

و علم بما قررنا أن العشق سار في جميع الموجودات على ترتيب وجودها فكما أنه نشأ من كل وجود أقوى وجود أضعف حتى انتهى إلى وجود المواد و الأجسام فكذا ينشأ من كل عشق أسفل عشق أعلى حتى ينتهي إلى عشق واجب الوجود فجميع الموجودات بحسب ما لها من الكمالات اللائقة طالبة لكمالات واجب الوجود لذاته متشبهة به في تحصيل ذلك الكمال فالباري تقدست أسماؤه هو غاية جميع الموجودات و نهاية مراتبها- فالعشق و الشوق سبب وجود الموجودات على كمالاتها الممكنة لها و سبب دوامها- و لو لا العشق و الشوق ما أمكن حدوث حادث للعالم الجسماني و لا تكون متكون في عالم الكون و الفساد

الفصل (۱۸) في بيان أن المعشوق الحقيقي لجميع الموجودات و إن كان شيئا واحدا في المال

و هو نيل الخير المطلق و الجمال الأكمل إلا أن لكل واحد من أصناف الموجودات معشوقا خاصا قريبا يتوسل بعشقه إلى ذلك المعشوق العام قد أوضحنا فيما سبق أن جميع الموجودات متوجهة إلى طلب الحق الأول توجها

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۶۱

غريزيا على ترتيب و نظام فهي عاشقة للوصول إليه و لنيل ذاته على الترتيب من الأدنى إلى الأعلى و من أخس الأحوال إلى أشرفها و كما أن جميع الموجودات طالبة للخير المطلق عاشقة للموجود الحق على الترتيب فكذلك الخير المطلق و المعشوق الحق متجل لعشاقه إلا عن قبولها لتجليه و نيلها لنور جماله على التفاوت و إن غاية التقرب منه هو قبول تجليه الحقيقي بلا متوسط كمرآة يتجلى فيه صورة الشخص المطلوب- بلا توسط مرآة آخر و هذا حال المعلول الأول و العقل الكلي و أما ما نال غيره من ذلك الجمال- فهو بمنزلة من يرى صورة معشوقه بتوسط مرآة واحدة أو مرائي متعددة غير مرآة بصره- و لكن مع ذلك ما وقع التجلي إلا لذلك المعشوق الحقيقي لا للمرائي إذ المرآة عدمية لا صورة لها و ليست الصورة إلا للشخص فما وقع التجلي إلا من الشخص و إن تعددت المرائي- إلا أن تعدد المرائي و كثرة الوسائط القابلة يؤثر في خفاء الصورة و قلة ظهورها و ضعف تأثر القابل عن إشراق نورها و هكذا حال الممكنات في قبولها لتجلي الحق الأول- و استفادتها عن نور جمال الله و شروق جلاله إذ ليس لغيره تأثير و لا لشيء عن غيره تأثر و ما أمره إلا واحد و ليس فعله إلا متشابه و لا تجليه إلا تجل واحد لكل قبول البعض لأثر تجليه أقوى من بعض آخر لضرورة الترتيب بين الأشياء في القرب و البعد منه تعالى فالأقرب يستضيء بنور تجليه أقوى و أتم مما يستضيء به الأبعد- قال الشيخ الرئيس في تلك الرسالة العشقية إن كل منفعل ينفعل عن فاعله- بتوسط مثال يقع من الفاعل فيه و كل فاعل

إنما يفعل في قابل الانفعال عنه بتوسط مثال واقع منه فيه و بين ذلك بالاستقراء فقال فإن الحرارة النارية إنما تفعل في جرم من الأجرام بأن تضع فيه مثالها و هو السخونة و كذلك سائر القوى من الكيفيات و النفس الناطقة إنما تفعل في نفس ناطقة مثلها بأن تضع فيها مثالها إلى آخر كلامه.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۶۲

أقول و كان الشيخ لم يظفر بالبرهان الذي أشرنا إليه في بيان هذا المطلب- حيث اكتفى في بيانه بالاستقراء ثم قال إن العقل الفعال يقبل التجلي بغير توسط و هو بإدراكه لذاته و لسائر المعقولات فيه عن ذاته بالفعل و الثبات و ذلك أن الأشياء التي تتصور المعقولات بلا روية و لا استعانة بحس أو تخيل إنما تعقل الأمور المتأخرة بالمتقدمة و المعلولات بالعلل و الردية بالشريفة ثم يناله النفوس الإلهية بلا توسط أيضا عند النيل و إن كان بتوسط إعانة العقل الفعال عند الإخراج من القوة إلى الفعل و إعطائه القوة على التصور و الإمساك للمتصور و الطمأنينة إليه ثم ينالها القوة الحيوانية ثم النباتية ثم الطبيعية و كل واحدة مما يناله يشوقه ما ناله منه إلى التشبه به بغايته فإن الأجرام الطبيعية إنما يتحرك حركاتها الطبيعية تشبها به في غايتها و هي البقاء على بعض الأحوال أعني عند حصولها في المواضع الطبيعية و إن لم تتشبه به في مبادي هذه الغاية و هي الحركة- و كذلك الجواهر الحيوانية و النباتية إنما تفعل أفاعيلها الخاصة بها تشبها به في غاياتها- و هو إبقاء نوع أو شخص أو إظهار قوة و مقدرة و ما ضاهاها و إن لم يتشبه به في مبادي هذه الغايات كالجماع و كالتغذي و كذلك النفوس البشرية إنما تفعل أفاعيلها العقلية

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۶۳

و أعمالها الخيرية تشبها به في غاياتها و هي كونها عاقلة عادلة و إن لم تكن متشبهة به- في مبادي هذه الغايات كالتعلم و ما شاكله و النفوس الإلهية إنما تحرك تحريكاتها- و تفعل أفاعيلها تشبها به أيضا في استبقاء الكون و الفساد و الحرث و النسل و العلة في كون القوى الحيوانية و النباتية متشبهة به في غايات أفاعيلها دون مباديها لأن مباديها إنما هي أحوال استعدادية قوية و الخير المطلق منزه عن مخالطة الأحوال الاستعدادية القوية و غاياتها كمالات فعلية و العلة الأولى هو الموصوف بالكمال الفعلي المطلق فجاز أن يتشبه به في الكمالات الغائية و امتنع أن يتشبه به في الاستعدادات المبدئية انتهى كلامه.

تذكرة

إن الحكمة الإلهية و العناية الربانية قد ربطت أطراف الموجودات بعضها ببعض ربطا حكيما و نظمها نظما عقليا تأحديا كما أوضحنا سبيله من أن الموجودات لما كان بعضها معلولات و منها أولا و منها ثواني فارتكزت في جبلة المعلولات نزوع نحو علاتها و اشتياق إليها و جعلت في جبلة علاتها رأفة و عطوفة على معلولاتها كما يوجد ذلك في الآباء و الأمهات على الأولاد و من الكبار على الصغار و من الأقوياء على الضعفاء- و ذلك لشدة حاجة الضعفاء إلى معاونة الأقوياء و السر في ذلك ما أشرنا إليه من أن الجنس يحن على الجنس و أن المعلول كأنه جزء من علته و أن العلة كأنها تمام لمعلولها- و هكذا حال كل محتاج و محتاج إليه فالفقير يتشبث بالغني و يشتاق إليه و الغني يرحمه و يجود من فضله عليه.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۶۴

و اعلم أن العشق أقسام و المحبة متشعبة

و المحبوبات كثيرة لا تحصى حسب تكثر الأنواع و الأشخاص.

فمن أنواع المحبة محبة النفوس الحيوانية للنكاح و السفاد

لما فيه من حكمة بقاء النسل و حفظ النوع.

و منها محبة الرؤساء للرئاسات

و حرصهم على طلبها و مراعاتهم لرسومها و محافظتهم عليها كأنها شيء مجبول في طباعهم مركوز في نفوسهم و الحكمة فيها طلب الاستعلاء للنفس على قواها التي تحت تسخيرها فإن الأفعال الاختيارية بمنزلة تقليد الأفعال الطبيعية- و الفاعل بالصناعة يحتذي في صنعته للفاعل بالغريزة و لهذا قيل الصنعة تشبه بالطبيعة- فلو لم يكن محبة العلو و الرفعة مرتكزة في جبلة النفوس لما أحب أكثر الناس كونه رئيسا مطاعا في قومه و لما كان شديد الحرص في ذلك.

و منها محبة التجار و المتمولين

لكسب المال و حرصهم على الجمع و الادخار و حفظ النقود و الأمتعة و اختزانها كأنه شيء مجبول في طبائعهم مركوز في نفوسهم لما فيه من الصلاح لغيرهم و من يأتي بعدهم.

و منها محبة العلماء و الحكماء لاستخراج العلوم و تدوينها

في الكتب و نشرها و البحث عن غوامضها و كشف أسرارها و تعليمها للمتعلمين و إظهارها على المستعدين- كأنه شيء مجبول في طباعهم مركوز في نفوسهم لما فيه من إحياء النفوس و بعثها

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۶۵

من موت الجهالة و قبر الطبيعة و تنبيهها من رقدة الغفلة و نوم النسيان.

و منها محبة الصناع في إظهار صنائعهم

و حرصهم على تتميمها و شوقهم إلى تحسينها و تزيينها كأنه شيء غريزي لهم لما فيه من مصلحة الخلق و انتظام أحوالهم.

و اعلم أن النفوس كلما كانت أشرف و أعلى كانت محبوباتها و مرغوباتها ألطف و أصفى

و أزين و أبهى و الذي ينبهك على هذا الأمر أن القوى النباتية رءوسها ثلاثة أحدها قوة التغذية و الثاني قوة التنمية و الثالث قوة التوليد فكذلك العشق الخاص بالقوى النباتية على أقسام ثلاثة أحدها يختص بالقوة المغذية و هو مبدأ شوقها إلى حضور الغذاء- عند حاجة المادة إليه و بقائه في المتغذى بعد استحالته إلى طبيعته و الثاني يختص بالقوة المنمية و هو مبدأ شوقها إلى تحصيل الزيادة الطبيعية المتناسبة في أقطار المغتذي- و الثالث يختص بالقوة المولدة و هو مبدأ شوقها إلى تهيئة مبدإ الكائن مثل الذي هو فيه من نوعه.

و من البين أن هذه الأفاعيل الصادرة عن قوى النفس النباتية ليست صادرة عن مجرد اتفاق أو جزاف بل هي لغايات و

أغراض ملائمة لها و خيرات موافقة لطبائعها و كل من تأمل فيها يعلم أنها صادرة عن ميول و قصود فيها فهي إذن عاشقة لتلك الغايات و هي متممة لمباديها و مكملة لها و مخرجة إياها عن النقص إلى الكمال و عن القوة إلى الفعل.

ثم إذا نظرت إلى قوى الحيوان الذي نفسه أشرف من نفس النبات وجدتها تصدر عن بعض قواها الشهوانية و هي الثلاث النباتية من قوة التغذية و قوة التنمية و قوة التوليد- ما يصدر عن تلك القوى الثلاث التي تكون في النبات لكن على وجه ألطف و أبهى- و ذلك لأن القوة الشهوانية الحيوانية أظهر الموجودات عند الجمهور عشقا و شوقا و ليس معشوق هذه القوة في عامة الحيوان ما سوى الناطق إلا معشوق القوى النباتية بعينها إلا أن عشق القوة

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ١٦٦

النباتية لا يصدر عنها الأفاعيل إلا بنوع طبيعي و بنوع أدنى و أدون و أما عشق القوة الحيوانية- فإنما يصدر عنه الأكل و الجماع و التوليد على نحو الإرادة و الاختيار و بنوع أعلى و ألطف و مأخذ أحسن و أفضل و لذة أتم و شوق أكمل و باستعمال من الحس و إعانة من التخيل- و لا شبهة في أن فعل التخيل أفضل من فعل الحس و فعل الحس أفضل من فعل الطبيعة فإن قوة الخيال ينال صورة ما يعشقه مجردة عن هذا العالم الظلماني صافية عن كدوراتها آمنة عن الفساد و العدم ما دام يحفظها الخيال و يلتفت إليها فإذا ذهلت عنها بسبب شاغل من خارج أو داخل غابت و زالت لا على نحو الفساد و كذا قوة الحس تنال صورة المحسوسة المعشوقة لها منتزعة عن المادة إلا أنه يشترط فيها حضور المادة بوضعها و أما الطبيعة فلكونها مستغرقة في بحر الهيولى لا يمكنها تجريد معشوقها عن المادة بوجه من الوجوه و إحضاره عند ذاتها إلا مخلوطة بالأغشية الظلمانية و الأعدام الهيولانية المغرقة لذاتها و لذات ما يناله من الأغذية و غيرها.

ثم الحيوان غير الناطق و إن كانت أفاعيله أفضل و أحسن من أفاعيل النبات- و معشوقاته أنور و أشرف من معشوقات النبات مع كونها مشتركة بينهما فيما يتعلق بالشهوة دون الغضب كما علمت إلا أنه لانحطاط رتبته عن رتبة الحيوان العاقل و عدم فوزه بالقوة النطقية التي يقع بها الاطلاع على الأمور الكلية و الغايات العقلية لا يسعد بإدراك الغرض العقلي و الخير الحقيقي و الغاية الكلية في فعل من الأفعال بل شوقه مقصور على نيل الأمور الجزئية و اللذات الفانية فلذلك صارت فيه قوته الشهوانية- مشاكلة للقوة النباتية في اقتصاره على هذه الغرض الشخصي و العشق الجزئي.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ١٦٧

و أما الذي يترتب على أفعاله و شهواته من تبعية الأشخاص و أداته الأنواع و إصلاح النظام فذلك أمر يصدر من فاعل أجل و أعلى لغاية أرفع و أبهى و ينوط بعناية الله و ملائكته المدبرين لأمور الخلائق على أحكم ترتيب و أجود نظام.

و أما إذا انضمت إلى كل واحدة من القوى الحيوانية قوة أعلى منها في الشرف- فازت بانضمام تلك القوة الشريفة إليها بزيادة حسن و بهاء و زينة حتى يصير بذلك أفعالها البارزة عنها أدوم غاية و أحكم منفعة و أرفع منزلة على ما يكون لها بانفرادها و أكثر آثارا إما بالعدد أو بالقوة و الشدة و بحسن الاتفاق و لطف المأخذ و سهولة التوخي في الانتهاء إلى الغرض إذ كل واحد من عاليها لها قوة على تأييد السافل و تقويته و تهذيبه عن الشرور و المفسدات و دفع ضرر المضادات فيقبل الأدنى من الأعلى زيادة كمال و رونق.

و كذلك تصريفات الأعالي للأسافل و استخدامها إياها في وجوه الأغراض مما يفيدها الحسن و السناء و الزينة و البهاء كتأييد القوة الشهوانية من الحيوان القوة النباتية و ذب الغضبية الحيوانية عنها من أن ينقص مادتها دون البلوغ إلى منتهاها في الذبول و الاستضرار و كتوفيق القوة النطقية للحيوانية في مقاصدها و كإفادتها لها اللطافة و البهاء في الاستعانة بها في أغراضها و لأجل ذلك ما توجد القوة الحسية و الشوقية- التي في الإنسان بحيث قد يتعدى طورها في أفعالها عن مسلك البهيمة إلى شبه طور الملائكة العلوية و قد يتعاطى في أفاعيلها أغراضا و دواعي لا يتعاطاها إلا صريح القوة العقلية.

مثال ذلك ما يشاهد من الإنسان أنه قد يصدر عن مفرد نفسه الحيوانية أفعال و انفعالات كالإحساس و التخيل و الأكل و الجماع و المحاربة مع الأعداء كل ذلك بنوع أخس و أدنى إذا لم يقع تحت تدبير النفس الشريفة العقلية كما هو شأن أراذل الناس و أدانيهم الذين هم قريب الشبه بالبهائم و السباع و أما إذا اكتسبت بمجاورة النفس النطقية من

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۶۸

البهاء و النور و اللطف فيصدر عنها هذه الأفاعيل بنوع أحكم و أتم و أشرف و أعلى فيستأثر الإنسان العقلي من المحسوسات ما كان على أشرف مزاج و أعدل تركيب قاصدا بذلك تقوية للبدن في فعل الطاعات الإلهية و إبقاء للشخص في طلب الخيرات و اقتناء الفضائل- و كذلك يتصرف بقوته المتخيلة في أمور لطيفة نافعة في العاقبة حتى يكاد يضاهي بذلك- ما يقتضيه صريح العقل و العرفان و يحتال في استعمال القوة الغضبية حيلا يسهل معها الظفر بالمطلوب و الغلبة على العدد.

و قد يظهر أيضا عن جوهر ذاته آثار و أفعال بعضها بحسب اشتراك من النطقية و الحيوانية كتصريف قوته العقلية قوته الفكرية في الاستنباطات الدقيقة و طلب الحدود الوسطى و المبادي البرهانية و الحدية و كتصريفها لقوة الحسية لينتزع من الماديات صورها المحسوسة الجزئية حتى ينتزع بطريقة الاستقراء لتلك الجزئيات الشخصية أمورا كلية و صورا عقلية بالقوة المتخيلة حتى يتوصل من أوائل المعقولات إلى ثوانيها و ينال غرضه من إدراك الحقائق العقلية و أصول الموجودات الخارجية و المبادي القدسية و عرفان ما هو مبدأ المبادي و مرجع كل شيء و كتكليفه القوة الشهوانية المباضعة و المجامعة لأجل مجرد اللذة و نيل الشهوة الحيوانية- بل للتشبه بالعلة الأولى في استبقاء الحرث و النسل و حفظ الأنواع و خصوصا أفضلها أعني النوع الإنساني الذي هو ثمرة عالم الخلق و التركيب و زبدة المواد و الأجساد- و كتكليفه إياها تناول الأغذية لا كيف اتفق بل على الوجه الأصوب من القصد إلى نيل اللذة و لكن كعلف الدابة المركوبة و إعانة الطبيعة المسخرة للنفس الحاملة لأثقالها- و أحمالها في سفر الآخرة و المهاجرة إلى الله و كتكليفه القوة الغضبية منازعة الأبطال- و مباشرة القتال و مقاومة الرجال لأجل الذب عن مدينة فاضلة و أمة صالحة.

و قد يصدر منه أفاعيل عن صميم قوته العقلية مثل تصور المعقولات و الاتصال- بالملإ الأعلى و حب الموت و الاشتياق إلى الدار الآخرة و قرع باب الرضوان و مجاورة الرحمن

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۶۹

الفصل (۱۹) في التنبيه على إثبات الصور المفارقة التي هي مثل الأصنام الحيوانية و النباتية و مدبراتها

الكلية من هذا المأخذ

اعلم أنك إذا تدبرت في مراتب الإنسان و ترقياته من حدود النفوس النباتية و الحيوانية- إلى حد النفس النطقية و إلى تفاوت أفراد البشر في أغراضهم حيث إن بعض الناس لا يفعل فعل الشهوة و الغضب و لا غرض له في ذلك إلا لذة الأكل و الشرب و النكاح و لذة الغلبة على العدو و الظفر على مجرد الانتقام و التشفي عن الغيظ و الحقد من غير أن يلحظ في جميع ذلك- مصلحة حكمية و غاية عقلية مع أنه معلوم عند الحكماء بالنظر العقلي و النهج البرهاني- أن الغرض الأصلي من العناية الربانية في خلق هذه القوى النباتية و المشاعر الحيوانية- ليس مقصورا على مجرد ما انتهت إليه حركاتها و حصلت به أغراضها الجزئية بل لتأديتها إلى أغراض أخرى أرفع من تلك الأغراض و هي بقاء الأنواع و حصول النظام على وجه التمام و الانتهاء إلى الخير الأقصى و الملكوت الأعلى كما يقصده الإنسان الكامل لعلو نفسه الناطقة ثم إذا نظرت إلى أفاعيل الطبائع الجمادية و النباتية وجدتها مؤدية- إلى حسن النظام و مصلحة الكل مع عدم شعورها بذلك لكون درجتها أدون من درجة الحيوانات التي ليس قصدها في صدور الأفاعيل منها إلا تحصيل ما يلائم شهوتها الجزئية- فعلم من هذا النظر الدقيق أن لكل من تلك الطبائع الجسمانية مدبرا آخر فوق طبائعها العديمة الشعور بما يترتب على أفاعيلها من مصلحة النظام و فوق النفوس الحيوانية الجزئية التي لا شعور لها إلا بما يلائم هوياتها الجزئية و لذاتها المستحيلة الزائلة فهي لا محالة مدبرات عقلية و محركات قدسية لأغراض علوية ففعل الإنسان الكامل بقوة

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۷۰

نفسه العالية الشريفة في تدبير البدن و تحريك القوى الطبيعية و النفسانية مضاه لفعل تلك المدبرات العقلية في تحريكات تلك الطبائع الجسمانية إلى أماكنها المخصوصة عند الخروج عنها و تسكيناتها في تلك الأحياز عند الوقوع فيها و كذلك في سائر أفاعيلها المخصوصة من تسخين النار و تبريد الماء و تغذية الأشجار و نشوها و توليدها للأمثال- و ما يجري مجرى هذه الأفعال الصادرة عن الطبائع المؤدية إلى الخيرات العظيمة و المنافع الكلية فكما أن الإنسان إذا ساعده التوفيق يتدرج من أدنى القوى و أغراضها إلى أشرف القوى على الترتيب الطبيعي حيث إذا استوفى كمال كل قوة أدنى بلغ به إلى الفوز بنيل كمال آخر لقوة أعلى و هكذا يترقى من قوة إلى قوة و من غرض إلى غرض حتى ينتهي إلى الجوهر العقلي الإلهي الذي فاز بنيل الغرض الكلي و السرور العلوي و البهجة العظمى لإحاطته بأجزاء العالم و مباديها و غاياتها علما و عملا على حسب طاقته فهكذا حال العالم الكبير

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۷۱

في اشتماله على أجزاء مترتبة بعضها طبيعية على مراتبها و بعضها نفسانية على درجاتها و بعضها عقلية على طبقاتها و كما أنها مترتبة في الذوات و الجواهر بالشرف و الفضيلة- بعضها أشرف و أفضل و بعضها أدون و أخس فكذلك مترتبة في اللذة و البهجة فلذة بعضها عقلية و بعضها حيوانية خيالية و بعضها حيوانية حسية و بعضها من باب الميل الطبيعي- فمحبوبات الجواهر متفننة إلا أنها مترتبة فأدناها ما للطبائع السارية في الأجسام و أعلاها ما للملائكة المقربين و العشاق الإلهيين في ملاحظتهم لأنوار جمال الله و جلاله و قد أقمنا البراهين على تجدد الطبائع الجسمية و حركاتها الجوهرية و

أن جميع هذه الطبائع متحركة نحو المبدإ الأعلى مرتقية من مهبط الجسمية إلى العالم العقلي و المنزل العلوي على التدريج كالإنسان الذي يتدرج في حركته الجوهرية من أدون المنازل إلى أعلاها- و من حد النطفة إلى حد العقل الكامل في مدة العمر و للعالم عمر طبيعي كما للإنسان و عمره الطبيعي على نحو من خمسين ألف سنة كما نطق به التنزيل من قوله تعالى تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ

الفصل (۳۰) في ذكر عشق الظرفاء و الفتيان للأوجه الحسان

اعلم أنه اختلف آراء الحكماء في هذا العشق

و ماهيته و أنه حسن أو قبيح محمود أو مذموم-

فمنهم من ذمه و ذكر أنه رذيلة

و ذكر مساويه و قال إنه من فعل البطالين و المعطلين

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۷۲

و منهم من قال إنه فضيلة نفسانية

و مدحة و ذكر محاسن أهله و شرف غايته-

و منهم من لم يقف على ماهيته

و علله و أسباب معانيه و غايته-

و منهم من زعم

أنه مرض نفساني

و منهم من قال إنه

جنون إلهي.

و الذي يدل عليه النظر الدقيق

و المنهج الأنيق و ملاحظة الأمور عن أسبابها الكلية و مباديها العالية و غاياتها الحكمية أن هذا العشق أعني الالتذاذ الشديد بحسن الصورة الجميلة و المحبة المفرطة لمن وجد فيه الشمائل اللطيفة و تناسب الأعضاء و جودة التركيب لما كان موجودا على نحو وجود الأمور الطبيعية في نفوس أكثر الأمم من غير تكلف و تصنع فهو لا محالة من جملة الأوضاع الإلهية التي يترتب عليها المصالح و الحكم فلا بد أن يكون مستحسنا محمودا سيما و قد وقع من مباد فاضلة لأجل غايات شريفة.

أما المبادي فلأنا نجد أكثر نفوس الأمم التي لها تعليم العلوم و الصنائع اللطيفة- و الآداب و الرياضيات مثل أهل الفارس و أهل العراق و أهل الشام و الروم و كل قوم فيهم العلوم الدقيقة و الصنائع اللطيفة و الآداب الحسنة غير خالية عن هذا العشق اللطيف- الذي منشؤه استحسان شمائل المحبوب و نحن لم نجد أحدا ممن له قلب لطيف و طبع دقيق و ذهن صاف و نفس رحيمة خاليا عن هذه المحبة في أوقات عمره.

و لكن وجدنا سائر النفوس الغليظة و القلوب القاسية و الطبائع الجافية من الأكراد و الأعراب و الترك و الزنج خالية عن هذا النوع من المحبة و إنما اقتصر أكثرهم على محبة الرجال للنساء و محبة النساء للرجال طلبا للنكاح و السفاد كما في

طباع سائر الحيوانات المرتكزة فيها حب الازدواج و السفاد و الغرض منها في الطبيعة إبقاء النسل و حفظ الصور في هيولياتها بالجنس و النوع إذ كانت الأشخاص دائمة السيلان و الاستحالة.

و أما الغاية في هذا العشق الموجود في الظرفاء و ذوي لطافة الطبع- فلما ترتب عليه من تأديب الغلمان و تربية الصبيان و تهذيبهم و تعليمهم العلوم الجزئية- كالنحو و اللغة و البيان و الهندسة و غيرها و الصنائع الدقيقة و الآداب الحميدة

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۱۷۳

و الأشعار اللطيفة الموزونة و النغمات الطيبة و تعليمهم القصص و الأخبار و الحكايات الغريبة و الأحاديث المروية إلى غير ذلك من الكمالات النفسانية فإن الأطفال و الصبيان- إذا استغنوا عن تربية الآباء و الأمهات فهم بعد محتاجون إلى تعليم الأستادين و المعلمين- و حسن توجههم و التفاتهم إليهم بنظر الإشفاق و التعطف فمن أجل ذلك أوجدت العناية الربانية في نفوس الرجال البالغين رغبة في الصبيان و تعشقا و محبة للغلمان الحسان الوجوه- ليكون ذلك داعيا لهم إلى تأديبهم و تهذيبهم و تكميل نفوسهم الناقصة و تبليغهم إلى الغايات المقصودة في إيجاد نفوسهم و إلا لما خلق الله هذه الرغبة و المحبة في أكثر الظرفاء و العلماء عبثا و هباء فلا بد في ارتكاز هذا العشق النفساني في النفوس اللطيفة و القلوب الرقيقة غير القاسية و لا الجافية من فائدة حكمية و غاية صحيحة.

و نحن نشاهد ترتب هذه الغايات التي ذكرناها فلا محالة يكون وجود هذا العشق في الإنسان معدودا من جملة الفضائل و المحسنات لا من جملة الرذائل و السيئات و لعمري إن هذا العشق يترك النفس فارغة عن جميع الهموم الدنياوية إلا هم واحد فمن حيث يجعل الهموم هما واحدا هو الاشتياق إلى رؤية جمال إنساني فيه كثر من آثار جمال الله و جلاله حيث أشار إليه بقوله **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** و قوله- **ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ** سواء كان المراد من الخلق الآخر- الصور الظاهرة الكاملة أو النفس الناطقة لأن الظاهر عنوان الباطن و الصورة مثال الحقيقة- و البدن بما فيه مطابق للنفس و صفاتها و المجاز قنطرة الحقيقة.

و لأجل ذلك هذا العشق النفساني للشخص الإنساني إذا لم يكن مبدؤه إفراط الشهوة الحيوانية بل استحسان شمائل المعشوق و جودة تركيبه و اعتدال مزاجه و حسن أخلاقه و تناسب حركاته و أفعاله و غنجه و دلالة معدود من جملة الفضائل و هو يرقق القلب و يذكي الذهن و ينبه النفس على إدراك الأمور الشريفة و لأجل ذلك أمر المشايخ مريديهم في الابتداء بالعشق و قيل العشق العفيف أو في سبب في

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۱۷۴

تلطيف النفس و تنوير القلب و في الأخبار

: إن الله جميل يحب الجمال

و قيل من عشق و عف و كتم و مات مات شهيدا.

و تفصيل المقام أن العشق الإنساني ينقسم إلى حقيقي و مجازي و العشق الحقيقي هو محبة الله و صفاته و أفعاله من حيث هي أفعاله و المجازي ينقسم إلى نفساني و إلى حيواني و النفساني هو الذي يكون مبدؤه مشاكلة نفس العاشق المعشوق في الجوهر و يكون أكثر إعجابه بشمائل المعشوق لأنها آثار صادرة عن نفسه و الحيواني هو الذي يكون

مبدؤه شهوة بدنية و طلب لذة بهيمية و يكون أكثر إعجاب العاشق بظاهر المعشوق و لونه و إشكال أعضائه لأنها أمور بدنية و الأول مما يقتضيه لطافة النفس و صفاتها و الثاني مما يقتضيه النفس الأمارة و يكون في الأكثر مقارنا للفجور و الحرص عليه و فيه استخدام القوة الحيوانية للقوة الناطقة بخلاف الأول فإنه يجعل النفس لينة شيقة ذات وجد و حزن و بكاء و رقة قلب و فكر كأنها تطلب شيئا باطنيا مختفيا عن الحواس فتنقطع عن الشواغل الدنيوية و تعرض عما سوى معشوقها

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۷۵

جاعلة جميع الهموم هما واحدا فلأجل ذلك يكون الإقبال على المعشوق الحقيقي أسهل على صاحبه من غيره فإنه لا يحتاج إلى الانقطاع عن أشياء كثيرة بل يرغب عن واحد إلى واحد.

لكن الذي يجب التنبيه عليه في هذا المقام أن هذا العشق و إن كان معدودا من جملة الفضائل إلا أنه من الفضائل التي يتوسط الموصوف بها بين العقل المفارق المحض و بين النفس الحيوانية و مثل هذا الفضائل لا تكون محمودة شريفة على الإطلاق في كل وقت- و على كل حال من الأحوال و من كل أحد من الناس بل ينبغي استعمال هذه المحبة في أواسط السلوك العرفاني و في حال ترقيق النفس و تنبيهها عن نوم الغفلة و رقدة الطبيعة و إخراجها عن بحر الشهوات الحيوانية و أما عند استكمال النفس بالعلوم الإلهية و صيرورتها عقلا بالفعل محيطا بالعلوم الكلية ذا ملكة الاتصال بعالم القدس فلا ينبغي لها عند ذلك الاشتغال- بعشق هذه الصور المحسنة اللخمية و الشمائل اللطيفة البشرية لأن مقامها صار أرفع من هذا المقام و لهذا قيل المجاز قنطرة الحقيقة و إذا وقع العبور من القنطرة إلى عالم الحقيقة فالرجوع إلى ما وقع العبور منه تارة أخرى يكون قبيحا معدودا من الرذائل- و لا يبعد أن يكون اختلاف الأوائل في مدح العشق و ذمه من هذا السبب الذي ذكرناه- أو من جهة أنه يشتبه العشق العفيف النفساني الذي منشؤه لطافة النفس و استحسانها- لتناسب الأعضاء و اعتدال المزاج و حسن الأشكال و جودة التركيب بالشهوة البهيمية- التي تنشأها أفراد القوة الشهوانية.

و أما الذين ذهبوا إلى أن هذا العشق من فعل البطالين

الفارغي الهمم فلأنهم لا خبرة لهم بالأمور الخفية و الأسرار اللطيفة و لا يعرفون من الأمور إلا ما تجلى للحواس- و ظهر للمشاعر الظاهرة و لم يعلموا أن الله تعالى لا يخلق شيئا في جبلة النفوس إلا لحكمة جليلة و غاية عظيمة.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۷۶

و أما الذين قالوا إنه مرض نفساني

أو قالوا إنه جنون إلهي فإنما قالوا ذلك من أجل أنهم رأوا ما يعرض للعشاق من سهر الليل و نحول البدن و ذبول الجسد و تواتر النبض و غور العيون و الأنفاس الصعداء مثل ما يعرض للمرضى فظنوا أن مبدأه فساد المزاج- و استيلاء المرة السوداء و ليس كذلك بل الأمر بالعكس فإن تلك الحالات ابتدأت من النفس أولا ثم أثرت في البدن فإن من كان دائم الفكر و التأمل في أمر باطني كثير الاهتمام- و الاستغراق فيه انصرفت القوى البدنية إلى جانب الدماغ و ينبعث من كثرة الحركات الدماغية حرارة شديدة تحرق الأخلاط الرطبة و تفنى الكيموسات الصالحة فيستولي اليبس و الجفاف على الأعضاء و يستحيل الدم إلى السوداء و ربما يتولد منه الماليخوليا.

و کذا الذین زعموا أنه جنون إلهي فإنما قالوا من أجل أنهم لم یجدوا دواء یعالجون- و لا شربة یسقونها فیبرءون مما هم فیه من المحنة و البلوى إلا الدعاء لله بالصلاة و الصدقة- و الرقى من الرهبانیین و الکهنة و هکذا کان دأب الحکماء و الأطباء الیونانیین فکانوا إذا أعیاهم مداواة مریض أو معالجة علیل أو یئسوا منه حملوه إلى هیکل عبادتهم و أمروا بالصلاة و الصدقة و قربوا قربانا و سألوا أهل دعائهم و أحبارهم و رهبانهم أن یدعوا الله بالشفاء فإذا برئ المریض سموا ذلك طبا إلهیا و المرض جنونا إلهیا.

و منهم من قال إن العشق هواء غالب في النفس

نحو طبع مشاکل في الجسد أو نحو صورة مماثلة في الجنس.

و منهم من قال منشؤه موافقة الطالع عند الولادة

فکل شخصین اتفقا في الطالع و درجته أو کان صاحب الطالعین کوکب واحد أو یکون البرجان متفقین في بعض الأحوال و الأنظار کالمثلثات أو ما شاکل ذلك مما عرفه المنجمون وقع بینهما التعاشق

الحکمة المتعالیة فی الاسفار العقلیة الاربعة، ج۷، ص ۱۷۷

و منهم من قال إن العشق هو إفراط الشوق إلى الاتحاد

و هذا القول و إن کان حسنا- إلا أنه کلام مجمل یحتاج إلى تفصیل لأن هذا الاتحاد من أي ضروب الاتحاد فإن الاتحاد قد یکون بین الجسمین و ذلك بالامتزاج و الاختلاط و لیس ذلك یتصور في حق النفوس- ثم لو فرض وقوع الاتصال بین بدني العاشق و المعشوق في حالة الغفلة و الذهول أو النوم فعلم یقینا أن بذلك لم یحصل المقصود لأن العشق کما مر من صفات النفوس لا من صفات الأجرام بل الذي یتصور و یصح من معنى الاتحاد هو الذي بیناه في مباحث العقل و المعقول من اتحاد النفس العاقلة بصورة العقل بالفعل و اتحاد النفس الحساسة بصورة المحسوس بالفعل فعلى هذا المعنى یصح صیرورة النفس العاشقة لشخص متحدة بصورة معشوقها و ذلك بعد تکرر المشاهدات و توارد الأنظار و شدة الفکر و الذکر في أشکاله و شمائله حتى یصیر متمثلا صورته حاضرة متدرعة في ذات العاشق و هذا مما أوضحنا سبیله و حققنا طریقه بحیث لم یبق لأحد من الأزکیاء مجال الإنکار فیه.

و قد وقع في حکایات العشاق ما یدل على ذلك کما روي أن مجنون العامري کان في بعض الأحانین مستغرقا في العشق بحیث جاءت حبیبته و نادته یا مجنون أنا لیلي فما التفت إلیها و قال لي عنك غنى بعشقك فإن العشق بالحقیقة هو الصورة الحاصلة- و هي المعشوقة بالذات لا الأمر الخارجي و هو ذو الصورة لا بالعرض کما أن المعلوم بالذات هو نفس الصورة العلمیة لا ما خرج عن التصور و إذا تبین و صح اتحاد العاقل بصورة المعقول و اتحاد الجوهر الحاس بصورة المحسوس کل ذلك عند الاستحضار الشدید و المشاهدة القویة کما سبق فقد صح اتحاد نفس العاشق بصورة معشوقه بحیث لم یفتقر بعد ذلك إلى حضور جسمه و الاستفادة من شخصه کما قال شاعر

الحکمة المتعالیة فی الاسفار العقلیة الاربعة، ج۷، ص ۱۷۸

أنا من أهوى و من أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا

فـإذا أبـصـرتـنـي أبـصـرتـه   و إذا أبـصـرتـه أبـصـرتـنـا

ثم لا يخفى أن الاتحاد بين الشيئين لا يتصور إلا كما حققنا و ذلك من خاصية الأمور الروحانية و الأحوال النفسانية و أما الأجسام و الجسمانيات فلا يمكن فيها الاتحاد بوجه بل المجاورة و الممازجة و المماسة لا غير بل التحقيق أن لا يوجد وصال في هذا العالم- و لا يصل ذات إلى ذات في هذه النشأة أبدا و ذلك من جهتين.

إحداهما أن الجسم الواحد المتصل إذا حقق أمره علم أنه مشوب بالغيبة و الفقد- لأن كل جزء منه مفقود عن صاحبه مفارق عنه فهذا الاتصال بين أجزائه عين الانفصال- إلا أنه لما لم يدخل بين تلك الأجزاء جسم مباين و لا فضاء خال و لا حدث سطح في خلالها- قيل إنها متصلة واحدة و ليست وحدتها وحدة خالصة عن الكثرة فإذا كان حال الجسم في حد ذاته كذلك من عدم الحضور و الوحدة فكيف يتحد به شيء آخر أو يقع الوصال بينه و بين شيء.

و الأخرى أنه مع قطع النظر عما ذكرنا لا يمكن الوصلة بين الجسمين إلا بنحو تلاقي السطحين منهما و السطح خارج عن حقيقة الجسم و ذاته فإذن لا يمكن وصول شيء من المحب إلى ذات الجسم الذي للمعشوق لأن ذلك الشيء إما نفسه أو جسمه أو عرض من عوارض نفسه أو بدنه و الثالث محال لاستحالة انتقال العرض و كذا الثاني لاستحالة التداخل بين الجسمين و التلاقي بالأطراف و النهايات لا يشفي عليلا طالب الوصال و لا يروي غليله و أما الأول فهو أيضا محال لأن نفسا من النفوس لو فرض اتصالها في ذاتها ببدن لكانت نفسا لها فيلزم حينئذ أن يصير بدن واحد ذا نفسين و هو

الحكمة المتعالية في الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۷۹

ممتنع و لأجل ذلك إن العاشق إذا اتفق له ما كانت غاية متمناة و هو الدنو من معشوقه و الحضور في مجلس صحبته معه فإذا حصل له هذا المتمنى يدعي فوق ذلك و هو تمني الخلوة و المصاحبة معه من غير حضور أحد فإذا سهل ذلك و خلي المجلس عن الأغيار تمنى المعانقة و التقبيل فإن تيسر ذلك تمنى الدخول في لحاف واحد و الالتزام بجميع الجوارح أكثر ما ينبغي و مع ذلك كله الشوق بحاله- و حرقة النفس كما كانت بل ازداد الشوق و الاضطراب كما قال قائلهم.

أعانقها و النفس بعد مشوقة   إليها و هل بعد العناق تداني

و ألثم فاها كي تزول حرارتي   فيزداد ما ألقى من الهيجان

كأن فؤادي ليس يشفي غليله   سوى أن يرى الروحان يتحدان

و السبب اللمي في ذلك أن المحبوب في الحقيقة ليس هو العظم و لا اللحم و لا شيء من البدن بل و لا يوجد في عالم الأجسام ما تشتاقه النفس و تهواه بل صورة روحانية موجودة في غير هذا العالم

الفصل (۳۱) في أن تفاوت المعشوقات لتفاوت الوجودات

اعلم أن محبوبات النفوس و الطبائع مختلفة و معشوقاتها متفننة حسب اختلاف مراتبها في الوجود و درجاتها في العلوم و المعارف و ذلك أن كل قوة من القوى لا تستكمل- إلا بما يجانسها و يشاكلها و كل حاسة من الحواس لا يلتذ إلا بمحسوسها المختص بها فالقوة الباصرة لا تشتاق إلا إلى الألوان و الأضواء لأنها من جنسها و كذا القوة السامعة- لا تشتاق إلا إلى الأصوات و النعم و لا يستلذ إلا ما كان على النسبة الفاضلة و على هذا القياس تلتذ الشامة بالروائح و

الذائقة بالطعوم الملائمة للمزاج و اللامسة بالملموسات الملائمة

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۸۰

لمزاجها التي يكون في حد الاعتدال بين أطراف المتضادات حتى تستكمل بها و هكذا قياس كل قوة من القوى الباطنة و الظاهرة الطبيعية و النفسانية و العقلية إذ كل قوة من جنس ما يقوى عليه و كذا كل قوة حاسة كما مر هي يكون من نوع محسوسها و كل قوة عاقلة من قبيل معقولاتها فلأجل ذلك تستكمل بها و تخرج لأجلها من القوة إلى الفعل و من النقص إلى الكمال سائرة إياها متحدة بها كما علمت مرارا.

ثم إن الإنسان من جملة المكونات كأنه ذات مجموعة من جميع ما في العالم- من الأنواع و الأجناس على وجه الاستعداد و القوة بمعنى أن كل جنس من أجناس الموجودات- و طبقة من الطبقات و عالم من العوالم العقلية و النفسية و الطبيعية يوجد فيه شيء ناقص في الابتداء مستعد للاستكمال و كل ناقص مشتاق إلى كماله فالإنسان لكونه مشتملا على مجموع نقصانات الأشياء فلا جرم يشتاق بكله إلى ما هو جامع لكل الكمالات بالإمكان العام و لا يوجد كمالات الأشياء كلها على وجه التمام إلا في حق الباري- لما له من الأسماء الحسنى و لهذا أحق الأشياء بأن يكون معشوقا للكمل و العرفاء هو الحق جل ذكره و بعده في استحقاقية عشق الإنسان مجموع العالم بكله لاشتماله على مظاهر صفات الله تعالى و أسمائه من العرش و الكرسي و السماوات و الشمس و القمر و النجوم و الأرض بما فيها و عليها من أنواع الحيوانات و النباتات و الجواهر المعدنية من الذهب و الفضة و غيرهما و البحار و ما فيها من العجائب و ما يتكون في الجو من الرياح و السحب- و الأمطار و الثلوج و البروق و الشهب و غيرها و الحركات العلوية و السفلية و مبادي تلك الحركات و غاياتها من العقول و النفوس الكلية و الجزئية و الطبائع الشريفة و الخسيسة- كل ذلك على أحسن ترتيب و أجود نظام بحيث يتحير الناظر إليه العارف بكيفية وضعها و ترتيبها في حسن كماله و نظامه.

و بعد هذين الأمرين أعني الإله جل ذكره و مظهره الأعظم الذي هو الإنسان

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۸۱

الكبير لا يستحق لأن يكون محبوبا لمن يشتمل على جميع المشاعر و القوى بالقوة أو بالفعل إلا العالم الصغير الجزئي و الإنسان الشخصي فإن الإنسان الكلي في الحقيقة هو العالم الكبير و لأجل ذلك لا يوجد في شيء من المكونات ما يشتد العشق و الوله من الأدمي إليه بحيث يسلب منه القرار و الصبر و يعتريه ما يعتري للعشاق من سهر الليالي و الغم و الحزن و البكاء و غير ذلك إلا من جهة شخص إنساني إذ صادف فيه جميع محبوبات- ما فيه من المشاعر و القوى فيوازي كله بكله و ليس غير الإنسان كذلك فإن كل واحد من أجزاء العالم ليس فيه إلا مشتهي قوة واحدة لأنه إما معقول فلا يستلذه إلا العقل و إما محسوس صرف فلا يستلذه إلا الحس دون العقل ثم ذلك المحسوس إن كان من باب اللون- و الضوء فلا يستلذه إلا البصر و إن كان من باب الصوت و الحرف فلا يستلذه إلا السمع فأما الإنسان ففيه مفردات الأشياء و مركباتها و جواهرها و أعراضها من المقولات التسع- و الروحانيات كملائكة القوى و الجسمانيات كالجوارح و الأعضاء.

و بالجملة ما في الملك و الملكوت من النعم الظاهرة و الباطنة كما في قوله تعالى- وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ

بَاطِنَةً فمن رأى مثل هذه النشأة الكاملة و المدينة الجامعة- فلا جرم يشتاق إلى لقائه و يحبه لما رأى فيه من صنعه موجدة و مظهر آثاره و مرآة جماله و جلاله.

قال الشيخ الكامل المحقق محي الدين الأعرابي في الفتوحات المكية اعلم أن العالم خلقه الله في غاية الإحكام و الإتقان كما قال الإمام أبو حامد الغزالي- من أنه لم يبق في الإمكان أبدع من هذا العالم فأخبر أنه تعالى خلق آدم على صورته و الإنسان مجموع العالم و لم يكن علمه بالعالم إلا علمه بنفسه إذ لم يكن

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۸۲

في الوجود إلا هو و فعله و صفته فلا بد أن يكون على صورته فلما أظهر في عينه كان مجلاة فما رأى فيه إلا جماله فأحب الجمال فالعالم جمال الله فهو الجميل المحب للجمال فمن أحب العالم بهذا النظر فقط فما أحب إلا جمال الله فإن جمال الصنعة لا يضاف إلا إلى صانعه لا إلى الصنعة فجمال العالم جمال الله و صورة جماله انتهى.

و قال في موضع آخر اعلم أن كل ما يتصور المتصور فهو عينه لا غيره ليس للعالم أن يتصور الحق إلا بما يظهر عينه و أن الإنسان الذي هو آدم عبارة عن مجموع العالم فإنه الإنسان الصغير و هو المختصر من العالم الكبير و العالم ما في قوة الإنسان- حصره في إدراك الكثرة و العظم و الإنسان صغير الحجم يحيط به الإدراك من حيث صورته و تشريحه و بما يحمله من القوى الروحانية فرتب الله فيه جميع ما خرج عنه مما سوى الله فارتبطت لكل جزء منه حقيقة الاسم الإلهي التي أبرزته و ظهر عنها فارتبطت به الأسماء

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۸۳

الإلهية كلها لم يشذ عنه منها شيء فخرج آدم على صورة اسم الله إذ كان هذا الاسم يتضمن جميع الأسماء الإلهية كذلك الإنسان و إن صغر جرمه فإنه يتضمن جميع المعاني و لو كان أصغر مما هو فإنه لا يزول عنه اسم الإنسان كما جوزوا دخول الجمل في سم الخياط و إن ذلك ليس من قبيل المحال لأن الصغر و الكبر من العوارض الشخصية التي لا يبطل بها حقيقة الشيء و لا يخرجه عنها و القدرة صالحة أن يخلق جملا يكون من الصغر بحيث لا يضيق عن ولوجه سم الخياط فكان ذلك رجاء لهم أن يدخلوا الجنة كذلك الإنسان و إن صغر جرمه من جرم العالم يجمع جميع حقائق العالم الكبير و لهذا سمى العقلاء العالم إنسانا كبيرا- و لم يبق في الإمكان معنى إلا و قد ظهر في العالم فقد ظهر في مختصره و العلم تصور المعلوم- و هو من الصفات الذاتية للعالم فعلمه صورته و عليها خلق آدم و آدم خلقه الله على صورته انتهى.

فعلم أن العشق الجامع لكل معشوقات الأشياء على ثلاثة أنحاء الأكبر و الأوسط و الأصغر فالعشق الأكبر عشق الإله جل ذكره و هو لا يكون إلا للمتألهين الكاملين- الذين حصل لهم الفناء الكلي و هؤلاء هم المشار إليه في قوله تعالى **يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ** فإنه في الحقيقة ما يحب إلا نفسه لا غيره فالمحب و المحبوب في الطرفين شيء واحد.

و الأوسط عشق العلماء الناظرين في حقائق الموجودات المتفكرين دائما في خلق السماوات و الأرض كما في قوله تعالى

الحکمة المتعالیة فی الاسفار العقلیة الاربعة، ج۷، ص ۱۸۴

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلى‏ جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ و هو عذاب الفرقة و الاحتجاب عن رؤية الآثار و جنة الأفعال.

و الأصغر عشق الإنسان الصغير لكونه أيضا أنموذجا مما في عالم الكبير كله و العالم كله كتاب الحق الجامع و تصنيف الله الذي أبرز فيه كمالاته الذاتية و معانيه الإلهية- و كتاب الإنسان مجموعة مختصرة فيه آيات الكتاب المبين فمن تأمل فيه و تدبر في آياته و معانيه بنظر الاعتبار يسهل عليه مطالعة الكتاب الكبير و آياته و معانيه و أسراره و إذا اتفق و أحكم معاني الكتاب الكبير يسهل معها العروج إلى مطالعة جمال الله و جلال أحديته فيرى الكل منطويا في كبريائه مضمحلا تحت أشعة نوره و ضيائه

الفصل (۳۳) في اختلاف الناس في المحبوبات

اعلم أنه لا يوجد لنوع من أنواع الموجودات مثل الاختلاف الذي يوجد في أفراد البشر و ذلك لأن المادة الإنسانية خلقت على وجه يكون فيها استعداد الانتقال- إلى أي صورة من الصور و الاتصاف بأي صفة من الصفات و فيها قوة الارتقاء من حد البهيمية- إلى أعلى درجات الملائكة المقربين فمنهم من هو في رتبة البهائم و نفسه النفس الشهوية و منهم من هو في رتبة السباع و نفسه النفس الغضبية و منهم من كان في منزل الشياطين و منهم من كان من نوع الملائكة و لكل من هذه الأجناس الأربعة أنواع كثيرة غير محصورة.

و قد علمت أن محبوب كل أحد ما يماثله و يشابهه و أن الله تعالى قد ركز في طباع

الحکمة المتعالیة فی الاسفار العقلیة الاربعة، ج۷، ص ۱۸۵

الموجودات و جبلات النفوس محبة الكون و البقاء على أتم الحالات التي تخصها و أتم حالات النفس الشهوانية أن تكون موجودة أبدا تتناول شهواتها و تتمتع بلذاتها التي هي مادة وجود أشخاصها من غير عائق و لا منغص فهي أبدا عاشقة للأكل و الجماع لا غير و هكذا من أتم حالات النفس الغضبية أن تكون موجودة رئيسة على غيرها غالبة على عدوها منتقمة ممن يؤذيها من غير عائق و لا منغص فهي أبدا عاشقة للقهر و الانتقام.

و من أتم حالات النفس الشيطانية أن تكون مكارة محيلة جربزة كذوبة مظهرة للأمور على غير ما هي عليه شأنها التدليس و التلبيس بإبراز المقدمات الباطلة في صورة الحق و إظهار الأكاذيب الواهية بهيئة الصدق فهي أبدا عاشقة للمكر و الحيلة و الوسوسة- و المواعيد الكاذبة و الأماني الباطلة كما قال تعالى في صفة الشيطان **يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً**.

و من أتم حالات النفس الملكية أن تعرف الحقائق على ما هي عليها و تؤمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر و تزهد في الدنيا و ترغب في الخلوة للمناجاة مع الله و تتفكر في صنع الله و ملكوته راضية بقضائه فهي أبدا عاشقة للمعارف الإلهية- و الكون مع الله بلا عائق و حاجب مسرورة بذكره كارهة للكون في الدنيا متمنية للموت و الخروج من هذه النشأة المجازية إلى الدار الآخرة تشوقا إلى جوار الله و مشاهدة لقائه و هذه الخصال لا توجد إلا في خواص الناس من الأخيار الذين هم بمنزلة الملائكة المقربين و الرسل المكرمين و أكثر الناس قصرت أفهامهم عن تصور هذه الخصال لقلة معرفتهم و كدورة أذهانهم لانغماسها في بحر الهيولى فرضوا بهذه الصور و الأشباح الجسدانية المؤلفة من

العناصر و الأبدان المركبة من اللحم و الدم و الأخلاط العفنة الظلمانية و اطمأنوا بها تمنوا الخلود معها و ذلك لنقص جوهرهم و دناءة نفوسهم كما ذكر الله عز و جل **وَ رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنُّوا بِهَا وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ** و آيات كثيرة من القرآن في هذا المعنى.

ثم لا يخفى عليك أن كل محب لشيء من الأشياء الدنيوية مشتاق إليه هائم به عند الفقدان- و أنه متى وصل إليه و نال ما يهواه منه حصل مقصوده و بلغ حاجته من الاستمتاع و التلذذ بقربه فإنه لا بد يوما أو ساعة أن يفارقه و يمله أو يتغير عليه و يذهب عنه تلك الحلاوة

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج ۷، ص ۱۸۶

و يتلاشى له البشاشة و يخمد لهيب ذلك الاشتياق و الهيجان و ربما يصير عين ما هو المحبوب وبالا و آفة على المحب و مرضا و علة له كما نشاهد من حدوث الأمراض و العلل من أكل الحلاوات و الدسومات و من كثرة المجامعة و رب معشوق آدمي صار من أعدى الأعداء و أوحش الأشياء عند محبه إلا المحبين لله و المؤمنين بآياته و المشتاقين إلى لقائه من عباده و أوليائه الصالحين فإن لهم كل يوم من محبوبهم قربة و كلما قربوا منه ازداد شوقهم و قوي عشقهم و كلما ازداد الشوق ازداد القرب و هكذا أبد الآباد كما ذكر الله **وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ** و قال **نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا** و أشار إلى حال المحبين سواه بقوله **كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً**.

ثم عطف نحو محبيه فذكر حالهم و كنى عن ذكرهم بوصف حالهم فقال **وَ وَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ** و ذلك لأن الدنيا و صورها الكونية عند العارف البصير بمنزلة مرائي و مظاهر- للحقائق القدسية و الصفات الإلهية و كما أن الناظر في السراب إذا كان عارفا يعلم أن ما يشاهد فيه هو صورة السماء لا صورة الماء كما بين في موضعه فكذلك العارف المحقق يعلم أن الوجود الذي يتراءى في هذه الموجودات العالمية ليس إلا أنحاء تجليات الحق و ظهورات كمالاته و أسمائه في مظاهر الأكوان و مرائي الأعيان.

و اعلم أن الغرض الأقصى و الحكمة الأسنى من وجود العشق في نفوس الظرفاء- و محبتها لحسن الأبدان و زينة الأشكال إنما هو لأن تتنبه من نوم الغفلة و رقدة الجهالة و ترتاض بها مدة و تخرج من القوة إلى الفعل و تترقى من الأمور الجسمانية إلى الأمور النفسانية- و منها إلى محاسن الأمور الدائمة الكلية و تتشوق إلى لقاء الله و لذات الآخرة و لتعرف من هذه الدلالات شرف جوهرها و كمال عنصرها و محاسن عالمها و صلاح معادها و ذلك لأن جميع المحاسن و كل المشتهيات المرغوبة للنفس التي نراها على ظواهر الأجسام و سطوح الأبدان جعلت دلالات على المحاسن الأخروية و مثلا للصور البهية الروحانية- كيما إذا نظرت إليها النفوس الجزئية حنت إليها و تشوقت نحوها و إذا وصلت إليها- تعمقت في إدراك كنهها وحدها بالنظر و التدبر فيها و الاعتناء لأحوالها لينتزع صورها

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج ۷، ص ۱۸۷

خالصة عن الأغيار و رسومها مصفاة عن الملابس و الأغشية حتى إذا غابت تلك الأشخاص الجرمانية عن مشاهدة الحواس لما زالت رسومها و صورها عن النفس بل بقيت تلك الرسوم و الصور المعشوقة المحبوبة مصورة فيها أعني

النفس الجزئية صورا روحانية صافية عن المواد.

ثم إذا قويت النفس و صارت إلى مقام العقل انتقلت معها الصور المرسومة في قوة خياله من ذلك المقام إلى ما فوقه فصارت معشوقاتها باقيات صالحات و هي صور كلية دائمة عقلية متحدة بها لا يخاف فراقها و لا دثورها و تغيرها و استحالتها أبد الآبدين.

مثال ذلك أن من ابتلي بعشق أحد في بعض أيام عمره ثم تسلى عنه أو فقده فإذا وجده بعد مدة من الدهر و قد تغير عما كان عليه من الحسن و الجمال و تلك الزينة و المحاسن كأن يراها على ظاهر جسمه فنظر إلى تلك الرسوم و الصور التي في خياله للعهد القديم وجدها بحالها لم يتغير و لم يتبدل و رآها برمتها مرتسمة في نفسه من تلك المحاسن و الرسوم و الأصباغ و الأشكال و التخاطيط على ما كانت من قبل و كان يراها بزعمه على الغير من بعيد و يجد اليوم كلها في نفسه منتزعة عن الغير مسلوبة عنه ما كان قبل ذلك يلتمسه عنه خارجا عن ذاته فعند ذلك يتفطن اللبيب بأن المعشوق بالحقيقة- ليس بأمر خارج عن ذاته لأن تلك الرسوم و الصور الحسان التي كان يراها على ذلك الشخص- و هو اليوم يجدها منقوشة في نفسه مرسومة في ذاته متمثلة بين يدي جوهره مصورة عنده- باقية ثابتة على حالة واحدة لم تتغير.

فإذا فطن العاقل الذكي بما وصفناه انتبهت نفسه من نوم غفلتها و استيقظت من رقدة جهالتها و علمت أن المعشوق بالحقيقة لم يوجد و لا يوجد في الأجسام و المواد الكثيفة و الأبدان اللحمية و الدموية و استراحت نفسه عند ذلك من التعب و العناء و مقاساة صحبة الغير و تحمل المشاق الشديدة و الشقاء الذي لا يزال يعرض لعشاق الأجسام و محبي الأبدان و يقول كما قال القائل-

صحى القلب عن سلمى و أقصر باطله   و عرى أفراس الصبى و رواحله

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۸۸

الفصل (۳۳) في الإشارة إلى المحبة الإلهية المختصة بالعرفاء الكاملين و الأولياء الواصلين

قد مر أن العشق الإنساني على ثلاثة أقسام الأكبر و الأوسط و الأصغر و أن الأكبر هو الاشتياق إلى لقاء الله و الشهوة إلى عرفان ذاته و صفاته و أفعاله من حيث هي أفعاله فهذه الشهوة لم توجد لغير العارف و حال الناس كلهم في أشواقهم و شهواتهم إلى محبوباتهم و مرغوباتهم بالقياس إلى حال العارف كحال الصبيان في التذاذهم باللعب بالصولجان بالقياس إلى حال الرجال البالغين- في أغراضهم و مستلذاتهم و رئاساتهم فإنه لو خلق فيك شوق إلى الله تعالى و شهوة لمعرفة جماله و جلاله و هو أصدق الشهوات و أحق اللذات لكنت تؤثرها على كل الخيرات- و تختار جنة المعرفة و رياض الحكمة و ثمراتها على الجنة التي فيها قضاء الشهوات الحسية و الخيالية و لكن هذه الشهوة و هذه الإرادة لم تخلق لعوام الناس و لا لأكثر الخاصين الذين يعدون أنفسهم من أهل الفضيلة إلا من يندر وجوده من الراسخين في العلم و كما أن شهوة النكاح و شهوة الرئاسة خلقت فيك و لم تخلق في الصبيان إلا شهوة اللعب بالصولجان و نحوه و أنت تتعجب في عكوفهم على لذة اللعب و خلوهم عن لذة الرئاسة فهكذا العارف يتعجب منك و من نظرائك في عكوفهم على لذة الجاه و الرئاسة فإن الدنيا بحذافيرها عند العارف لهو و لعب.

و لما خلق الله هذا العشق للعارفين كأن شوقهم بقدر عشقهم و شهوتهم بقدر معرفتهم- و لا نسبة لاشتياقهم و شهوتهم إلى لذة الشهوات الحسية سواء كانت في الدنيا أو في الآخرة فإن لذاتهم بالمعرفة لذة لا يعتريها الزوال و لا يفترها الملال بل لا يزال يتضاعف و يترادف بزيادة المعرفة- و الاستغراق فيها بخلاف سائر الشهوات إلا أن هذا العشق لا يخلق في الإنسان إلا بعد أن يمر عليه نشئات و يتحول بأحوال كثيرة و ينتقل من حد الحيوانية إلى حد المليكة كما ينتقل نطفة الحيوان من حد الجمادية و النباتية إلى حد الحيوانية و كما ينتقل الأدمي من حد الصيبوبة- إلى حد البلوغ الصوري و صار معدودا من الرجال البالغين الكاملين في الشهوة فهكذا مادة العقل

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۸۹

إذا انتقلت من حد القوة و الاستعداد إلى حد العقل بالفعل صار من الرجال البالغين في شهوة المعرفة و غيره من أفراد البشر بالنسبة إليه كالولدان و النسوان في باب لذة المعرفة و شهوة الحكمة فمن لم يخلق فيه هذه الشهوة فهو إما صبي بعد لم يكمل عقله أو عنين أفسد كدورة الدنيا و شهواتها فطرته الأصلية.

فالعارفون لما رزقوا شهوة المعرفة و لذة النظر إلى وجه الله و مطالعة جلاله فهم في مطالعتهم جمال الحضرة الإلهية في جنة عرضها السماوات و الأرض بل أكثر و أوسع فهم ينظرون إلى العاكفين في حضيض الشهوات نظر العقلاء إلى الصبيان عند عكوفهم على لذة اللعب بالتماثيل المزخرفة و لذلك تراهم يستوحشون من أكثر الخلق و يؤثرون العزلة و الخلوة و الذكر و هو أحب الأشياء لهم و يهربون من المال و الجاه علما منهم بأنه يشغلهم عن لذة المناجاة مع الله و يتجردون عن أهلهم و أولادهم ترفعا عن الاشتغال بهم عن الله فترى الناس يضحكون عليهم و يستهزئون بهم و يقولون في حق من يرون منهم إنه موسوس مجنون و هم يتعجبون من الناس و يضحكون عليهم بقناعتهم بمتاع الدنيا الفانية و لذاتها المزخرفة و يقولون إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون.

و العارف مشتغل بتهيئة سفينة النجاة لنفسه و لغيره لعلمه بخطر المعاد إذا جاءت الطامة الكبرى فيضحك على أهل الغفلة عن عذاب الله و السؤال و الحساب و عقاب يوم الآخرة و سوء المرجع و المآب عند كشف الغطاء و إظهار البواطن و السرائر و تحصيل ما في الصدور- و إخراج من في القبور و إبراز الجحيم و أشرارها و الجنة و أبرارها كما يضحك العاقل على الصبيان و اشتغالهم باللهو و اللعب عند ما ورد سلطان قاهر على البلد يريد أن يحاسب أهله و يقتل بعضهم و يخلع على بعضهم و يخلد بعضهم محبوسا في سجنه و يرفع بعضهم إلى مجلس قربه.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۹۰

فما أشد سخافة عقل من كان مرجعه إلى يوم الآخرة و هو مشتغل اليوم بكسب المال و الجاه و التفوق على الغير بالذهب و الفضة و الأنعام و الحرث و النسل و بين يديه هذه العقبات و في طريقه الأهوية المهلكات و

الصادق ع يقول: رب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا

و سئل الجنيد عن صفة المحب فقال دائم الفكر كثير الخلوة قليل الخلطة لا يبصر إذا نظر و لا يسمع إذا خوطب و لا يفهم إذا تكلم و لا يحزن إذا أصيب و لا يفرح إذا أصاب ينظر إلى الله في خلواته و يأنس به و يناجيه في سره و جهره و لا ينازع أهل الدنيا في دنياهم تراه حزينا يخشى حرمان ما يرجو و يخاف فوت ما يطلب قد دهش عقله من مطالعة

جلال الله قليل المنام قليل الطعام دائم الأحزان للناس شأن و له شأن إذا خلا حن و إذا تفرد أن و له شربة من كأس الوداد و استيحاش من جميع العباد انتهى كلامه.

أقول ما ذكره هو من أحوال المحبين في مبادي سلوكهم إلى الله و في أوقات انزعاجهم من خلق إلى الحق و أما عند الوصول و انشراح الصدر بنوره و سعة القلب- لاستوائه فهم من أهش خلق الله و أوسعهم خلقا و أشدهم فرحانا بمطالعة جلال الله و رؤيته في كل شيء و كذلك كان النبي ص قبل البعثة متوحشا من الخلق متخليا بعبادة ربه في جبل حراء ثم وسع الله قلبه و عظم خلقه فبعثه إلى كافة الخلائق و اشتغل بهدايتهم و تعليمهم الكتاب و الحكمة و إلى ذلك أشار بقوله تعالى **أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ** إلى آخر السورة و سنرجع إلى تحقيق هذا المقام في موعده إن شاء الله.

قال بعض العلماء و لا تظنن أن روح العارف من الانسراح في رياض المعرفة- و بساتينها أقل من روح من يدخل الجنة التي يعرفها و يقضي فيها شهوة البطن و الفرج و أنى يتساويان بل لا ينكر أن يكون في العارفين من رغبة في فتح أبواب المعارف لينظر إلى ملكوت السماوات و الأرض و جلال خالقها و مدبرها أكثر من رغبة الناس في المأكول و المنكوح و الملبوس و كيف لا يكون هذه الرغبة أغلب و هي مشاركة للملائكة في الفردوس الأعلى إذ لا حظ للملائكة في المطعم و المشرب و المنكح و لعل تمتع البهائم بهذه الأمور يزيد على تمتع الإنسان فإن كنت ترى مشاركة البهائم في لذاتها أحق بالطلب

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۹۱

من مشاركة الملإ الأعلى في فرحهم و سرورهم بمطالعة جمال الحضرة الربوبية فما أشد جهلك و غيك و ما أخس همتك و قيمتك على قدر همتك انتهى.

و مما ينبغي أن يعلم أنه كما أن وجود كل شيء من آثار موجده و لا يوجد شيء في المعلول إلا و يوجد في علته على وجه أعلى و أشرف فهكذا جميع المرغوبات و المستلذات التي توجد في عالم المواد الجسمية و الطبائع الكائنة المستحيلة فإنما هي رشحات لما يوجد في عالم النفوس و نشأة الجنان و دار الحيوان كما قال تعالى **وَ فِيهٰا مٰا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ** و كذلك جميع مستلذات النفوس و تماثيل الجنة و أشجارها و أنهارها و غرفاتها و حورها و قصورها و نغمات طيورها إنما هي آثار و رشحات لما يوجد في الحضرة الإلهية و ينالها العاكفون حول جنابه من اللذات و الابتهاجات التي تكل الإنسان عن وصفها مما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر فمن ترك الدنيا و زهد فيها فاز بنعيم الآخرة و لذات الجنة و من زهد في نعيم الآخرة فاز بنعيم القرب و شرف الوصول و الابتهاج بلقاء الله الذي يحقر في جنبه كل نعيم و لذة.

و اعلم أنه قبيح بذي عقل أن يكون بهيمة و قد أمكنه أن يكون إنسانا أو إنسانا و قد أمكنه أن يكون ملكا مقربا و قال تعالى **أَ يَحْسَبُونَ أَنَّمٰا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مٰالٍ وَ بَنِينَ- نُسٰارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرٰاتِ بَلْ لاٰ يَشْعُرُونَ** و قال أيضا **قٰالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا- يٰا لَيْتَ لَنٰا مِثْلَ مٰا أُوتِيَ قٰارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَ قٰالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوٰابُ اللّٰهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً** أشار إلى أن من كان من أهل العلم يعلم أن المثوبات الأخروية أجل و أبهى من اللذات الدنيوية لأن تلك أمور حقة باقية و هذه أمور باطلة فانية

و قال أمير المؤمنين ع: هلك خزان الأموال و العلماء أحياء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة و آثارهم

في القلوب موجودة

الحكمة المتعالية فی الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۹۲

الموقف التاسع في فيضه تعالى و إبداعه و فعله و تحقيق وجود الصور المفارقة العقلية و فيه فصول

الفصل (۱) في تمهيد أصول يحتاج إلى معرفتها في تحقيق أول الهويات الصادرة عنه تعالى و أن أي وجود يخصه

و لنمهد لتحقيق هذا المطلب ذكر أصول قد مضى شرحها في السفر الأول الذي في الأمور العامة التي هي ضوابط الأحوال العارضة لطبيعة الموجود بما هو موجود بحسب المفهوم و هي هذه تلخيصا و تذكيرا.

الأصل الأول

أن تقابل السلب و الإيجاب بالذات إنما يكون بين أمرين مفهوم أحدهما بعينه

الحكمة المتعالية فی الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۹۳

يكون رفع الآخر أي لا مفهوم له سوى كونه رفعا له و لأجل ذلك لا يتحقق هذا التقابل إلا بين شيئين و الحصر بينهما لا محالة عقلي لا يسع للعقل تجويز واسطة بينهما- و يقال له تقابل التناقض أيضا و المعتنون و المهتمون بتصحيح الألفاظ لما حاولوا تصحيح مقتضى باب التفاعل في التناقض و هو التكرر من الجانبين فقالوا معنى التناقض كون شيئين يلزم من صدق أحدهما لذاته كذب الآخر و قد قرع أسماعهم من أن نقيض كل شيء رفعه

الحكمة المتعالية فی الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۹۴

فتارة قلبوا القول بأن نقيض كل شيء رفعه إلى القول بأن رفع كل شيء نقيضه- و جعلوا كلا من الطرفين نقيضا للآخر و أما الرفع فهو مختص بجانب السلب دون الثبوت- و تارة ذكروا أن حقيقة التناقض كون المفهومين أحدهما رفعا للآخر و الآخر مرفوعا به- و جعلوه بهذا المعنى من النسب المتكررة من الجانبين و الأولى أن يقال إن صحة تكرر النقيض و الرفع من الجانبين لأجل أن أحد الطرفين نقيض للآخر بالذات و الآخر نقيض له بالعرض لأنه يصدق عليه نقيض النقيض و رفع الرفع فيكون بينهما تناقض متكرر في الطرفين في الجملة و هذا القدر كاف في إجراء صيغة التفاعل و الأمر في ذلك سهل عند طالب الحق و الغاية الآخرة.

و بالجملة لا بد أن يكون مفهوم أحد الطرفين بعينه رفع الآخر و أما الآخر فغير متعين فيه أن يكون أمرا بخصوصه و لا هو مشروط بتخصص معنى إلا عدم كون مفهومه بعينه رفعا لذلك الرفع و لا أيضا مشروط بأن مفهومه المرفوع به بل الواجب أن يكون شيئا متصفا بكونه مرفوعا بذلك الرفع سواء كان هو في نفسه رفعا لشيء آخر أو لا فقد

الحكمة المتعالية فی الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۹۵

اتضح أن في المتقابلين تقابل السلب و الإيجاب لا بد أن يكون أحد الجانبين مفهوم السلب بعينه و يكون الجانب الآخر المقابل للسلب إيجابا إضافيا بالقياس إليه سواء تحقق في فرد الإيجاب الحقيقي أو في غيره من السلوب.

ثم ليعلم أن هذا النحو من التقابل كما يوجد بين القضيتين كذلك يوجد بين مفهومين مفردين إما بحسب حمل على بالقياس إلى موضوع بعينه كما بين الإنسان و اللاإنسان و زيد و لا زيد أو لا إنسان و لا لا إنسان و لا زيد و لا لا زيد أو بحسب وجود في بالنسبة إلى موضوع بعينه كما بين السواد في شيء و رفعه عنه أو رفع السواد و رفع رفعه عنه فيمتنع أن يكون شيء من الموضوعات المعينة خاليا عن المتقابلين بحسب حمل على و هو حمل هو هو.

و كذا يستحيل أن يوجد شيء من الموضوعات فارغا عنهما بحسب وجود في و هو حمل الاشتقاق فكما أن كل شيء إما بياض و إما لا بياض على سبيل المنفصلة الحقيقية- فكذلك كل شيء إما أبيض و إما لا أبيض بمعنى أنه إما ذو بياض و إما لا ذو بياض و القبيلان كلاهما تقابل في المفردات أنفسها و إن كان ذلك بحسب نسبتها إلى موضوع.

و كما أن رفع كل مفرد نقيضه بالذات و المرفوع به هو نقيضه بالعرض لأنه مصداق نقيض النقيض و رفع الرفع فكذا سلب كل قضية نقيضها و نقيض السلب بالذات سلب السلب- لكن يلزمه الإيجاب فنقيض كل إنسان حيوان هو ليس كل إنسان بحيوان

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۹۶

و نقيض لا شيء من الحجر بإنسان هو ليس لا شيء من الحجر بإنسان لكن لو صدق هذا السلب الاستغراقي المستوعب للجميع فيلزمه الإيجاب في البعض و لأجل ذلك حكم الميزانيون بأن نقيض الإيجاب الكلي سلب جزئي و نقيض السلب الكلي إيجاب جزئي

أصل آخر

لما تذكرت أن لمفهوم واحد نقيضا من طريق حمل هو هو و نقيض من طريق حمل ذو هو فاستيقن أن المتناقضين من طريق حمل الاشتقاق كما استحال اجتماعهما بحسب الجمل الاشتقاقي في موضوع واحد فكذلك يستحيل صدقهما مواطاة على موضوع واحد- فلا يصح أن يحمل الحركة و اللاحركة على شيء واحد و أما المتناقضان على نحو الحمل التواطي فإنما المستحيل اجتماعهما من حيث المفهوم بحمل على في موضوع واحد و هو حمل هو هو لا اجتماعهما من حيث التحقق و الوجود في موضوع بعينه فإن ذلك غير ممتنع فالسواد مثلا يوجد مع الحركة في موضوع واحد و كل منهما نقيض الآخر بالمعنى الذي مر ذكره فقد اجتمع النقيضان في موضوع واحد و السر في ذلك أن السواد ليس نقيض الحركة بالذات بل فرد لما هو نقيضه بالعرض بحسب حمل التواطي و كذا الحركة بالقياس إلى السواد فالسواد و اللاسواد نقيضان مواطاة و كذا اشتقاقا أعني ذا السواد و لا ذا السواد و أما ذو السواد و ذو اللاسواد فلا تناقض بينهما إذ الموضوع إذا

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۹۷

وجد فيه سواد و حركة فصدق عليه أنه ذو سواد و صدق عليه أنه ذو حركة فصدق عليه أنه ذو لا سواد إذ الحركة لا سواد بحمل التواطي و لا يلزم من ذلك أن يصدق عليه أنه أسود و أنه لا أسود فإن ذا السواد و إن كان معناه بعينه معنى أسود إلا أن ذا اللاسواد ليس معناه معنى لا أسود نعم لو أريد من اللاسواد نفس هذا المفهوم السلبي لا شيء آخر معروض له أو متحد به في الوجود كالحركة في مثالنا فحينئذ يكون التناقض بينهما حاصلا- إذ يكون حينئذ مفاد قولنا هذا ذو اللاسواد

بعينه مفاد قولنا هذا لا أسود فتدبر فيه كي ينفعك فيما نحن بصدده إن شاء الله.

أصل آخر فيه قانون

أنحاء الحيثيات و أقسام الجهات التي لا بد من مراعاتها لئلا يقع الإنسان في الغلط حتى يظن الكثيرة واحد و الواحد كثير و ذلك لجهله بأن أي الاعتبارات المختلفة يوجب كثرة في الذات و أيها لا يوجب كما وقع لطائفة حيث جوز كثير من الناس صدور الكثيرة من الواحد الحقيقي في أول الأمر و لم يشعروا بأن ذلك يخل بوحدانية الأول و كذا منع كثير من الناس اتصافه تعالى بصفاته الكمالية- كالعلم و القدرة و الإرادة و غيرها في مرتبة ذاته بذاته و لم يشعروا بأن تلك الصفات- مع أنها غير متحدة المفهوم لا توجب كثرة في الموصوف و كذا أحال الكثيرون من العقلاء علمه التفصيلي بالأشياء في مرتبة ذاته و قد علمت لب القول فيه فإذن نقول إن مطلق الحيثيات إما تقييدية أو تعليلية و الأولى هي التي جعلت كالجزء للتحيث بها كالناطق للإنسان و كالكاتب للمركب الصنفي و الثانية هي التي كالخارج

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۹۸

منه مثل كون الشيء علة و معلولا و إن كان التقيد و التحيث بها داخلا بشرط أن يكون التقيد بها مأخوذا على أنه تقيد لا على أنه قيد و التحيث تحيثا لا حيثية أي معنى حرفيا غير مستقل بالمفهومية كما علمت في الحصة من الفرق بينها و بين الفرد ثم الحيثية التقييدية قد تكون في العنوانات بحسب المعبر به و الحكاية دون المعبر عنه و المحكي

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۱۹۹

عنه كما تقول الماهية من حيث الإطلاق أو لا بشرط شيء كذا و ليس المراد به إلا نفس الماهية المرسلة من غير اعتبار حيثية أخرى معها بخلاف ما إذا جعلت الإطلاق و اللابشرطية و الإرسال قيدا للماهية فتقابل حينئذ للماهية المحيثة بشرط شيء أو بشرط لا شيء و لا يصدق المأخوذة مع الإطلاق على شيء منهما لكونها مقابلة لهما كما أنهما متقابلتان و أما المأخوذة على الوجه الأول فيصدق على كل منهما لكونها مطلقة مرسلة في الواقع من غير اعتبار الإطلاق و الإرسال معها.

ثم نقول إن اختلاف الحيثيات التعليلية لا توجب كثرة في نفس الموضوع بل في ما خرج عنه و أما اختلاف الحيثيات التقييدية فالمشهور عند الجمهور أنها تقتضي كثرة في ذات الموضوع لكن الفحص و البرهان يحكمان بالفرق بين اختلافها- من جهة المعنى و المفهوم و من جهة الحقيقة و الوجود فكل مفهوم من المفهومات مقتضاه مغايرته مع سائر المفهومات بحسب المفهوم و المعنى و لكن بعضها مما لا يأبى

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۰۰

الاتحاد مع بعض ألا ترى أن مفهوم الوجود غير مفهوم التشخص من حيث المعنى و عينه من حيث الحقيقة و كذا مفهوم العاقل و المعقول متغايران معنى و لا ينافي ذلك اجتماعهما من حيثية واحدة في ذات واحدة بسيطة من كل الوجوه فمقتضى التغاير بحسب المفهوم عدم حمل أحدهما على الآخر بالحمل الذاتي الأولي دون عدم حمله على الآخر بالحمل الشائع الصناعي الذي مناطه الاتحاد في الوجود لا في المفهوم فقد يصدق معنى على آخر بالحمل الشائع

و يكذب عليه بالحمل الذاتي الذي مفاده الاتحاد في المفهوم- فعلمه تعالى غير قدرته بحسب المعنى و لكن عينها بحسب الوجود الواجبي كما سبق ذكره مرارا فاتضح أن الحيثيات التقييدية قد تكون متخالفة المعنى فقط و لا يقدح ذلك في بساطة ذات الموضوع و هويته و قد تكون مع ذلك مكثرة لذات الموضوع و هويته **قسمة أخرى** ثم الحيثيات المتخالفة المستوجبة لاختلاف ذات الموضوع و تكثرها على قسمين فضرب منها حيثيات مختلفة بالذات متغايرة في نفسها لكنها غير متقابلة بنحو من أنحاء التقابل الأربعة أصلا إلا بالعرض كالشكل و المقدار و اللون و الطعم و الرائحة و الحرارة و الحركة و الإضافة و غيرها من أنواع المقولات التسع و ضرب منها حيثيات متقابلة بالذات نوعا من أنواع التقابل كالسواد و البياض و العلم و الجهل و التقدم و التأخر- بالقياس إلى الشيء الواحد و الوجود و العدم.

أصل آخر جميع الحيثيات الذاتية و العرضية مشتركة

في أن مناط الاتصاف بشيء منها ليس بعينه مناط الاتصاف بالآخر أعني بذلك أنه لا يصح للشيء التقيد بحيثية منها من حيث التقيد بالحيثية الأخرى فليست إنسانية الإنسان من حيث كاتبيته و لا

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏٧، ص ٢٠١

الناطقية له من حيث حيوانيته و لا المتحركية له من حيث المتشكلية و إلا لكان كل حيوان ناطقا و كل إنسان كاتبا بالفعل و كل متشكل متحركا هذا كله بحسب الوجود و كذا بحسب المفهوم فليس الاتصاف بالعاقلية بحسب المفهوم عين الاتصاف بالمعقولية بحسب المفهوم و إلا لكانا لفظين مترادفين لمعنى واحد و القوم لم يفرقوا بين القبيلتين كما سبقت الإشارة إليه فقالوا قولا مطلقا إن ما يلحق الذات بحسب حيثية ما أية حيثية كانت ليس يصح أن يلحقها بحسب حيثية أخرى و أن الحيثيات كلها متصادمة كانت أم غير متصادمة يجمعها أنها غير متصححة الحصول إلا بالاستناد إلى حيثيات مختلفة سابقة تعليلية و إن لم يكن من حقها مطلقا أن لا تعرض لذات واحدة إلا من بعد حيثيات مختلفة تقييدية سابقة مكثرة للذات قبل العروض.

و أما الحيثيات المتقابلة بخصوصها فلا بد في طباعها مع ما ذكر أنها لا يوجد في موضوع واحد شيء منها في الواقع إلا بعد خلوة عن المقابل الآخر و لا يكفي في صحة اجتماع المتقابلين في موضوع واحد بوجه من الوجوه كونه ذا كثرة تحليلية عقلية بل لا بد فيه من كثرة وجودية خارجية فاختلاف الموضوع بالحيثية التقييدية بحسب مرتبة مراتب نفس الأمر كاختلاف أجزاء الماهية النوعية مثل الحيوانية و الناطقية في الإنسان المتمايزين بحسب تحليل الذهن لا يستصح به إمكان اجتماع المتقابلين فيه كالعلم و الجهل و السواد و البياض- بل لا بد لوجودهما معا في زمان واحد من وجود موضوعين متغايرين وجود.

و أما الحيثيات التقييدية المختلفة التي يجوز عند العقل انتفاء بعض منها مع بقاء البعض كالسواد و الحركة مثلا فهي و إن كانت جائزة الاجتماع في موضوع واحد طبيعي- لكن بشرط أن يكون بإزائها مباد و جهات مختلفة متغايرة الوجود سواء كانت متلازمة التحقق أم لا و ذلك كالقوى النباتية و الحيوانية لأجل صدور الأفاعيل و الآثار المتفننة عنها.

أصل آخر

إنك تستطيع مما ذكره أن تعلم أن اتصاف الشيء بصفة من الصفات في الواقع ليس يستدعي اتصافه في كل مرتبة من مراتب الواقع و لا أيضا يستوجب اتصافه

الحکمة المتعالیة فی الاسفار العقلیة الاربعة، ج۷، ص ۲۰۲

بها من جميع الحيثيات التي تثبت لهذا الموضوع فإذا قلنا زيد موجود في الواقع فيكفي لنا في صدق هذا الحكم اتصاف زيد بالوجود في الجملة و إن لم يكن موجودا في مرتبة نفس ماهيته مجردة عن تأثير الفاعل فإذا قلنا زيد أسود فلا يلزم أن يكون اتصافه بالسواد- من حيث إنسانيته و لا من حيث كتابته و لا من حيث علمه و قدرته و سخاوته و شجاعته إلى غير ذلك من الصفات و الحيثيات التي لا مدخل لها في السوادية فالسواد مسلوب عن زيد- من حيث ثبوت تلك الأمور التي أشرنا إليها و على ذلك لا يضر عدم صدقه من تلك الحيثيات صدقه في الواقع و ذلك لأن تحقيق الشيء يقع بتحقق نحو من أنحاء الوقوع و ارتفاعه بارتفاع جميع الأنحاء.

فإذا تقرر هذا نقول إذا اتصف موضوع بسيط الذات من جميع الوجوه بصفة من الصفات فيجب أن يتصف بها بجميع الاعتبارات و في كل مرتبة من مراتب نفس الأمر فالذي سبق بيانه من أن المتقابلين بحمل على قد لا يكونان متقابلين بحسب وجود في كالرائحة و اللون المجتمعين في موضوع مثل التفاحة التي وجدت فيها رائحة و لون و اللون لا رائحة إنما يستقيم ذلك إذا لم يكن الموضوع واحدا صرفا و الحيثيات فيه واحدة ففي مثال التفاحة لو كانت حيثية الرائحة بعينها هي حيثية اللون لكان قولنا فيها رائحة و فيها لا رائحة بمنزلة قولنا الرائحة لا رائحة فيلزم حينئذ أن يكون النقيضان من سبيل حمل على نقيضين من سبيل وجود في فالذي قد سبق ذكره من أن الشيء و نقيضه بحسب

الحکمة المتعالیة فی الاسفار العقلیة الاربعة، ج۷، ص ۲۰۳

حمل على لا يتناقضان من جهة الاقتران بينهما في الثبوت من سبيل وجود في إنما يتصحح ذلك الحكم بحسب تحقق أصل الوجود للموضوع في متن الأعيان و لو من جهة واحدة هي صدوره عن الفاعل و بحسب مطلق الاقتران بينهما فيه لا الاقتران من كل حيثية و جهة.

و أما إذا كان اقتران الموضوع بأحد المتقابلين من طريق حمل على كاللون و الحركة بنفس الحيثية التي اقترن بحسبها بالآخر حتى كانت الحيثية التي من جهتها بخصوصها و بحسب كنه حقيقتها يترتب عليها اللاحركة أعني اللون في موضوع بعينه هي بعينها الحيثية التي من جهتها و بحسبها يترتب الحركة في ذلك الموضوع كانت اللاحركة حركة بالضرورة فإذن قد لزم من اجتماع النقيضين من طريق حمل على و هما الحركة و اللاحركة بحسب وجود في من حيثية واحدة اجتماعهما بحسب حمل على أيضا و ذلك بديهي الاستحالة على أن العقل السليم المفطور على الاستقامة يحكم قبل الرجوع إلى البرهان أن الحيثية التي بها يكون انبعاث الحركة عن شيء ليست بعينها الحيثية التي بها يكون انبعاث اللاحركة و إلا لكانت الحركة لا حركة بل كانت تلك الحيثية غير تلك الحيثية بل كان ذلك الموضوع بعينه لا ذلك الموضوع بعينه و الكل باطل فقد تحقق و تبين أن المتناقضين حسب حمل على كالسواد و الحركة

الحکمة المتعالیة فی الاسفار العقلیة الاربعة، ج۷، ص ۲۰۴

إنما يصح اجتماعهما في موضوع واحد بحسب وجود في بشرط أن يكون الاقتران بهما من حيثيتين مختلفتين تقييديتين لا من حيثية واحدة

الفصل (٣) في أن أول ما يصدر عن الحق الأول يجب أن يكون أمرا واحدا

هذه الأصول الممهدة التي قد مر ذكرهما مما يستقل به العقل النظري الذي ليس لعينه غشاوة التقليد و لا لمرآته رين العصبية و ظلمة العناد لإثبات أن الواحد الحق الصرف و كذا الواحد بما هو واحد لا يصدر عنه من تلك الحيثية إلا واحد و أن ليس في طباع الكثرة بما هي كثرة أن تصدر عن الواحد و أن يصدر عنها مبدعان معا بل واحد فواحدا إلى أن يتكثر الجهات و الحيثيات- و ينفتح باب الخيرات فلعل هذا الأصل من فطريات الطبع السليم و الذوق المستقيم كما مر ذكره إلا أن المعاندين لأهل الحق جحدوا هذا الأصل أشد جحودا كيلا ينفتح على أحد باب الحكمة و لا ينكشف إثبات النور المجرد و الجوهر المفارق و الصورة المفارقة عن المواد و الأجرام و الأبعاد في عالم الإمكان لأنهم لثقل طبائعهم عن الخروج إلى نشأة أخرى- و مجاورة العاكفين حمى حرم الله و كعبة القدس و البيت الحرام قعدوا أول مرة مع القاعدين و لو أرادوا

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏٧، ص ٢٠٥

الخروج لأعدوا له عدة و لكن كره الله انبعاثهم و ثبطهم و قيل اقعدوا مع القاعدين- و يشبه أن يكون أكثر هؤلاء المجادلين خصماء الروحانيين و أعداء الملائكة المقربين ضميرا و قلبا و إن لم يصرحوا بما أضمروه لسانا و نطقا كاليهود كما في قوله تعالى **قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى‏ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ** فلا جرم حاول أهل الحق إثبات هذا المطلب بالحجة القاطعة و دفع الشبه عنه صونا لعقائد الطالبين للحق عن شكوك المضلين المعطلين.

فقالوا كما سلف ذكره في السفر الأول في ضوابط العلة و المعلول أنه لو صدر عن الواحد من حيث هو واحد ا و ب مثلا و ا ليس ب فقد صدر عنه من الجهة الواحدة ب و ما ليس ب و ذلك يتضمن اجتماع النقيضين و قد مر ذكر بعض الشكوك على هذا البرهان مع أجوبتها هناك و قد أوردنا أيضا هناك اعتراض إمام الباحثين المعترضين على الحكمة متمنطقا على رئيس صناعة الميزان مع الإشارة إلى موضع الاشتباه و معرض الخلل و الخبط.

و هنا نقول بعد تمهيد هذه الأصول إن من الواضح المنكشف بما سبق أن صدور ما ليس ب بعينه في قوة عدم صدور ب من حيثية صدور ما ليس ب و إلا لكان ما ليس ب هو بعينه ب و إن لم يكن هو في قوة عدم صدور ب بحسب أصل الواقع و أصل

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏٧، ص ٢٠٦

الوجود في نفس الأمر فإن ما ليس برائحة في الجسم و إن لم يكن بمنزلة ما ليست فيه رائحة في مطلق التحقق فيمكن اجتماع ما ليس برائحة مع ما هو رائحة في جسم واحد- لكن لا يمكن وجود ما هو رائحة فيه من الحيثية التي وجد فيه ما ليس برائحة و إلا لكان ما هو رائحة و ما ليس هو برائحة شيئا واحدا.

و الحاصل أن النقيضين بحمل على إنما يجوز اجتماعهما في موضوع واحد بعينه باعتبار حمل الاشتقاق من حيثيتين مختلفتين تعليليتين [تقييديتين] لا من حيثية واحدة و إلا لزم التناقض لا محالة و هذا الأسلوب قريب المأخذ مما سلكناه في دفع شبهة صاحب المباحث من أن الفاعل بنفس ذاته إذا صدر منه ا كانت ذاته بخصوصها مصدرا لا بمعنى أن ذاته بخصوصها مصداق لهذا المفهوم و هو بعينه عنوان لتلك الخصوصية فلو صدرت عنه ب أيضا بحسب تلك

الخصوصية كانت تلك الخصوصية مصداقا لصدور غير ا و لا شبهة في أن صدور ا و صدور ليس ا متخالفان في المفهوم فيلزم أن يكون تلك الخصوصية غير تلك الخصوصية و هو محال.

و يقرب من هذا في إصابة الحق ما ذكره الكاتبي في شرح الملخص فإنه بعد ما حرر كلام الماتن و قرر المنع المذكور أعني منع كون صدور لا ا مثلا مستلزما للا صدور ا قال قال و إن سلم فلا تناقض بين قولنا صدر عنه ا و لم يصدر عنه ا لأنهما

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۰۷

مطلقتان و إن قيدت إحداهما بالدوام كانت كاذبة.

أقول المطلقتان إنما يصدقان لاحتمال وقوع كل منهما في زمان فإذا اتحد الزمان فيهما لم يمكن اجتماعهما في الصدق ثم لا يخفى أنه جعل الحيثيات بمنزلة الأزمنة إذ لا معنى لاعتبار الزمان هاهنا و أراد بالمطلقتين ما لم يقيد الحكم بعموم الحيثيات و بالدوام ما قيد بعمومها و حينئذ نقول إنما جاز صدق المطلقتين بهذا المعنى لاحتمال اختلاف الحيثية أما إذا اتحدت الحيثية فلا يمكن صدقهما معا و ذلك ظاهر.

قال و عند هذا يظهر انعكاس تشنيع الإمام الرازي على الشيخ إليه

الفصل (۳) في سياقة أخرى من الكلام لتبيين هذا المرام أورده بهمنيار في كتاب التحصيل تلخيصا لما قد تكرر ذكره في كلام الشيخ الرئيس سيما في التعليقات

حيث قال و اعلم أن البسيط الذي لا تركيب فيه أصلا لا يكون علة لشيئين معا معية بالطبع فإنه لا يصدر عنه شيء إلا بعد أن يجب صدوره عنه فإن صدر عن ا ج من حيث يجب صدور ب عنه لم يكن حينئذ واجبا صدور ب عنه فإنه إن صدر عنه ج من حيث يجب صدور ب عنه كان من حيث وجب صدور ب عنه يصدر عنه ما ليس ب فلا يكون إذن صدور ب عنه واجبا فإذن كل بسيط فإن ما يصدر عنه أولا يكون إحدى الذات انتهى.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۰۸

و اعترض عليه الفاضل الدواني في حاشية التجريد بقوله و أنت تعلم أنه يتوجه عليه أنه لا يلزم من المفروض و هو صدور ج من حيث يجب صدور ب أن لا يكون ب واجبا بل أن يكون ب واجبا من حيث وجب ج بعينه و هل الكلام إلا في نفيه.

أقول زيادة قيد الوجوب في هذه السياقة تفيد أن العلة الموجبة للشيء لا بد و أن يكون فيها من الخصوصية بالقياس إلى معلولها بعينه ما لا يكون لها تلك الخصوصية إلى معلولها الآخر لو فرض بعينه كما لا يكون لعلة أخرى لو فرضت بالقياس إلى هذا المعلول أو معلول آخر فتلك الخصوصية الذاتية مبدأ إيجاب المعلول المعين بخصوصه و منشأ انبعاثه بما هي هي و ليس المراد بالخصوصية أو الحيثية هنا المفهوم المصدري الذي يجوز كسائر المعاني المصدرية أن يتعدد بتعدد ما أضيف إليه بل المبدأ الخاص الذي يكون بجوهر ذاته و حاق تعينه مصداق الحيثية المذكورة التي يعبر عنها بصدور كذا و بترتب كذا- و يعبر عن مبدئها أيضا تارة بالحيثية و تارة بالخصوصية.

و بالجملة كل ممكن موجود فإنه متعلق الوجود و الوجوب بوجوب سابق هو وجوب حصوله عن الفاعل فوجوب

حصوله قائم بالفاعل كما مر ذكره في بيان كون كل ممكن محفوفا بالوجوبين و قد علمت من طريقتان أن هذا الوجوب السابق و إن كان صفة للممكن لكنه يتحصل بالفاعل و لا شبهة في أن وجوب زيد مثلا كوجوده يباين وجوب عمرو و لا يمكن أن يكون لذاتين متغايرتين وجوب واحد كما لا يمكن لهما وجود واحد و قيام هذا الوجوب السابق بفاعل الشيء كقيام إمكانه و قوة استعداده بقابله- و كما لا يكون لحادثين إمكان واحد سابق عليهما بالزمان فكذا لا يكون لمعلولين متغايرين- وجوب واحد سابق عليهما بالذات.

فإذن نقول وجوب صدور المعلول عن المبدإ الأول إما لذاته أو لأجل غيره- فإن كان لغيره لم يكن مستندا إليه بالذات و الكلام فيما يستند إليه بالذات لا لأجل واسطة و إن كان صدوره منه بغير واسطة و المبدأ مبدأ له لذاته و في ذاته بعينها وجوب وجود ذلك الأثر فإذا كانت ذاته أمرا واحدا حقيقيا فلا يتصور منه حصول شيئين على سبيل الوجوب في درجة واحدة.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۲۰۹

فالذي سبق إلى بعض الأوهام السخيفة أنه من الجائز أن يكون للواحد المحض بنفس ذاته مناسبة ذاتية بالنسبة إلى شيئين مثلا لا يكون تلك المناسبة له بالقياس إلى غيرهما من سائر الأشياء فهما يتعينان من بين الأشياء لأجل تلك المناسبة- بالصدور عنه في درجة واحدة.

فمن ساقط الاعتبار و مستبين الفساد عند التأمل فإن مطلق الخصوصية و الخصوصية الإضافية غير الخصوصية المعينة فهي كسائر المطلقات لا تغني عن الحاجة إلى التعيين.

فنقول إن ذينك الشيئين لا بد لهما من جهة اشتراك في مطلق الخصوصية الإضافية- و جهة خصوصية لكل منهما متميزا بها عن خصوصية صاحبه فإذن منشأ تلك المناسبة الذاتية التي تكون للمبدإ بالقياس إليهما أما إحدى الخصوصيتين بخصوصها فهي بعينها ملاك الصدور و مصحح المعلولية فلم يصح صدور الآخر منهما عن تلك العلة و أما القدر المشترك و مطلق الخصوصية من غير اعتبار شيء من الخصوصيتين في تحقق تلك المناسبة إلا على وجه الاتفاق و التبعية فقد عاد الأمر في صحة الصدور إلى مناسبة العلة للأمر الواحد المشترك فلا يصح صدور شيء من إحدى الهويتين المخصوصتين عنها بتلك المناسبة المشتركة فالمعلول بالحقيقة هو ذلك الأمر الواحد لو كانت وحدته وحدة تحصلية لا كالوحدات المبهمة المرسلة التي هي في الوجود و التحصل تفتقر إلى مخصص ذاتي مقوم للوجود و إن لم يكن مقوما للحد و المفهوم- فإذن انكشف أنه يستحيل صدور معلولين عن علة واحدة بسيطة في درجة واحدة من جهة واحدة

الفصل (٤) و هناك مساق آخر في البرهان على هذا الأصل إفادة الشيخ الرئيس في أكثر كتبه كالشفاء و الإشارات و التعليقات و غيرها

و هو أن مفهوم إن كذا في حد ذاته بحيث يصدر عنه ألف غير مفهوم إن كذا في حد ذاته بحيث يصدر عنه ب فالمفهومان المختلفان إما أن يكونا مقومين لتلك

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۲۱۰

العلة و إما أن يكونا لازمين لها و إما أن يكون أحدهما مقوما و الآخر لازما لها فإن كان المفهومان مقومين لتلك العلة كانت العلة مركبة لا واحدة من كل وجه و إن كان لازمين و اللازم معلول فيعود التقسيم من الرأس في أن مفهوم إنه صدر عنه أحد اللازمين- مغاير لمفهوم إنه صدر عنه اللازم الآخر فإن كان لا ينتهي إلى كثرة في المقوم لزم أن يكون كل لازم لازما بواسطة لازم آخر و هذا الكلام كل مع أنه يلزم منه إثبات لوازم مترتبة غير متناهية و فيه قول بإثبات علل و معلولات غير متناهية يلزم منه نفي اللوازم أصلا لأن تلك الماهية إما أن تقتضي لما هي هي أن يكون لها لازم أو لا تقتضي- فإن اقتضت كان ذلك اللازم لازما لما هي هي فيكون بغير وسط و قد فرض كلها بوسط هذا خلف و إن كانت الماهية لا تقتضي شيئا أصلا فهذا اعتراف بأنه ليس لها شيء من اللوازم.

فقد ظهر أن القول بإثبات اللوازم غير المتناهية يوجب فساد القول بها و أما إن جعل أحد المفهومين مقوما للعلة و الآخر لازما لها فحينئذ لا يكون المفهومان معا في الدرجة- لأن المقوم متقدم و المتقدم ليس ما ليس بمتقدم و يرجع حاصل ذلك إلى أن ذلك اللازم هو المعلول فقط فيكون المعلول واحدا فإنه حينئذ لا يكون حيثية استلزام العلة ذلك اللازم هي بعينها حيثية ذلك المقوم و يلزم أن يكون مبدأ حيثية الاستلزام غير خارج عن ذاته و إلا فعاد الكلام و على الجملة مع جميع التقديرات

الحكمة المتعالية فی الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۱۱

يلزم من صدور الاثنين عنه تركب و تكثر إما في ماهية العلة أو لأنها موجودة بعد كونها شيئا ما أو بعد وجودها بتفريق لها و الأول كما في الجسم بحسب ماهيته الجوهرية من مادة و صورة و من جنس و فصل.

و الثاني كما في العقل الأول بحسب التكثر الذي يلزمه عند وجوده من حيث تغاير ماهيته و وجوده.

و الثالث كما في الشيء المنقسم إلى أجزائه المقدارية المتأخرة عنه في الوجود أو إلى جزئياته و تلك أنحاء الكثرة قبل الوجود و مع الوجود و بعد الوجود فإذن كل ما يلزم عنه اثنان معا ليس أحدهما بتوسط فهو منقسم الحقيقة أو متكثر الهوية بوجه البتة.

فقد ظهر أن العلة الواحدة بما هي واحدة لا يصدر عنها أكثر من معلول واحد من غير توسط و إنما اشترط أن لا يكون شيء منهما بتوسط لأن الأشياء الكثيرة يصح أن تصدر جميعا عن الواحد الحقيقي و لكن لا في درجة واحدة بل البعض بتوسط بعض

الفصل (۵) في ذكر شكوك أوردت على هذه القاعدة و الإشارة إلى دفعها

قال صاحب التشكيك في المحصل-

مسألة العلة الواحدة يجوز أن يصدر عنها أكثر من معلول واحد عندنا خلافا للفلاسفة و المعتزلة لنا أن الجسمية يقتضي الحصول في المكان و قبول الأعراض احتجوا بأن مفهوم كونه مصدرا لأحد المعلولين غير مفهوم كونه مصدرا للآخر فالمفهومان المتغايران إن كانا داخلين في ماهية المصدر لم يكن المصدر فردا بل كان مركبا و إن كانا خارجين كانا معلولين فيكون الكلام في كيفية صدورهما عنه- كالكلام في الأول فيفضي إلى التسلسل و إن كان أحدهما داخلا و الآخر خارجا كانت الماهية مركبة لأن الداخل هو جزء الماهية و ما له جزء كان مركبا و كان المعلول أيضا واحد لأن الداخل لا يكون معلولا.

أقول هذا هو البرهان الذي نقلناه عن الشيخ مع تغيير لفظ المقوم في الشق الثالث بالداخل و بهذا التغيير أفسد صورة البرهان لعدم انحصار الشقوق في الثلاثة

الحكمة المتعالية فی الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۱۲

بل بقي شق رابع و هو أن يكون أحدهما عين المصدر و الآخر خارجا فكان يجب ذكره ثم يشار فيه إلى الخلف بأحد الوجهين أو كليهما من لزوم كون ما فرض معلولا علة و ما فرض اثنين واحدا.

ثم قال و الجواب أن مؤثرية الشيء ليست صفة ثبوتية على ما بيناه و إذا كان كذلك بطل أن يقال إنه جزء الماهية أو خارج عنها.

و قال المحقق الطوسي ره في نقده للمحصل أقول الأشعرية قالوا الصفة الواحدة لا تقتضي أكثر من حكم أما الذات الواحدة فلم يقولوا ذلك فيه إذ لم يقول بعلية ما عدا الصفات و المعتزلة و الفلاسفة قالوا بذلك في الذوات أيضا و صاحب الكتاب خالف الكل و الحصول في المكان أمر وجودي و معلول للجسمية من باب التأثير و قبول الأعراض ليس بوجودي عنده و هو و إن كان وجوديا عندهم لكنه من باب التأثر و هم لا يمنعون كون العلة الواحدة مع كونها فاعلة كونها منفعلة

الحكمة المتعالية فی الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۱۳

فليس هذا الدليل بصحيح و دليلهم غير مبني على كون المؤثرية ثبوتية بل مفهومه أن مؤثرية المؤثر الواحد في أثر لا يكون من جهة مؤثريته في غير ذلك الأثر ثم الجهتان إما داخلتان أو غير داخلتين إلى آخره.

ثم قال صاحب الكتاب و الذي يدل عليه هو أن مفهوم كون النقطة محاذية- لهذه النقطة من الدائرة غير مفهوم كونها محاذية للنقطة الأخرى و لم يلزم من تغاير هذه المفهومات كون النقطة مركبة و كذا مفهوم كون الألف ليس ب مغاير لمفهوم أنه ليس ج و لم يلزم من تغاير هذه السلوب وقوع الكثرة في الماهية فكذا هنا.

فقال الناقد المحقق أقول الإضافة و السلب لا يعقلان في شيء واحد و عندهم أن العلة الواحد لا يصدر عنها شيئان من حيث إنها واحدة و لا يمنعون صدور شيئين يقبلهما قابلان عنها فلا يتوجه النقض بالإضافة و السلب عليهم انتهى كلام ناقد المحصل بألفاظه و ستعلم منا الكلام في تحقيق الأمر من جهة صدق السلوب عليه تعالى و أنه من أي وجه يصح صدقها على ذات أحدية و الإشارة إلى قصور نظر القوم عن بلوغ الإصابة في ذلك.

و اعترض أيضا في بعض كتبه تارة في صورة النقض و تارة في صورة المعارضة بأن الواحد قد يسلب عند أشياء كثيرة كقولنا هذا الشيء ليس بحجر و ليس بشجر و قد يوصف بأشياء كثيره كقولنا هذا الرجل قائم و قاعد و قد يقبل أشياء كثيرة كالجوهر الواحد يقبل السواد و الحركة و لا شك في أن مفهومات سلب تلك الأشياء عنه و اتصافه بتلك الأشياء و قبوله لتلك الأشياء مختلفة و يعود التقسيم المذكور حتى يلزم أن الواحد لا يسلب عنه إلا واحد و لا يوصف إلا بواحد و لا يقبل إلا واحدا.

الحكمة المتعالية فی الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۱۴

و أجاب عنه المحقق الطوسي ره في شرح الإشارات أن سلب الشيء عن الشيء و اتصاف الشيء بالشيء و قبول الشيء للشيء أمور لا يتحقق عند وجود شيء واحد لا غير- فإنها لا تلزم الشيء الواحد من حيث هو واحد بل تستدعي وجود أشياء فوق واحد تتقدمها- حتى يلزم تلك الأمور لتلك الأشياء باعتبارات مختلفة و صدور الأشياء الكثيرة عن الأشياء الكثيرة ليس بمحال بيانه أن السلب يفتقر إلى ثبوت مسلوب و مسلوب عنه يتقدمانه- و لا يكفي فيه ثبوت المسلوب عنه فقط فكذلك الاتصاف يفتقر إلى ثبوت موصوف و صفة- و القابلية إلى ثبوت قابل و مقبول أو إلى قابل و شيء يوجد المقبول فيه و اختلاف المقبول كالسواد و الحركة يفتقر إلى اختلاف القابل فإن الجسم يقبل السواد من حيث ينفعل عن غيره و يقبل الحركة من حيث يكون له حال لا تمنع خروجه عنها و أما صدور الشيء عن الشيء فأمر يكفي في تحققه فرض شيء واحد هو العلة و إلا امتنع استناد جميع المعلولات إلى مبدإ واحد انتهى كلامه.

أقول جميع ما ذكره في هذا الكلام صحيح إلا الذي دفع به النقض بالسلوب- فإن لأحد أن يقول سلب الشيء عن الشيء لا يتوقف على ثبوت الشيء المسلوب فالواحد الحق تعالى في أي مرتبة فرض متصف بسلب جميع ما عداه عنه و هذا إشكال قوي

الحكمة المتعالية فی الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۱۵

لا يمكن التفصي عنه إلا بما حققناه فإن حيثية سلب الحجرية عن الإنسان لا يمكن أن يكون بعينها حيثية وجوده من حيث هو وجوده و لا أيضا وجود الحجر و هو ظاهر- فلا بد من تركيب في المسلوب عنه كالإنسان في مثالنا هذا حسب ما مر بيانه في مسألة توحيد الواجب تعالى و في تحقيق أن البسيط يجب أن يكون كل الأشياء

فحق الجواب عن هذا الإشكال

أن صدق تلك السلوب كلها لكونها سلوب النقائص و إعدام الإعدام يرجع إلى إثبات الوجود التام الكامل الذي هو منشأ كل موجود- و تمام كل كائن و غاية كل كمال فلا فقد هناك أصلا إلا فقد الفقد و لا سلب إلا سلب السلب و هو نفس الوجود الواجب الأحد التام.

الحكمة المتعالية فی الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۱۶

و أما الذي تفصى به الفاضل الدواني في حواشي شرح التجريد عن هذا الإشكال- من أن السلب يعتبر على وجهين الأول على وجه السلب المحض و حينئذ لا يكون شيئا منضما إلى العلة يتعدد العلة لأجله بل مصداقه أن يوجد ذات العلة و ينتفي غيرها- و حينئذ لا يعقل تعدد العلة و الثاني أن يعتبر له نحو تحقق لينضم إلى العلة و له بهذا الاعتبار نحو من الوجود و لا يحصل إلا بعد صدور الكثرة فلا يتعدد الصادر الأول لأجلها لأن تحققها بعده فتأمل انتهى كلامهفليس مما فيه جدوى لأن الذي استصعب في هذا المقام- أنا نعلم أن سلوب أشياء كثيرة صادقة على الأول تعالى بمعنى أن ذاته بذاته بحيث متى لاحظ العقل شيئا من تلك الأشياء حكم بأنها مسلوبة عنه تعالى في بدو الأمر و أزل الآزال قبل وجود هذه الأشياء فلا مدخل لانضمام هذه الأشياء في مصداقية تلك السلوب فالسلب المعتبر على الوجه الأول من الوجهين الذين ذكرهما و هو المأخوذ على وجه السلب المحض- و إن لم يحتج إلى انضمام شيء إلى العلة لكن يحتاج صدقه إلى أن يكون بإزائه في الموضوع و فيما يصدق عليه شيء.

و قوله بل مصداقه أن يوجد ذات العلة و ينتفي غيرها موضع خلط فإن مفهوم أن يوجد ذات العلة غير مفهوم أن ينتفي غيرها عنها و لا يجوز أن يكون حيثية الوجود بعينها حيثية الانتفاء و لو فرض بالقياس إلى أمرين كما مر.

و قال بعض أكابر الأعلام دام ظله في هذا المقام لدفع تلك النقوض التي أوردت

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۱۷

على أصل الحجة إنه لا مساق للاعتراض على هذه الحجة في شيء مما أورده أما الأول فلأن السلب البسيط بما هو سلب بسيط ليس يحوج صدقه إلى علة أو علية بل إنما مناطه انتفاء تحقق علة لصدق الإيجاب و أما الأخيران فلأن شيئا من الاتصاف بالأشياء من الكثيرة و قبول الأشياء الكثيرة بالفعل ليس يتصحح إلا من تلقاء الإسناد إلى حيثيات تعليلية مختلفة فلا نقض و لا معارضة هناك أصلا و إنما يتوجه شيء منهما لو لم يختلف الحيثية مطلقا انتهى كلامه.

أقول إن السلب البسيط قد يكون واردا على النسبة الحكمية و يكون مفاده مفاد القضية السالبة فلا حاجة فيها إلى مطابق للحكم كما لا يحتاج إلى وجود موضوع من تلك الجهة و أما إذا صار في طرف الحكم أو جزء المحمول حتى يكون مفاد الحكم به مفاد قضية موجبة سالبة المحمول فلا بد هناك من وجود موضوع مطابق لذلك السلب البسيط و قد ثبت في ضابطة علم الميزان تسويغ رد السوالب إلى الموجبات عند وجود الموضوع فكلما صدق أن ليس كذا بجسم صدق أن كذا ليس بجسم فالسالبة البسيطة و الموجبة السالبة المحمول متلازمتان في الصدق و التحقق عند وجود الموضوع- فإذا كان كذلك و لا شبهة في أن مفاد الموجبة هو الحكم باتحاد الطرفين أعني الموضوع و المحمول فلا بد لذلك السلب من نحو من الوجود سيما إذا كان مصداق الحمل نفس ذات الموضوع و كان الحمل حملا بالذات لا بالعرض.

فإذن لا بد من تحقق تركيب في ذات الموضوع ليصح بحسبه كونه موجودا كذا- و كونه موجودا ليس كذا كما تقول الإنسان ليس بفرس ففيه تركيب من أمر به يوجد إنسانا و من أمر به يوجد لا فرسا و ليست حيثية الإنسانية بعينها حيثية اللافرسية كما مضى فلا بد في التخلص عن الإشكال المذكور باعتبار صدق السلوب على ذاته تعالى من المصير إلى ما سلكناه.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۱۸

و لذلك قال بعض المحققين إن جميع السلوب عن ذاته يرجع إلى سلب واحد- هو سلب الإمكان و مرجعه إلى وجود الوجود و وجه ذلك أن الإمكان معنى سلبي و يندرج تحته جميع النقائص و القصورات و القوى و الأعدام فسلب الإمكان عن شيء يستلزم سلب الكثرة و التركيب و الماهية و الجسمية و الجوهرية و العرضية و غير ذلك عنه فسلب كل منها عن الواجب يرجع إلى سلب الإمكان عنه و سلب الإمكان لكونه سلب سلب ضرورة الوجود من حيث ذات الموجود في نفسها بما هي هي هو بعينه ضرورة الوجود و وجوب الذات من حيث هي هي.

أقول و كذا الإشكال الوارد على الأصل المذكور من جهة اتصافه تعالى بصفات إضافية كثيرة لا يندفع بما ذكروه في وجه التفصي من أن تحقق هذه الإضافات إنما هو بعد وجود الأشياء التي يقع الإضافة له تعالى إليها و تكثرها تابع لتكثر تلك الأشياء- فإن لأحد أن يقول إنا نعيد الكلام إلى مبادي هذه الإضافات و موجباتها فإن أكثرها بل كلها مما يحتاج إلى مبدإ و خصوصية ينشأ منه الإضافة كالعلم و القدرة و الإرادة

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ٢١٩

و ما يجري مجراها أ لا ترى أن علمنا بزيد و قدرتنا عليه و إرادتنا له ليس مجرد نسبة بيننا و بينه بل فينا صفة مستقرة بإزاء إضافتنا إليه و كذا علمنا بزيد و قدرتنا عليه و إرادتنا له- غير علمنا بعمرو و قدرتنا عليه و إرادتنا له كيف و القوم قائلون بأنه تعالى يعلم جميع الممكنات في الأزل على الوجه التفصيلي قبل تكونها.

فالحق في الجواب أن يقال إن إضافته إلى الأشياء لا يتكثر بحسب الحقيقة كما أن صفاته الحقيقية لا تتكثر بحسب الحقيقة بل هوية الكل هوية واحدة وجودية فعالميته تعالى بكل أحد من المعلولات بعينها قادريته عليه و هي بعينها مريديته له و أما تكثر إضافته تعالى إلى الأشياء بالعدد فإنما يكون على ترتيب و نظام لا يقدح في وحدته تعالى فإن إضافته إلى المعلول الأول مبدأ لإضافته إلى المعلول الثاني و هي لإضافته إلى الثالث و هكذا يتكثر الإضافات حسب تكثر المعلولات طولا و عرضا في سلسلة الإبداع و التكوين و كما أن الترتيب الواقع في ذوات المجعولات طولا و عرضا مما يصحح صدور الكثرة عن الواحد الحق فكذا ترتب الإضافات على هذا الوجه يصحح اتصافه تعالى بكثرة الإضافات

وهم و تنوير

و ربما توهم متوهم أنه إذا كان صدور المعلول عن العلة بحسب الخصوصية و المناسبة

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ٢٢٠

فلا يكون العلة علة لذاتها بل باعتبار تلك الخصوصية و المناسبة فلا يكون واحدا حقيقيا لاشتمالها على أمرين مختلفين هما نفس الذات و اعتبار الخصوصية.

فإذن لا يتصحح صدور المعلول الواحد عن العلة الواحدة إذ كل علة تكون لا محالة مركبة متكثرة بهذا الاعتبار فانسد بذلك إثبات أن أول الصوادر يجب أن يكون أمرا وحدانيا لجواز كونه مركبا لتركب ما هو علته فيزاح بأن الخصوصية إنما يراد بها هناك- ما هو مبدأ استيجاب التخصيص لمعلول معين بالصدور عن العلة دون غيره و التعبير بالخصوصية لضيق العبارة.

و بالجملة المراد بها مصداق مفهوم الخصوصية و ملاك صدقها و ذلك الأمر في صورة صدور الواحد عن المبدإ الأول يجب أن يكون عين ذاته و أما في صورة صدور الأشياء المتعددة لو فرض صدورها في درجة واحدة معا فلا يمكن أن يكون الخصوصية التي بحسبها يصدر بعضها هي بعينها التي بحسبها يصدر البعض الآخر اللهم إلا خصوصية مرسلة نسبتها إلى الكل واحدة فيحتاج في صدور كل منها إلى خصوصية أخرى- متميزة عن غيرها مع فرض الاشتراك في خصوصية ما مطلقة ليصح بها صدوره بعينه- فالأشياء إذا تساوت نسبتها بالصدور إلى مبدئها و استوت نسبة مبدئها إليها بالإيجاد- لزم تساويها في جميع ما لها حتى في الوجود و التشخص فلا يتصور هناك أمور متكثرة و موجودات متعددة.

قال المحقق في شرح الإشارات لا يقال الصدور أيضا لا يتحقق إلا بعد تحقق شيء يصدر عنه و شيء صادر لأنا نقول الصدور يطلق على معنيين أحدهما أمر إضافي يعرض للعلة و المعلول من حيث يكونان معا و كلامنا ليس فيه و الثاني كون العلة بحيث يصدر عنها المعلول و هو بهذا المعنى متقدم على المعلول ثم على الإضافة العارضة لهما و كلامنا فيه

و هو أمر واحد إن كان المعلول واحدا و ذلك الأمر قد يكون ذات العلة بعينها إن كانت العلة علة لذاتها و قد يكون حالة تعرض لها إن كانت علة لا لذاتها بل بحسب حالة أخرى أما إذا كان المعلول فوق واحد فلا محالة يكون ذلك الأمر مختلفا و يلزم منه التكثر في ذات العلة كما مر انتهت عبارته.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۲۱

بحث و تحصيل

ذكر أستادنا السيد الأمجد دام مجده و بقاؤه إيرادا على الجواب المذكور بقوله التفتيش الغائص و الفحص البالغ هو أنه سبحانه بنفس ذاته الأحدية فاعل جوهر الصادر الأول و العلية الصدورية بالمعنى الثاني غير الإضافي الذي ذكره بالنسبة إلى الصادر الأول هو من مراتب الاعتبارات السابقة على وجوده و تقرره و هي كون الباري الفعال بذاته بحيث يجب صدور المعلول الأول بخصوصه عنه فهذا المعنى غير الإضافي متقدم على ذات المعلول الأول ثم على العلية الصدورية الإضافية التي هي فرع وجود المتضائفين فهذا المعنى كما أنه متقدم بالمرتبة العقلية على ذات المعلول الأول و مستتبع إياه في الاعتبار العقلي فكذلك هو متأخر عن مرتبة ذات الباري الفعال و لازم له و ليس هو عين ذاته تعالى إنما العلية الصدورية غير الإضافية- التي هي عين ذاته تعالى معناها كونه بحسب مرتبة ذاته بحيث يجب عنه بالذات صدور كل ما هو خير مطلقا لنظام الوجود على الإطلاق فإذن للعلية الصدورية معنيان غير

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۲۲

إضافيين و معنى ثالث إضافي و الذي هو عين ذاته من الأولين هو حيثية إفاضة الخيرات المطلقة على الإطلاق بالذات لا الذي هو بحسب خصوصية ذات معلول خاص بخصوصه- فالذي هو بحسب خصوصية ذات المعلول الأول إنما هو لازم نفس ذاته تعالى لا أنه عين مرتبة ذاته

و البرهان علية من سبل ثلاثة.

الأول أن اعتبار وجوب صدور المعلول الأول بخصوصه

الذي هو أحد معنيي العلية الحقيقية المتقدمة بالذات على ذات المعلول متأخر بالذات عن مرتبة إمكانه- و متقدم على مرتبة وجوده كما عرفت في ترتيب المراتب العقلية السابقة على مرتبة وجود المعلول فما يكون متأخرا عن مرتبة إمكان المعلول كيف يصح أن يكون عين ذات مبدع الكل.

الثاني أن وحدة المعلول الأول عددية فكذلك العلة

هي بالنسبة إليه بخصوصه يكون واحدة بالعدد أيضا و وحدة الحق تعالى و كبرياؤه متقدسة عن الدخول في باب الأعداد.

الثالث أنه إنما يصح أن يكون عين ذاته سبحانه

من الصفات الكمالية ما يكون كمالا مطلقا للوجود بما هو وجود و من المستبين أن كونه جل ذكره بحيث يصدر عنه بالفعل هذا المعلول ليس هو من الكمالات المطلقة للوجود بما هو وجود مع عزل النظر عن كل اعتبار سواه و كل خصوصية دونه بل هو من أوصاف المجد و الكبرياء له جل ذكره- بالقياس إلى هذا المعلول بخصوصه و بالجملة علوه

و مجده هو أنه في ذاته بحيث يصدر عنه كل خير و يفيض عنه كل وجود و كل كمال وجود لا أن هذه الذات بخصوصها صنعه

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ٢٢٣

و هذا الوجود بخصوصه فيضه فالأخير كماله و مجده بحسب النسبة إلى خصوصيات الموجودات- و الأول مجده و كماله بحسب ذاته على الإطلاق و كذلك عزه و علاه جل سلطانه هو أن ذاته بحيث يدبر نظام الوجود و يخلق كل ماهية و إنية و يفعل كل ذات و وجود و كل كمال ذات و كمال وجود لا أن نظام الوجود بالفعل صوغه و صيغته و الموجودات بأسرها خلقه و خليقته و لذلك كان كماله في فعاليته و خلاقيته قبل وجود الممكنات و عند وجودها على سنن واحد كما مر نظيره في عالميته تعالى بكل شيءانتهى ما ذكره باختصاره.

أقول و في كلام هذا السيد الأجل موضع أبحاث.

الأول أنه يلزم على ما ذكره

أن يكون الصادر الأول عن الواجب أمرين أحدهما العقل الأول و الآخر تلك الخصوصية الزائدة على ذاته كما نص عليه مرارا في ما ذكره من الكلام و في ذي قبل في فصل آخر و ذلك ممتنع لا يقال لا يلزم مما ذكره كونهما معا في درجة واحدة بل الخصوصية سابقة على جوهر المعلول الأول في الوجود لأنا نقول

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ٢٢٤

فالصادر الأول بالحقيقة هو تلك الخصوصية لا غير فيحتاج صدورها إلى خصوصية أخرى بالقياس إليها و تلك الخصوصية السابقة عليها أيضا زائدة على ذاته حسب ما قرره و الكلام عائد في صدورها فيتسلسل الخصوصيات إلى غير النهاية لا يقال لعل تلك الخصوصية زائدة في اعتبار العقل و تحليله لا في الخارج فيكون من العوارض التحليلية لذاته تعالى.

لأنا نقول ليس الواجب جل ذكره ذا ماهية حتى يجري فيه التحليل العقلي- كما يجري فيما له وحدة خارجية و كثرة عقلية و الواجب منزه عن أنحاء الكثرة مطلقا- فكما هو بسيط في الخارج بسيط من كل وجه و كما ليس يمكن فيه عارض و معروض بحسب الوجود كذلك لا يمكن بأي اعتبار أخذ.

الثاني أن حيثية كونه تعالى

بحيث يصدر عنه المعلول الأول هي بعينه حيثية كونه سبحانه بحيث يصدر عنه كل خير و يفيض عنه النظام الأتم و الإنسان الكبير فإن نسبة العقل الأول إلى مجموع العالم و جملة النظام كنسبة صورة الشيء

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ٢٢٥

ذي الأجزاء إلى أجزاء ذلك الشيء و قد مر أن الشيء شيء بصورته لا بمادته و أن صورة الشيء هي نفسه و تمامه و قد علمت أيضا أن العقل كل الأشياء التي بعده على وجه أشرف و ألطف فمتى قلت العقل فكأنك قلت العالم كله فحيثية صدوره لا تغاير حيثية صدور النظام الجملي إلا باعتبار الجمال و التفصيل و قد علم أن المفصل عين المجمل بالحقيقة و

غيره بالاعتبار.

فإذن نقول كما أن كونه تعالى بحيث يفيض عنه الخير كله و يعلم الأشياء كلها عين ذاته المقدسة فكذا كونه بحيث يفيض عنه العقل و يعلمه عين ذاته بلا تغاير حيثية-

الثالث أن كون إيجاب العلة للمعلول بعد مرتبة إمكانه

حين ما كان المنظور إليه حال ماهية ذلك المعلول لا ينافي كونه سابقا في الوجود علية و لا أيضا عينية الشيء و تحققه في الخارج ينافي كونه من الاعتبارات العقلية لماهية من الماهيات إذا قيس مفهومه إليها فإن المنظور إليه إذا كان حال ماهية الشيء و عوارضها و أحكامها

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ٢٢٦

كان نفسها لنفسها متقدمة على جميع الأغيار حتى موجب وجودها و علة كونها و كان الحكم بنفسها على نفسها مقدما على كل حكم و بعده الحكم عليها بالإمكان ثم بالحاجة في الوجود إلى الغير ثم بإيجاب الغير وجودها و وجوب وجودها به ثم بأنها موجودة مع أن الوجود- الذي به توجد متقدم عندنا عليها في الواقع و كذا إيجاب العلة متقدم على ذلك الوجود- فلا منافاة بين كون خصوصية الإيجاب و ما به ينشأ وجود المعلول عين حقيقة المبدإ- و بين أن نسبتها بحسب المفهوم إلى ماهية المعلول في اعتباراتها العقلية متأخرة عنها و عن إمكانها.

الرابع أن كون وحدة الصادر الأول عددية

على تقدير التسليم لا نسلم أن ما بإزائها من المبدإ يجب أن تكون وحدة عددية و لا يجب انحفاظ نحو الوحدة في جانبي العلة و المعلول و الذي يجب انحفاظه من الجانبين هو أصل الوحدة مع أن وحدة العلة لا بد و أن تكون أقوى و أشرف على أن ما ذكره بعينه جار فيما أخذت خصوصية العلية الصدورية بالقياس إلى مجموع العالم فهل لمجموع العالم وحدة أقوى و أفضل من وحدة المعلول الأول و الوحدة التي من باب الأعداد هي مما يتصور بإزائها و من نوعها أو جنسها وحدات أخرى ذهنا أو خارجا يندرج معها تحت طبيعة واحدة فمتى يسوغ هذا المعنى في العقل من جهة وقوعه في العقل تحت ماهية كلية فكذا يجري في النظام الجملي من جهة وقوعه تحت ماهية كلية عند العقل و كون المركب ذا ماهية أولى من كون

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ٢٢٧

البسيط ذا ماهية على أنك قد علمت أن البسيط لا ماهية له و أن العقل إنية بلا ماهية و المغايرة بينه تعالى و بين الهويات البسيطة و الإنيات المحضة بالتقدم و التأخر و الكمال و النقص.

الخامس أن قوله كونه جل ذكره بحيث يصدر عنه هذا المعلول بالفعل بخصوصه

ليس هو من الكمالات المطلقة للموجود بما هو موجود غير مسلم بل وجود العقل بالفعل مطلقا من الكمالات المطلقة لطبيعة الموجود بما هو موجود فضلا عن وجود الخصوصية المصدرية التي هي مبدؤه و منشؤه و التخصيص الذي ينافي كون الشيء من عوارض الموجود بما هو موجود و من كمالات الوجود المطلق هو ما يصير به الشيء نوعا متخصص الاستعداد كأن يصير أمرا طبيعيا أو تعليميا فكل ما يصح أن يلحق الموجود المطلق من غير أن يكون مشروطا

بتغير أو تقدر أو تكثر أو انفعال فهو من عوارض الوجود المطلق و كمالاته و إن كان بتقدم و تأخر و شدة و ضعف و لذلك يبحث

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۲۸

عنه في علم ما فوق الطبيعة معنى و ماهية و في علم الربوبيات وجودا و إنية

إشعار تنبيهي

قد ذكر صاحب روضة الجنان قريبا من الإيراد المذكور بوجه آخر على قولهم يجب أن يكون للعلة خصوصية بالقياس إلى معلول معين- لا يكون لها تلك الخصوصية بالقياس إلى معلول آخر لها فإذا كان المعلول واحدا جاز أن يكون تلك الخصوصية عين الفاعل البسيط و إلا لم يجز بقوله و أيضا الخصوصية التي هي عبارة عن ذات الفاعل الواحد الحقيقي لا يمكن أن تسلب عنها بالقياس إلى غير معلولها فإن ذات الشيء لا يمكن أن يسلب عنه أصلا لكن الخصوصية له بالقياس إلى معلول معين مسلوبه عنه إذا قيس إلى غير ذلك المعلول فهي ليست ذات الفاعل فقط بل هي عبارة عن الفاعل مع مناسبة مخصوصة زائدة عليه و ارتباط خاص ينضم إليه فلا يكون واحدا حقيقيا ثم أجاب عنه بأن معنى كون الخصوصية عين ذات الفاعل- أن بها بنفسها يتعين ذات المعلول من غير انضمام معنى آخر أجنبي إليه أصلا و ليس الذات مع غير هذا المعلول كذلك و لا يلزم منه أن يسلب عن نفسها بمجرد ذلك- فتدبر و جد تجد انتهى كلامه و مراده أن الخصوصية التي بها يصدر المعلول الأول- عن الواجب جل ذكره هي عين ذاته و سائر الخصوصيات التي بها يصدر عنه ما سوى المعلول الأول هي أمور منضمة إليه و التحقيق ما قررناه.

نور مشرقي يزاح به ظل وهمي-

قد أورد بعض المتأخرين من الأذكياء نقضا على البرهان المذكور من أنه لو صدر عن الواحد أمران مثل ا و ب فصدور ا ليس صدور ب فاتصف المبدأ بالنقيضين بعد قوله و أجيب بأن نقيض صدور ا لا صدور ا لا صدور لا ألف و رد بأن صدور ب ليس صدور ا فاتصف بصدور ا و بلا صدور ا فإذا لم يكن الذات واحدا حقيقيا- جاز اتصافه بهما من جهتين و إذا كان واحدا حقيقيا لم يجز اتصافه بهما لعدم التعدد بهذه العبارة أقول لو تم ما ذكروه لزم أن لا يصدر عن الواحد واحد أيضا بل

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۲۹

لا يكون الواحد موجودا إذ كل موجود متصف بصفتين اعتباريتين و أقلهما الواحدة و الشيئية و المفهومية و الجزئية و غير ذلك فاتصف بالوحدة و بما ليس بوحدة و بالوجود و بما ليس بوجود إلى غير ذلك فحاصل كلامهم على هذا التقدير قضية اتفاقية مبنية على عدم إمكان الواحد الحقيقي و يلزم أن لا يصدر عنه اثنان فما ذكروه مغلطة سخيفة انتهى.
أقول البرهان المذكور في غاية الإحكام و المتانة و لا يمكن القدح في مواده و مقدماته لأنها قضايا ضرورية و مواد برهانية ليست خطابية و لا جدلية و لا شعرية و لا مغالطية و صورتها صورة منتجة لأنه قياس استثنائي يستثني نقيض التالي لينتج نقيض المقدم هكذا متى صدر عن الواحد الحقيقي أمران كا و ب كان متصفا بالنقيضين و هما صدور ا و لا صدور ا لكن التالي باطل فالمقدم كذلك و بيان اللزوم ما مر و يمكن تصويره على صورة قياس شرطي اقتراني كما

يسهل ذلك على من له قدم في فن الميزان فإذا كان القياس برهانيا ثم اشتبه تخلف حكم النتيجة في موضع- فلا يوجب ذلك الاشتغال بالقدح على البرهان الصحيح مادة و صورة كما هو شأن أكثر الناقضين و الجدليين بل ينبغي للعاقل الطالب للحق أن يشتغل بالفحص و التفتيش

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۳۰

ليتضح عليه جلية الحال و يرتفع شبهة ما يختلج بالبال.

فنقول في رفع ما ذكره من أن كل موجود يتصف بمفهومات متعددة كالوجود و الشيئية و الجزئية و غير ذلك إنا قد أشرنا سابقا أن تغاير المفهومات و اختلافها بحسب المعنى لا يوجب تكثرا في الذات لا في الخارج و لا في العقل بحسب التحليل و هكذا الحال في صفات الواجب تعالى فإن مفهوماتها متغايرة لا محالة إذ ليست العلم و القدرة و الإرادة و الحياة و السمع و البصر ألفاظا مترادفة و لا أن إطلاقها أو إطلاق بعضها عليه تعالى على سبيل المجاز المرسل أو التشبيه تعالى عن الشبه علوا كبيرا.

فهي مع كونها مغايرة المعاني و المفهومات كلها موجودة بوجود واحد متشخصة بتشخص واحد لا بمعنى أن الوجود زائد على ذاتها و لا أن وجودها شيء غير تشخصها- و لا أن وحدتها غير وجودها بل الوجود الواحد الأحدي بنفس أحديته مصداق لهذه المعاني و مطابق بذاته و فردانيته للحكم بها عليه من غير أن يقتضي صدقها عليه تغايرا في الذات و لا في عوارض الذات حتى يصير الموصوف بها مركبا في ذاته من أمرين سواء كان التركيب خارجيا- كالجسم المركب من مادة و صورة في الوجود أو ذهنيا كالماهية المركبة من جنس و فصل كالإنسان المأخوذ في حده ماهية الحيوان و الناطق فإنا إذا وجدنا جسم النار و قد صدق عليها أنها في ذاتها شاغلة للحيز و أنها حارة نحكم بأن حقيقتها مركبة في الخارج من مادة مشتركة و صورة مخصوصة لأن اتصافها بأنها شاغلة للحيز من جهة ذاتها أمر يعم الأجسام فهو إذن لأجل جسميتها التي هي مادة مشتركة بينها و بين غيرها من الأجسام و لهذا تنقلب إلى عنصر آخر فينتقل المادة من صورتها إلى صورة أخرى و اتصافها بأنها حارة في نفسها أمر يخص بها فهو لأجل صورتها فالاتصاف بتينك الصفتين يوجب تركيبا في ذات الموصوف بهما تركيبا خارجيا

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۳۱

و كذا اتصاف الإنسان بالحياة و النطق يوجب في الموصوف تركيبا عقليا بحسب الماهية.

و إن ناقش في المثال فلنمثل له مثالا آخر من البسائط الخارجية فنقول اتصاف الخط بمطلق المساوات و المفاوتة من جهة مطلق الكمية و هو جنسه البعيد- و اتصافه بأن أجزاءه مجتمعة في آن واحد من جهة اتصاله و هو فصله البعيد- و اتصافه بالاستقامة من جهة فصل آخر تحت جنسه المتوسط و اتصافه بالاستقامة- مثلا من جهة فصل آخر قريب فهذه الأمور مما يوجب الاتصاف بها تركيبا في ماهية الخط من معان متعددة و ذاتيات متكثرة بحسب العقل في ظرف التحليل و إن كانت موجودة في الخارج بوجود واحد كما أن اتصافه بكونه ضلعا لزاوية و قطر المربع و سهما لمخروط و وترا لقوس يوجب كثرة في العوارض و اختلافا في الحيثيات التعليلية المؤدي- إلى كثرة العلل و الأسباب و بالجملة اتصافه سبحانه بصفاته الكمالية من العلم و القدرة و غيرها لا يستلزم كثرة لا في الداخل و لا في الخارج لا في الذات

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۳۲

و لا في عارض الذات لا في الوجود و لا في الماهية لا في العين و لا في الذهن لا في الحقيقة و لا في الاعتبار و كذلك الصفات الاعتبارية التي يجوز اتصافه تعالى بها كالموجودية و المعلومية و الشيئية و العلية و السببية و المبدئية و الأولية ليست مما يوجب تكثرا و اختلافا لا في العين و لا في الذهن فإن الاعتباريات التي تستلزم اختلافا بالحيثيات و الجهات هي مثل الإمكان و الوجوب و القدم و الحدوث و التقدم و التأخر و لهذا حكموا بأن كل ممكن زوج تركيبي لاشتماله على الإمكان و الوجود و حكموا بأن إمكانه لأجل ماهيته و وجوده لأجل إيجاب علته و كذا عدم حصوله في مرتبة من مراتب الواقع مع حصوله في الواقع مما يستلزم تركبا عقليا في ذاته كما أن عدم حصوله في وقت مع حصوله في وقت آخر مما يستلزم تركيبا خارجيا في ذاته من مادة و صورة فهذه الصفات و إن كانت اعتبارية توجب كثرة في الموصوف.
و أما التي ذكرها المعترض نقضا على الحجة المذكورة من الوحدة و الشيئية و المفهومية و غيرها فليست مما يقتضي كثرة و اختلافا أصلا لا في الذات و لا في حيثية الذات و لا في الصفة و لا في حيثية الصفة إلا مجرد المغايرة في المعاني و المفهومات و قد مر غير مرة أن اختلاف المفهومات أنفسها لا يستلزم ضرورة اختلافا في ذات الشيء و لا في صفته و لا في اعتباره هكذا يجب أن يفهم الإنسان الموحد اتصافه تعالى بالصفات الحقيقية- و بالصفات الاعتبارية و بالإضافات و السلوب حسب ما قررناه و أوضحنا سبيله و بينا دليله- ليصفوا توحيده عن شوب الإشراك و إلا فيقع في ضرب من الإشراك و الإلحاد أو التعطيل- كما لأكثر المعطلين الذين جعلوا الله عضين و الله ولي الفضل العظيم

حكمة عرشية يبطل بها شبهة فرشية

لعلك ترجع و تقول رادا علينا مناقضا لما قررنا من اتحاد حقيقة العلم و القدرة و الإرادة و غيرها من نعوت الكمال و صفات الجمال عينا و عقلا بلا اختلاف حيثية لا في الخارج و لا في الذهن و لو بحسب الاعتبار بأنه لو كان الأمر كما قررت و صورت لكان

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۳۳

كل عالم قادرا و كل قادر مريدا بل يلزم من ذلك كون كل موجود عالما قادرا حيا مريدا- مع أن الواقع ليس كذلك بديهة و اتفاقا فإن كل أحد يعلم أن الأحجار و الجمادات ليست علماء قادرين مريدين قلنا لو كنت أيها المناظر المتعرض ذا قلب منور بنور الكشف و العرفان و ذا بصيرة غير محتجبة بحجب الأغشية و الأكوان لشاهدت جميع الموجودات التي في الأرض و السماوات عقولا كانت أو نفوسا أو صورا أو أجساما أو أعراضا- أحياء عالمين قادرين مريدين لكن على تفاوت وجوداتها فإن هذه الصفات إذا كانت متحدة مع الوجود كانت شدتها و ضعفها و كمالها و نقصها و خلوصها و شوبها تابعة لشدة الوجود و ضعفه و كماله و نقصه و خلوصه و شوبه فالمادة الجسمية إذا حقق الأمر في نحو وجودها الخارجي ظهر أن وجودها متضمن للعدم و ظهورها مندمج في الخفاء و حضورها متحصل بالغيبة و بقاءها منحفظ بالتجدد و الزوال و استمرارها منضبط بتوارد الأمثال و ذلك من وجهين.
أحدهما من جهة الامتداد و الانبساط في المكان و افتراق كل جزء منها عن سائر الأجزاء في الكون الوضعي و الوجود التحيزي و قد علمت أن كونها في الوضع و الحيز هو بعينه نحو وجودها فاختلاف أجزاء الجسم في الوضع و المكان

هو بعينه اختلافها في الوجود و التشخص و كون أجزاء الجسم بحيث حضور كل منها يستصحب عدم سائر الأجزاء هو مقوم ذاته و حقيقة وجوده و محصل ماهيته و هويته الاتصالية فذاته

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۳۴

متقومة بالأعدام و الاحتجابات فذاته في غشاوة من ذاته لأن ذاته محتجبة عن ذاته بذاته و غائبة عن نفسها بنفسها فضلا عن أن يكون الشيء محتجبا بشيء آخر عن نفسه أو خافيا بنفسه عنه شيء آخر أو غائبا بنفسه عن شيء آخر.

و ثانيهما من جهة تجدد الطبيعة في الوجود و تبدلها في الكون و سيلانها كالماء الجاري شيئا فشيئا و دثورها آنا فآنا و حدوثها في كل حين بنحو آخر فهاتان الجهتان برهانان على أن ليس للصورة الجرمية الهيولانية وجود علمي شعوري لا لذاتها و لا لغيرها إلا بواسطة صورة مأخوذة منها مطابقة إياها يكون لها حضور جمعي غير مادي- و لا مخلوط بالأعدام و الظلمات و الحجب و الجهالات فإن كل ما فرض منها علما أو عالما في أي آن مفروض كان غيره في سائر الآنات و الأزمنة و كل ما فرض حياة أو حيا في حين مفروض كان موتا أو فسادا في باقي الأحيان فلم يوجد منها علم مستمر و لا حياة باقية و لا إرادة ثابتة كحال أصل الوجود إذا دقق أحد النظر و حدق البصر فإنه يجد أن نقصان الأجسام و الماديات في الوجود هو بعينه نقصانها في العلم و الحياة و الإرادة فكما أن أصل طبيعة الوجود فيها تشوب بالعدم حتى صار وجودها ضربا من العدم لغاية النزول و الخسة فكذلك صورها التي في الخارج كأنها صورة علمية قد نقصت و ضعفت و تكدرت بدخول النقائص و القصورات في ذاتها فصارت علما كلا علم و حياة كالموت و إرادة كالكراهة و قدرة هي بعينها العجز و سمعا هو الصمم و بصرا هو العمى و كلاما هو السكوت.

فما ورد في الكلام الإلهي من قوله جل ذكره **وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰكِنْ**

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۳۵

لاٰ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ و قوله **وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ** و ما حكمت به مكاشفات أئمة الكشف و الوجدان و أصحاب الشهود و العرفان أن جميع ذرات الأكوان من الجماد و النبات فضلا عن الحيوان أحياء ناطقون ساجدون و مسبحون بحمد ربهم فهو إما لأجل أن الوجود و كمالاته من الصفات السبعة متلازمة بعضها لبعض غير منفكة شيء منها عن صاحبه ذاتا و حيثية فكل ما وقع عليه اسم الوجود لا بد و أن يقع عليه أسماء هذه الأئمة السبعة من الصفات إلا أن العرف العام أطلق اسم الوجود على بعض الأجسام دون اسم القدرة و العلم و غيرهما لاحتجابهم عن الاطلاع عليها و إما لأن لكل نوع من الأجسام الطبيعية صورة أخرى مفارقة مدبرة لهذه الصور الطبيعية فياضة عليها بإذن الله مبدع الأمر و الخلق بإيراد الأمثال و تلك الصور المفارقة لكونها مقومة لهذه الصور الطبيعية نسبتها إلى هذه كنسبة الأرواح إلى الأجساد و بين الجسد و الروح نسبة اتحادية كما ستقف عليه فهي حية بحياتها عارفة بعرفانها بالحقيقة لا بالمجاز كما ظنه من لم يعرف الفرق بين الجسم بالمعنى الذي هو مادة و بعينه بالمعنى الذي هو جنس فإنه بالاعتبار الثاني متحد بفصله متحصل بصورته التي هي بإزاء مفهوم فصله كما أشرنا إليه و كلا الوجهين لطيف دقيق غامض شريف و الأول أولى و أشمل و الله ولي التوفيق

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ٢٣٦

فصل (٦) في الإشارة إلى منهج آخر في أن الصادر الأول واحد غير مركب

و هو أن العلة المفيضية لا بد و أن يكون بينها و بين معلولها ملاءمة و مناسبة- لا يكون لها مع غيره تلك الملاءمة كما بين النار و الإحراق و الماء و التبريد و الشمس و الإضاءة و لذلك لا يوجد بين النار و التبريد و الماء و الإحراق و الأرض و الإشراق تلك الملاءمة فلو صدر عن واحد حقيقي اثنان فإما بجهة واحدة أو بجهتين لا سبيل إلى الأول لأن الملاءمة هي المشابهة و المشابهة ضرب من المماثلة في الصفة و هي الاتحاد في الحقيقة إلا أن هذا الاتحاد إذا اعتبر بين الوصفين كان مماثلة و إذا اعتبر بين الموصوفين كان مشابهة فمرجع المشابهة إلى الاتحاد في الحقيقة.

ثم إن الواحد الحقيقي من كل وجه هو الذي صفاته لا تزيد على ذاته فلو شابه الواحد لذاته شيئين مختلفين لساوى حقيقته حقيقتين مختلفتين و المساوي للمختلفين بالحقيقة مختلف و المفروض أنه واحد هذا خلف و لا سبيل إلى الثاني و إلا لم يكن العلة علة واحدة حقيقة و هذا قريب المأخذ مما سبق.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ٢٣٧

و اعترض عليه بعض الأذكياء بقوله و يرد عليه أن الملاءمة المعتبرة في العلة ليست هي الاتفاق في تمام الماهية و المساواة في الحقيقة بل في خصوصية بها يصدر هو عنها دون غيره كما في النار و الإحراق فإن مناسبتها للسخونة ليست لتمام ماهيتها- بل لخصوصية صورتها النارية فلو كانت العلة ملائمة لذاتها لأمرين لم يلزم أن تساويهما في الحقيقة و هو ظاهر.

أقول إذا كانت العلة بسيطة كانت الخصوصية التي بها تلائم المعلول تمام حقيقته و ذاتها بخلاف ما إذا كانت مركبة كالنار و الماء فإن الخصوصية التي بها يصدر عنها الأثر- لا يلزم أن تكون تمام حقيقتها بل يجوز أن تكون داخلة فيها كالصورة النارية للنار في فعل الإحراق أو عارضة لها ككيفية الحرارة العارضة للماء المتسخن بالقسر في فعله للسخونة في جسم آخر.

ثم قال بقي النظر في أنه تعالى واحد حقيقي كما قصدوه إذ ذهبوا إلى أنه تعالى وجود بحت بسيط بريء عن الماهية و شوائب التكثر مطلقا لكنهم قالوا إنه

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ٢٣٨

علم باعتبار قدرة من جهة إرادة من حيثية عاقل من وجه معقول من وجه و إذا جاز هذه الاعتبارات في ذاته فليجز أن يكون منشأ لصدور أمور متعددة فلم يتفرع حينئذ ما ذهبوا إليه من أنه تعالى لما كان واحدا حقيقيا لم يصدر عنه إلا أمر بسيط مجرد لتركب الجسم عن الهيولى و الصورة و احتياج الهيولى إلى الصورة فلا يكون معلولا أولا و الصورة أيضا تحتاج في تشخصها إلى العوارض و إلى الهيولى فلا يكون معلولا أولا و العرض يحتاج إلى الموضوع و ذلك المجرد ليس نفسا لأنها مع البدن و تحدث بحدوثه فهي إذن عقل مجرد و هو المطلوب.

أقول من زعم أن اتصافه تعالى بالعلم و القدرة و غيرهما من الكمالات الوجودية للموجود بما هو موجود مما يوجب اختلاف جهات و حيثيات و وجوه و اعتبارات حتى لا يكون واحدا من جميع الجهات و الحيثيات فلا يخلص توحيده

عن الإشراك نعوذ بالله منه و قد أسمعناك أن حيثية كل صفة فيها هي بعينها إذا حققتها حيثية الصفة الأخرى- فعلمه تعالى بعينه قدرته و قدرته تعالى بعينها إرادته ذاتا و اعتبارا و كذا عاقليته بعينها معقوليته ذاتا و اعتبارا كما صرح به الشيخ الرئيس في أكثر كتبه بهذه العبارة- كون ذات الباري عاقلا و معقولا لا يوجب اثنينية في الذات و لا اثنينية في الاعتبار- فالذات واحدة و الاعتبار واحد لكن في العبارة تقديم و تأخير للمعاني.

و إن قلت العاقلية مضائفة للمعقولية و المتضايفان لا يجتمعان في موضوع واحد من جهة واحدة لأن التضايف قسم من التقابل فكيف يصح اجتماع العاقلية و المعقولية في شيء واحد من الجهة الواحدة.

قلت ليس الأمر كما زعمته فإنه لم يقم على أن كل متضايفين متقابلان لأن معنى

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۳۹

الإضافة وحدها كون أحد المفهومين بحيث يلزم من تعلقه تعقل الآخر و مجرد ذلك الحد لا يستلزم تقابلهما في الوجود و لا تغايرهما في الحيثية نعم قد يكون بعض الإضافات بخصوصها مما يقتضي التقابل و التخالف في الوجود بين المتضايفين كالتحريك و التحرك و كالأبوة و البنوة و التقدم و التأخر و العظم و الصغر و العلو و السفل لا أن كل إضافة يوجب ذلك.

فالصحيح أن أحد أقسام التقابل الأربعة هو تقابل التضايف لا أن أحد أقسامه هو التضايف كما توهمه الجمهور حسبما رأوا أن الحال في التضاد و غيره على هذا المنوال- و هو وهم فاسد على ما هو التحقيق.

ثم قال أقول على أن في دليلهم هذا أيضا نظر من وجوه منها أن الصورة عندهم جزء من علة وجود الهيولاني البتة على ما يشير إليه تلويحا منهم و يلوح إليه إشاراتهم- فهي في الوجود متقدمة البتة على الهيولى فليجز أن يصدر عن المبدإ أولا معنى الصورة و طبيعتها و بتوسطها يصدر عنه الهيولى على ما ذهبوا إليه في استناد الأفلاك إلى العقول التسعة و استناد هيولى العناصر إلى العقل العاشر و منها أن كون حدوث النفس مع الجسم مطلقا ممنوع غير بين و لا مبين فلم لا يجوز أن يوجد أولا نفسا من النفوس المجردة الفلكية- و يوجد بتوسطها الفلك المتعلقة هي به أو غير ذلك انتهى قوله بعبارته أقول كل من اعتراضيه في غاية السقوط لا يورده من له أدنى بضاعة في فن الحكمة فالذي ذكره أولا من أن الصورة جزء من علة وجود الهيولى و إن كان صحيحا كما نظر إليه في مباحث التلازم بينهما لكنه ما أخذ كيفية جزئيتها لعلة الهيولى

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۴۰

و ما عرف أن الصورة بأي وجه و أية حيثية سبب للهيولى و متقدمة عليها و إلا لما شرع في تسويغ هذا الاحتمال و درى أنه أمر محال فإن التي هي شريكة علة الهيولى هي الصورة المطلقة بوحدتها المرسلة التي تفتقر في تحصلها الوجودي و تشخصها الجزئي إلى استعداد خاص و عوارض مخصوصة لا توجد إلا في الهيولى المنفعلة دائما على نعت التجدد- و هذا إنما ينضبط بحركة و زمان و تجدد صورة بعد صورة مستتبعة لاستعداد بعد استعداد- فلا يمكن أن يكون الصور الجسمانية أو الطبيعية أول الصوادر و أن يكون وجودها في عالم الإبداع قبل الأكوان المتجددة و ذلك لأن وجودها لا يخلو عن تناه و تشكل و مقدار مخصوص و وضع معين و غير ذلك من الأمور.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ٢٤١

و هي إما داخلة في قوام شخصيتها أو من الأمارات و اللوازم للهوية التي ترتفع بارتفاعها الهوية الشخصية لها و كل واحد من تلك الأمور لا يمكن أن يكون من لوازمها الحاصلة لذاتها من ذاتها مجردة عن المادة و انفعالاتها و إلا لكانت جميع الجرميات التي من نوعها متفقة في هذه اللوازم الشكلية و المقدارية و الوضعية حتى الأجزاء المفروضة لكل طبيعة جرمية بالقياس إلى كلها فلم يتصور عند ذلك كل و لا جزء و اللازم ضروري الاستحالة فكيف يجوز أن يكون أول الصوادر طبيعة مرسلة غير متحصلة و لا متشخصة ثم يصير قبل تشخصها علة متوسطة لصدور ما يفتقر هي في تشخصها إلى ذلك الصادر بعدها مع أن العلة للشيء الواحد سواء كانت قريبا أو بعيدا أو شرطا أو جزءا أو آلة- لا بد أن يكون بشخصيتها و هويتها متقدمة عليه. و أما الذي قرروه في مبحث التلازم أن الصورة شريكة علة الهيولى- فهو إنما يتصحح إذا كانت الصورة واقعة في عالم الحركات و الانفعالات حتى تكون جائز التبدل و التعاقب و كونها جائز التبدل و التعاقب و الاتصال و الانفصال و الوحدة و الكثرة و الحدوث و الزوال من ضروريات الصورة الجرمية المشتركة بين الكل و النوعية العنصرية لذاتها و كذلك الصورة النوعية الفلكية و لو من بعض الجهات.

على أنك قد علمت من طريقتنا في حدوث العالم من إثبات التجدد و الكون و الفساد لكل صورة طبيعية فكيف يسع لعاقل ذكي أن يحتمل عنده كون صورة مادية أول الصوادر و هي عندنا متدرجة الوجود و في الحكمة المتعارفة ملتئمة الحقيقة من حيثيتين حيثية بها قبل الهيولى و حيثية بها بعد الهيولى فالشيء الذي بحسب الحقيقة منتظم الذات من جهتين جهة فعلية بقائية و جهة انفعالية حدوثية لا يمكن أن يكون سببا لوجود ما يفتقر

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ٢٤٢

إليه في ذاته و لو من إحدى الجهتين دون الأخرى إلا أن يكون واقعا في عالم الحركات و الاستعدادات التي لا يمكن حصولها إلا بأسباب كثيرة و علل ذاتية و عرضية.

و أيضا لو فرض أن الذي صدر من الواحد هو الصورة و بتوسطها المادة فتلك الصورة إما صورة واحدة أو صور كثيرة فعلى الثاني يلزم صدور الكثرة منه ابتداء و على الأول يلزم أن يكون بعض الأجسام علة لبعض و هذا مما يبطله البرهان.

ثم قوله على ما ذهبوا إليه من استناد الأفلاك إلى العقول التسعة و استناد هيولى العناصر إلى العاشر.

أقول الخلط فيه ظاهر لأن فيه قياس الواحد المحض من كل جهة إلى الواحد- الذي فيه كثرة من جهة عقلية كما في استناد الفلك إلى العقل أو إلى الواحد الذي هو كثير في الخارج أيضا بوجه كما في استناد الهيولى إلى العقل فإن في الأول صدر الفلك و هو واحد طبيعي ملتئم الذات من مادة و صورة عن جوهر عقلي واحد قابل للتحليل العقلي إلى جنس و فصل أو وجود و ماهية أو كمال وجودي و نقص عدمي أو غنى و فقر فقد صدر مركب عن مركب إلا أن التركيب في المعلول أشد من التركيب في العلة و الوحدة بالعكس و هكذا الأمر في كل مفيض و مستفيض فإذا كان كذلك فكيف يقاس حال صدور المركب عن البسيط الحقيقي بحال صدوره عن المركب.

و في الثاني نقول صدرت الهيولى المشتركة عن العقل بإعانة الحركة المستمرة الفلكية التي لها في كل آن هوية أخرى

بعد هوية كما للهيولى في كل وقت تهيئوا و استعداد آخر بصورة أخرى لاحقة من جهة اقترانها بصورة أولى سابقة فهاهنا بالحقيقة

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۴۳

الكثير الخارجي علة للكثير الخارجي و إن كان في ضمن ذلك استناد واحد مبهم مشترك الذات من جهة وحدتها الضعيفة المبهمة إلى واحد عددي من جهة انفراده عن ضمائم الحركات السماوية و الاستعدادات الأرضية فكيف يقاس هذا الواحد الذي مع الكثرة إلى الواحد- الذي هو قبل كل كثرة و لا يكون معه في مرتبة وجوده شيء فضلا عن كثرة أشياء.

و أما الوجه الثاني له في الاعتراض فهو أيضا فاسد لأن نفسية النفس هي بعينها نحو وجودها و ليست كسائر الإضافات العارضة للأشياء بعد وجودها و تحصلها كالأبوة و الإخوة و الملك و السلطنة و ليس الأمر فيها كما هو المشهور من أن نسبة النفس إلى البدن- كنسبة الملك إلى المدينة و نسبة الربان إلى السفينة لأن ذلك مبرهن البطلان كما حقق فإذن لا يمكن أن يتصور للنفس بحسب وجودها الشخصي مرتبة سابقة على البدن- لا بالزمان و لا بالذات و الهوية فلو كانت علة للبدن فلا بد أن تكون متقدمة عليه و هو محال كما بيناه.

و أيضا على طريقة الحكمة المتعارفة نقول النفس هي الجوهر الذي يفتقر في فعله إلى المادة فإن الذي يستغني في فعله و إيجاده عن المادة و الإيجاد متقوم بالوجود فلا محالة يستغني في الوجود عن المادة فيكون عقلا لا نفسا فإذا كان الآمر كذلك فلا يمكن صدور ما هو مادة لفعل النفس من النفس و لا مادة أخرى يمكن صدورها عن نفس من النفوس إذ لا يمكن تحقق وضع لمادة تعلقت بها النفس بالقياس إلى مادة أخرى يمكن صدورها عن نفس من النفوس قبل وجودها بل إنما الذي يحتمل تسبب المادة بوضعها الخاص في صدوره من النفس- هي الأعراض اللاحقة بالمواد بعد وجودها بل هاهنا قاعدة كلية في أنه لا يمكن صدور

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۴۴

مادة جسمانية مطلقا عن قوة جسمانية أو صورة متعلقة بالمادة سواء كان التعلق بها في أصل الوجود أو في الفعل و الإيجاد فسقط إذن احتمال كون الصادر الأول نفسا فلكية- يصدر بسببها فلك من الأفلاك.

على أن باقي الأفلاك إن كانت في مرتبة وجوده يلزم صدور الكثير معا و إن لم يكن فهو إما حاو فيلزم إمكان الخلاء و إن كان محويا يلزم صدور ما هو في مكان أعلى قبل تجدده أو بعد تجدده فيلزم إمكان الخلاء مع لزوم صدور الأعظم الأشرف عن الأصغر الأخس و هذا كله من مجازفات الأوهام

الفصل (۷) في قاعدة إمكان الأشرف الموروثة من الفيلسوف الأول مما يتشعب عن أصل امتناع صدور الكثرة عن الواحد الحق

قاعدة أخرى هي قاعدة إمكان الأشرف مفادها أن الممكن الأشرف يجب أن يكون أقدم في مراتب الوجود من الممكن الأخس و أنه إذا وجد الممكن الأخس فلا بد أن يكون الممكن الأشرف منه قد وجد قبله و هذا أصل شريف برهاني عظيم جدواه كريم مؤداه كثير فوائده متوفر منافعه جليل خيراته و بركاته و قد نفعنا الله سبحانه به- نفعا كثيرا بحمد

الله و حسن توفيقه و قد استعمله معلم المشائين و مفيدهم صناعة الفلسفة- في أثولوجيا كثيرا و في كتاب السماء و العالم حيث قال كما هو المنقول عنه يجب أن يعتقد في العلويات ما هو أكرم و كذا الشيخ الرئيس في الشفاء و التعليقات و عليه بنى في سائر كتبه و رسائله ترتيب نظام الوجود و بيان سلسلتي البدو و العود و أمعن في تأسيسه الشيخ الإشراقي إمعانا شديدا في جميع كتبه كالمطارحات و التلويحات

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۴۵

و كتابه المسمى بحكمة الإشراق حتى في مختصراته كالألواح العمادية و الهياكل النورية و الفارسي المسمى بپرتونامه و الآخر المسمى بيزدان بخش قد استعمل هذه القاعدة في إثبات العقول و إثبات المثل النورية أرباب الأنواع و غير ذلك و قلده محمد الشهرزوري المورخ للحكماء في كتاب الشجرة الإلهية في تحريرها و شرحها شرحا مستوفى فنقول في بيانه على محاذاة ما وجدنا في كتب الشيخ الإشراقي- إن الممكن الأخس إذا وجد عن الباري جل ذكره فيجب أن يكون الممكن الأشرف قد وجد قبله و إلا فأما إن جاز أن يوجد معه فيلزم أن يصدر عن الواجب لذاته في مرتبة

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۴۶

واحدة من جهة واحدة شيئا أحدهما الأشرف و الآخر الأخس و هو محال و أما إن جاز وجوده بعد الأخس و بواسطته فيلزم جواز كون المعلول أشرف من علته و أما إن لم يجز صدور الأشرف لا مع الأخس و لا بعده و لا قبله كما هو المفروض مع أنه ممكن و الممكن لا يلزم من فرض تحققه محال فإن لزم فإنما يكون لأسباب خارجة عن ذاته و ذات موجده- و إلا لم يكن ممكنا و هو خلاف المقدر فإذا فرض وجوده و ليس بصادر فرضا عن الواجب الوجود أولا قبل الأخس و قد استحال وجوده مع الأخس و لا بعده بلا واسطة أو بواسطة معلول آخر من المعلولات فبالضرورة وجوده لكونه ممكنا و لم يكن علته واجب الوجود و لا شيء من معلولاته يستدعي جهة مقتضية له أشرف مما عليه واجب الوجود- حتى يكون عدم حصوله في عالم الوجود لعدم علته من جهة أنه بمرتبة من الفضيلة و الشرف يستدعي فاعلا أكرم و أشرف من فاعل هذا الصادر و فاعل الصادر الأول ليس إلا الباري الواجب تعالى فيلزم أن يكون ذلك الممكن مستدعيا بإمكانه مبدعا يكون أعلى و أشرف من الأول سبحانه و ذلك محال لأن واجب الوجود فوق ما لا يتناهى بما لا يتناهى في الشدة.

و شارح حكمة الإشراق قد قرر هذا البرهان هكذا لو وجد الممكن الأخس و لم يوجد الممكن الأشرف قبله لزم إما خلاف المقدار أو جواز صدور الكثير عن الواحد أو الأشرف عن الأخس أو وجود جهة أشرف مما عليه نور الأنوار لأن وجود

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۴۷

الأخس إن كان بواسطته لزم الأول و إن كان بغير واسطة و جاز صدور الأشرف عن الواجب لزم الثاني و إن جاز عن معلوله لزم الثالث و إن لم يجز عنهما لزم الرابع- و إذا بطلت الأقسام كلها على تقدير وجود الأخس مع عدم وجود الأشرف قبل بالذات فذلك التقدير باطل و يلزم من بطلانه صدق الشرطية المذكورة و هي قاعدة إمكان الأشرف- و إذ

لا أشرف من واجب الوجود و لا من اقتضائه فمحال أن يتخلف عن وجوده وجود الممكن الأشرف و يجب أن يكون أقرب إليه و أن يكون الوسائط بينه و بين الأخس هي الأشرف فالأشرف من مراتب العلل و المعلولات من غير أن يصدر عن الأخس الأشرف- بل العكس من ذلك إلى آخر المراتب انتهى كلام هذا الشارح بألفاظه.

تنبيه عرشي

المشهور عند المعتبرين لهذه القاعدة أن يراعى في جريانها شرطان أحدهما استعمالها في متحدي الماهية للشريف و الخسيس دون غيره و الثاني استعمالها فيما فوق الكون و الإبداعيات دون ما تحت الكون و ما في عالم الحركات- و لما كان الوجود عندنا حقيقة بسيطة لا يتفاوت أفرادها في ذاتها إلا بالكمال و النقص في نفس حقيقته المشتركة يتكثر بهما الماهيات نوعا أو في عوارضها بأمور

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۲۴۸

خارجة يتكثر بها أفراد ماهية واحدة شخصا و الثاني لا يكون إلا في عالم الحركات و الاستعدادات فالقاعدة جارية في إثبات الممكن الأشرف إذا وجد الممكن الأخس- و إن لم يكونا جميعا تحت ماهية واحدة نوعية لأن اتحادهما في طبيعة الوجود و هي طبيعة واحدة بسيطة لا اختلاف لها في ذاتها المشتركة يكفي في جريان القاعدة في إثبات أن الأشرف من أفرادها يجب أن يكون أقدم من الأخس و أن كل مرتبة من مراتب الشرف بالإضافة يجب أن تكون صادرة عن الحق الأول جل ذكره و أما الشرط الثاني فيجب مراعاته ضرورة لئلا يرد أن القاعدة لو كانت حقة لزم أن لا يكون بعض الأشخاص ممنوعا عما هو أشرف و أكمل له و ليس الأمر كذلك فإن أكثر الخلق ممنوعون عن كمالاتهم العقلية و الحسية مع أن حصولها لهم أشرف و أكمل من عدم حصولها لهم و ذلك لأن القاعدة إنما تكون مطردة في الأمور الممكنة الثابتة الوجود الدائمة- بدوام عللها الثابتة المرتفعة عن تأثير الحركات الفلكية و الأوضاع السماوية و الأنوار الكوكبية المقتضية لحدوث الحادثات و زوال الممكنات بحسب تضادها في الوجود و تمانعها في المكان و الزمان و ينافيها في المادة و الموضوع كالمركبات العنصرية و الأشخاص المتكونة فإن الحركات السماوية كما أنها مؤثرة في وجودها كذلك مؤثرة في عدمها فإن كثيرا مما في عالم الكون و الفساد يمكن عليها في ذاتها و هويتها أشياء كثيرة كمالية ثم تصير ممنوعة عنها بأسباب أخرى خارجة عن ذاتها فهي ربما تكون محرومة عما هو أكمل و أشرف

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۲۴۹

لممانعة أسباب سماوية و علل طبيعية تابعة لاستعدادات أرضية تابعة للحركات السماوية- بأنوارها و أوضاعها و مطالعها و مغاربها فإذن يجوز أن يعطى الشي‏ء الواحد أمرا شريفا تارة و خسيسا أخرى بسبب اختلاف الاستعدادات له.

و أما الأمور الدائمة فإن شرفها و خستها تابعان لشرف الفاعل و خسته لا غير- فلا يختلف الأمور هنالك إلا لاختلاف الفاعل أو لاختلاف جهات الفاعل فيفعل بالأشرف الأشرف و بالأخس الأخس فاتضح الفرق بين ما يطرد فيه إمكان الأشرف و بين ما لا يطرد و اندفع السؤال.

و مما يجب أن يعلم أن الخسيس في الأشياء الكائنة و الفاسدة و إن أمكن أن يكون متقدما على الشريف زمانا و طبعا بحسب الأعداد كالنطفة تتقدم على الحيوان و البيضة على الدجاج و البذر على الشجر و العنصر على الجماد لكن عند

التأمل يظهر أن الشريف متقدم على الخسيس ذاتا بحسب الإيجاد و أن الفضل و الكمال للمتقدم بالذات في الإيجاد و الخسة و النقيصة للمتأخر بالذات فيه و قد مر سابقا أن ما بالفعل متقدم أبدا على ما بالقوة على الإطلاق و أنك لو تصفحت الأشياء و ترتيبها بالذات لا بالعرض لوجدت أن الشريف متقدم دائما على الخسيس و أن الوجوب متقدم على الإمكان و الجزئي متقدم على الكلي و الفصل متقدم على الجنس و الشخص على النوع و الصورة على المادة و الوحدة على الكثرة و الاتصال على الانفصال و الوجود على العدم و الخير على الشر و الصدق على الكذب.

شك و تحقيق

إن على برهان القاعدة بحثا قويا و شكا عريضا و هو أن

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۵۰

في نظم البرهان خلطا بين الامتناع و الإمكان بالذات و بين الامتناع و الإمكان بالقياس إلى الغير فمن الجائز أن يكون ما هو ممتنع بالذات ممكنا بالقياس إلى الغير لا بالغير لأن الإمكان لا يكون بالغير كما مر و من الجائز أيضا كون الممكن بالذات بحيث يكون الممتنع الذاتي ممكنا لا به بل بالقياس إليه فجهة أشرف مما عليه واجب الوجود و إن كانت ممتنعة بالذات لا محالة لكن لا يمتنع إمكانها بالقياس إلى الممكن الأشرف المستدعي إياها.

قال العلامة الدواني في شرحه للهياكل بعد تحرير البرهان بصورته و مادته إنما يتم إبطال الشق الأخير لو كان إمكان المعلول مستلزما لإمكان العلة- و هو منقوص بأن انتفاء المعلول الأول ممكن مع أن علته و هي انتفاء الواجب مستحيل- و التحقيق أن إمكان المعلول يستلزم إمكان العلة نظرا إلى ذات المعلول بمعنى أنه إذا نظر إلى المعلول لم يوجد فيه ما يوجب استحالته و انتفاء ذلك ممنوع في صورة النزاع كما في صورة السند.

قال و يمكن أن يقرر هكذا ما ليس موجودا قبل الموجود الممكن ليس ممكنا أشرف منه و ينعكس بعكس النقيض إلى قولنا ما هو ممكن أشرف فهو موجود قبله- بيان الأول أنه لو كان ممكنا أشرف فعلى تقدير وجوده إما أن يوجد من الواجب بلا

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۵۱

واسطة و قد فرض وجود الأخس منه بلا واسطة فيلزم صدور الكثير عن الواحد أو بواسطة- و تنحصر في الأخس فيلزم كون العلة أخس من المعلول و اللازمان محالان و ما يلزم منه على تقدير وجود محال فهو محال فإمكانه يستلزم كونه محالا.

و فيه أيضا مثل النظر السابق و الحق أنه إن أريد بامتناع الأشرف ما يشمل الامتناع بالغير فهو كذلك و إن أريد الامتناع بالذات فلا يتم كما ذكرانتهى قوله بألفاظه- أقول في حله إن الإمكانات كما علمت من طريقتنا تابعة للوجودات بحسب انبعاث الماهيات الممكنة عن مراتبها فالمجعول بالذات و الصادر من الفاعل هو وجود أي ماهية كانت ثم العقل يحلل الموجود بضرب من التحليل إلى طبيعة الوجود و معنى خاص كلي هو المسمى بالماهية كما مر و تلك الماهية هي المتصفة بالإمكان إذا لوحظت في ذاتها من حيث هي هي من غير اعتبار الوجود و لا العدم فالماهيات و إمكاناتها تابعة للموجودات و جميع سلسلة الوجودات ينتهي إلى الواجب جل ذكره فلا يتصور ممكن من الممكنات لا يكون وجوده

إذا فرض مستند إلى واجب الوجود أو إلى ما يستند إليه- و لا أن يكون بحيث يستدعي إمكان وجوده علة هي ممتنعة بالذات فإن ذلك من مجازفات الوهم

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۵۲

و أيضا نقول من طريق آخر أن الواجب بالذات يتعالى و يتعاظم عن أن يكون مرتبة من الكمال و الشرف يتصور أن يمتنع عليه بل كل كمال و فضيلة- و كل حيثية فعلية و جهة وجودية يجب أن يتحقق فيه على وجه أعلى و أشرف.

فكلما فرضت مرتبة من مراتب الشرف و الفضل أنها فوق ما عليه واجب الوجود- فهي عند الفحص و البرهان يعلم أنها فيه لا محالة إذ لا جهة فيه غير جهة الوجوب بالذات- إذ لو وجدت فيه جهة امتناعية أو إمكانية لم يكن بسيطا كما علم من برهاننا على التوحيد- فكل كمال يستدعي ممكن بالذات له يجب أن يكون موجودا فيه أو فيما يستند إليه- إذ الواجب الوجود بالذات هو الواجب الوجود من جميع الجهات و الحيثيات الوجودية- التي تفرض أو توجد في كل شيء من الأشياء فذاته الأحدية الحقة تامة و فوق التمام من كل جهة كمالية و جميع حيثية وجودية تمامية غير متناهية و فوقية غير متناهية لأنه وراء ما لا يتناهى قوة في التأثير الإيجادي بما لا يتناهى قوة في الشدة الذاتية الوجوبية- التي لا حظ لأحد منها و لا نصيب لعقل من العقول القدسية من الاطلاع عليها و التشوق إليها و التعشق لها و إنما البرهان يؤدي إلى إثباتها و يحكم بثبوتها فلا يمكن أن يتصور مرتبة من مراتب المجد و الشرف و لا مرتبة من مراتب اللاتناهي بجهة من جهات الشدة

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۵۳

و العدة و المدة لا تكون متحققة في ذاته البسيطة الحقة أو لا يكون ثبوتها و تحققها في ذاته على وجه أعلى و أشرف بالوجوب الذاتي لما مر من أن جميع الحيثيات الوجودية- نسبتها إلى ذاته تعالى ليس إلا على وجه الضرورة الذاتية الأولية.

و إذا اتضح هذا فقد انكشف أنه ليس في صنع البرهان المذكور خلط بين الإمكان بالذات و الإمكان بالقياس إلى الغير و لا اشتباه بين الامتناع بالذات و الامتناع بالقياس إلى الغير هذا ثم الذي ذكره هذا الفاضل المشهور بالتحقيق و التدقيق ليس بصحيح في نفسه و الإشكال الذي يرد في المشهور على قولهم الممكن لا يستلزم محالا- بإمكان عدم المعلول الأول و استلزامه لعدم الواجب لا يدفع بما ذكره فإن الإمكان الخاص بالقياس إلى الغير إنما يتصور بين شيئين لا يكون بينهما علاقة ذاتية و نسبة إيجابية علية و معلولية و أما اللذان بينهما هذه العلاقة فللعلة وجوب بالقياس إلى معلولها لاحتياجه إليها و للمعلول وجوب بالقياس إلى علته لاقتضائها إياه فالإشكال المشهور غير مندفع بما قرره و لا البرهان المذكور منقدح بما صوره.

و أما حل الإشكال فقد مر بيانه منا موافقا لطريقتنا من أن المعلول ليس إلا نحوا من الوجود على طريق الاستتباع و الوجوب و أما الإمكان فهو حال الماهية المأخوذة في ذاتها و لا علاقة و لا ارتباط بين الماهية و بين العلة وجودا و لا عدما فإمكانها لا يستلزم شيئا من وجود العلة و عدمها إذ لو استلزمت في ذاتها بذاتها علة لكانت من حيث هي- مرتبطة مجعولة بها و ذلك باطل كما سبق و أما النظر إلى الوجود الذي هي متحدة به فليس له حيثية إلا حيثية الوجوب

بالواجب بالذات و القيام بالقيوم الحق و هو الوجوب التعلقي لا غير و لا يمكن فيه فرض اللاوجود لأنه فرض النقيضين مواطاة و اشتقاقا جميعا- لما مر أن الوجود موجود في ذاته فالممكن غير مستلزم للمحال و المستلزم للمحال أعني عدم المعلول الأول لعدم الواجب هو غير ممكن في نفسه بل هو في نفسه محال بالغير- الذي هو المحال بالذات و لا جهة فيه غير المحالية فتفطن.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۵۴

إشكال فكري و انحلال نوري

أنه قد وقع لنا في سالف الزمان إشكال معضل على قاعدة إمكان الأشرف هو أن العقول أنوار محضة متفقة في حقيقة النورية البسيطة متفاوتة بحسب الشدة و الضعف- في أصل تلك الماهية النورية على طريقة حكماء الفرس و الإشراقيين و هي عندنا وجودات صرفة غير مشوبة بعدم خارجي متفقة في طبيعة الوجود المطلق و هي حقيقة بسيطة خارجية متفاوتة بالشدة و الضعف كما مر مرارا.

فيلزم على كل من المنهجين أن يوجد بين كل اثنين واقعين في سلسلتي العلية و المعلولية أفراد بلا نهاية و كذا بين نور الأنوار و المعلول الأول يجب أن يوجد آحاد بلا نهاية لاشتراك النورية الوجودية بينه تعالى و بين سائر الأنوار الصرفة و الوجودات المحضة و ذلك لأنه ما من مرتبة من الشدة إلا و يتصور بينها و بين ما هو أشد منها مرتبة أخرى بل مراتب غير معدودة يكون هي أشد من تلك المرتبة و أضعف مما فوقها فقاعدة إمكان الأشرف جارية فيها حاكمة بتحقق وجودها فتكون موجودة لا محالة و كذا تجري و تحكم بوجود مرتبة بينها و بين كل من الطرفين و هكذا إلى ما لا نهاية له فيكون بين كل عقل و عقل و نور و نور وجود عقول و أنوار غير متناهية مجتمعة مترتبة ترتبا ذاتيا و هو ممتنع على أنها محصور بين حاصرين بل يلزم هناك وجود سلاسل غير متناهية.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۵۵

و هذا الإشكال مما عرضته على كثير من فضلاء العصر و ما قدر أحد على حله إلى أن نور الله قلبي و هداني ربي إلى صراط مستقيم و فتح على بصيرتي باب ملكوت السماوات و الأرض- بمفتاح معرفة نفسي فإن معرفة النفس مفتاح خزائن الملكوت و ذلك أني نظرت إلى نفسي فوجدتها إنية صرفة لا يدخل فيها جسد و لا عضو من الأعضاء كقلب أو دماغ أو بخار يسمى عند الأطباء بالروح و لا أيضا يدخل فيها أمر ذهني و لا ماهية عقلية لأن جميعها يغيب عن ذاتي و ذاتي لا تغرب عن ذاتي أبدا كما استفاده صاحب التلويحات عن الفيلسوف المعلم للمشائين في الواقعة ثم وجدت ذاتي و إنيتي غير محدودة في حد معين و مرتبة مخصوصة لا يتعداها بل رأيتها مع وحدتها و بساطتها تعقل الأشياء المعقولة بذاتها و تتخيل الصور المتخيلة بذاتها و كذا تدرك الصور المحسوسة بذاتها لا كما توهمه كثير من النظار أن النفس تدرك المعقولات بذاتها و تدرك غيرها بالآلات عنوانه أن المدرك بالذات للمتخيلات و المحسوسات هي آلة النفس لا النفس و هذا في غاية السخافة و البطلان.

كيف و المستعمل للآلة الجزئية في أمر جزئي محسوس لا بد أن يدركها لا محالة- و إلا لم يكن الآلة آلة طبيعية و لا القوة قوة نفسانية بل حيوانا مباين الذات إلا أنه صار بقوته و مادته و نفسه و جسده عضوا من أعضائنا كالبصر و الأذن و

غيرهما و تجويزه خروج عن الغريزة العقلية نعم هذه الآلات استعمالاتها مخصصات لحدوث الإدراكات و المدرك بالذات في الجميع هي النفس كما سينكشف لك زيادة في الإيضاح في مباحث علم النفس.

فإذن النفس الإنسانية مع وحدة وجودها و هويتها لها درجات ذاتية من حد العقل- إلى حد طبيعة و الحس فلها مقام في عالم العقل و مقام في عالم المثال و مقام في عالم الطبيعة و كل واحد من هذه المقامات الثلاثة أيضا متفاوت الدرجات قوة و ضعفا و كمالا و نقصا فحس يكون أقوى أشد من حس آخر في باب الحس كالبصر أقوى من السمع و كذا خيال أقوى و أنور من خيال آخر في باب التمثيل و عقل أشرف و أوضح من عقل آخر في باب التعقل فهي مع صرافة وحدتها كثيرة المقامات رفيعة الدرجات فإذا كانت النفس حالها

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۵۶

كذلك فالعقول أولى بهذا الحال فعلى هذا القياس حال كل عقل في وحدته الجميعة المنطوية فيها مراتب و حدود غير متناهية فرضية موجودة بوجود واحد إجمالي أعلاها و أشدها هو ما يلي أدون مراتب ما هو فوقه و أدناها و أنقصها هو ما يليه أعلى مراتب- ما هو تحته و يتلوه في سلسلة الإبداع و إن سألت عن الحق فالعقول القادسة على تفاوت طبقاتها طولا و عرضا كلها من المراتب الإلهية و الشئون الصمدية و السرادقات النورية لأنه سبحانه **رَفِيعُ الدَّرَجٰاتِ ذُو الْعَرْشِ** و أما تعددها لأجل تعدد آثارها من الأفلاك و غيرها من أنواع البسائط و المركبات- فذلك لا يقدح في وحدتها في الوجود بل إنما يوجب ذلك كثرة الجهات و الحيثيات فيها- باعتبار الشدة و الضعف و العلو و الدنو و الكمال و النقص فتفعل بالأشرف الأشرف من الطبائع و بالأخس الأخس منها و بالأعلى الأعلى من طبقات الأجرام كالفلك الأعلى و ما يتلوه و بالأدنى الأسفل منها كالأرض السفلى و ما يعلوها و كذا قدمها و دوامها ببقاء الله تعالى ينافي حدوث العالم و تغير ما سوى الله جميعا كما اتفق عليه جميع أهل الملل- و أقمنا البرهان القاطع الخالي عن الجدل كما سنوضحه أيضا فيما بعد أشد إيضاح.

و ذلك لما أشرنا إليه مرارا أنها من حيث ذاتها من لوازم الأحدية و الشئون الإلهية

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۵۷

و هي لوامع وجهه تعالى و تجليات نوره و أما من حيث نسبتها إلى ما يصدر عنها على التدريج و التجديد من خلق جديد فهي حادثة من هذه الجهة متجددة لأن العلة مع المعلول في الوجود من جهة ما هي علة له فلا محالة يتجدد بتجددها لكن كيفية هذا التجدد من جانب العلة الثابتة الذات و نحو ارتباط المتغير بالثابت الذات مما يصعب إدراكه على أكثر النظار و يسهل على من وفق له من ذوي الأبصار.

تبصرة مشرقية

اعلم أن للوجود المطلق حاشيتين إحداهما واجب الوجود و هو الغاية في الشرف- لأنه غير متناهي الشدة في الكمال و غير متناهي القوة في الفعل و الأخرى الهيولى الأولى و هي الغاية في الخسة لأنها غير متناهية القصور عن الكمال و غير متناهي الإمكان و القوة في الانفعال و لا يتنزل الوجود إليها ما لم يقع له المرور على جميع الأواسط المترتبة- و كذا لم يرتفع الوجود في الاستكمالات إلى التقرب إلى الله تعالى ما لم يقع له المرور- على جميع الحدود المتوسطة بينها و

بين الله تعالى على الترتيب الصعودي.

فإذا تقررت هذه المقدمة بالبرهان كما أشرنا إليه سابقا و سيتضح لك أيضا- لاحقا زيادة إيضاح إن شاء الله ظهر و تبين أنه كما يمكن إثبات الموجودات المتوسطة- بقاعدة إمكان الأشرف يمكن إثبات كثير منها بقاعدة أخرى لنا أن نسميها قاعدة إمكان الأخس و قد استعملناها حسب ما أشار إليه معلم الفلاسفة في كتاب أثولوجيا في كثير من المواضع.

منها أن الأرض و غيرها من بسائط العناصر بعد أن ثبت أن لكل منها مدبرا عقليا و صورة مثالية في عالم المفارقات ثبت أن لها نفسا نباتية و لها أيضا حياة

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۵۸

نفسانية و قوة خيالية موجودة في عالم البرزخ.

و منها أن جسمانية مباشرة للحركة بعد النفس الحيوانية و قبل الميل المستدير- الذي هو من قبيل الأعراض.

و منها أن للنبات طبيعة جوهرية شأنها حفظ التركيب و حفظ الكيفية المزاجية- و هي المزاولة للمادة باستخدام النفس النباتية إياها و ليست هذه القوى أعراضا كما هو المشهور بل جواهر إلا أن وجودها غير مباين لوجود ما هي قوة له إلى غير ذلك من المواضع التي سيقع لك العثور عليها إن كنت من أهله إن شاء الله

الفصل (۸) في نتيجة ما قدمناه من الأصول و ثمرة ما أصلناه في هذه الفصول

فنقول ذاته جلت كبرياؤه في غاية الكمال و الفعلية و الوجوب بحيث لا يتطرق فيه شوب عدم و نقيصة فأول ما يصدر و يترتب عليه يجب أن يكون أشرف الموجودات- التي لا يصفو عن شوب عدم و نقص فيجب أن يكون ذلك من جنس العقول دون النفوس فضلا عما دونها و ذلك لأن

النفوس بما هي نفوس قد شيب فيها ضربان من العدم.

أحدهما العدم التحليلي الذهني

الذي لا عين له في الخارج لأنه مندمج في الوجود فلا يوجب تركيبا خارجيا و لا ذهنيا إلا في ظرف التحليل العقلي حيث يحلل العقل كل

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۵۹

موجود دون الحقيقة الصمدية إلى طبيعة أصل الوجود و إلى كونه محدودا بحد معين من الوجود ففيه زيادة اعتبار غير اعتبار طبيعة الوجود بما هو وجود فذاتها كأنها أمر مزدوج الحقيقة من وجود و عدم و كمال و نقص و خير و شر و نور و ظلمة و وجوب و إمكان و ماهية و هوية إلا أن عدمه مضمحل بالوجود و شره بالخير و نقصه مندمج في الكمال و ظلمته مقهورة تحت شروق النور و إمكانه مطوي في الوجوب و ماهيته في عين الهوية الوجودية فليس له في نفس الأمر عدم و لا شرية و لا نقص و لا ظلمة و لا إمكان و لا ماهية بل في اعتبار من الاعتبارات الذهنية.

و ثانيهما هو العدم الواقعي المستلزم للتركيب

الخارج في الشيء من العدم و الوجود أعني القوة و الفعل فإن النفس أبدا فيها شيء بالقوة و هو كمالها المنتظر و شيء بالفعل و هو وجودها إذ لو لم يكن لها كمال مترقب و لا حالة منتظرة كانت عقلا لا نفسا ففيها نوعان من العدم فلا يصح

أن يكون هي أقرب المفطورات من الحق الواحد و أشرف الدرجات بعد درجة الأول و لا يصح أيضا أن يكون من جنس الطبائع و الصور المقارنة للمواد لأن مقارنتها مقارنة افتقارية في الحقيقة و الفعل جميعا ففيها دخول العدم من ثلاثة أوجه الوجهان المذكوران في النفس الوجه الثالث أن العدم سبب لوجودها و الوجود سبب لعدمها و العدم الأول هو قوة وجودها و العدم الثاني عنها هي مادة تكونها و تقدم الأول عليها تقدم بالطبع و تأخر الثاني عنها تأخر بالذات

الحكمة المتعالية فی الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۶۰

فذاتها في كل حين محفوفة بالعدمين لأنها تدريجية الحصول وجودا و بقاء- و الفرق بين النفس و الطبيعة أنها أعني النفس الكلية الفلكية مستمرة الحقيقة الذاتية متجددة الهوية التعلقية فلها في ذاتها الشخصية حيثيتان إحداهما تجردية عقلية باقية و الأخرى تعليقية تدبيرية متبدلة و أما الطبيعة فإنما هي عين الهوية التعلقية- المتجددة في ذاتها الشخصية و إن كان لكل طبيعة نوعية سبب عقلي ذو عناية بها لكنها خارجة من جهة استغراقها في الهيولى عن ذلك المدبر النوري و ظاهر أن الصورة المقدارية لتضاعف الأعدام فيها لا يمكن أن يكون أول الصوادر و تلك الأعدام أولها عدم الكمال الأتم اللازم للقصور الإمكاني و الثاني هو فقد الكمال المنتظر و الثالث فقد ذاته عن ذاته في كل وقت و زمان و الرابع غيبة ذاته عن ذاته في كل حد و مكان و أما الهيولى الأولى فهي القوة الصرفة و الإمكان الاستعدادي المحض.

و قيل الفرق بينها و بين العدم الذي هو أحد الأسباب الثلاثة للكائنات

الحكمة المتعالية فی الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۶۱

مع السببين الآخرين و هما الصورة و الهيولى أن العدم معدوم بالذات موجود بالعرض- و الهيولى موجودة بالذات معدومة بالعرض.

و معنى هذا الكلام أن العدم السابق للحادث المتجدد الهوية و الذات و إن كان متحدا مع وجود جزئه السابق بالعرض لكنه بالذات عدم لهذا الجزء الحادث و أما الهيولى فإنها موجودة بوجود هذا الحادث بالذات لأنها مستكملة به متحدة معه لكنها قوة استعدادية عدمية بالقياس إلى ما بعده من المتجددات بالتبع و ليست قوة بالقياس إلى ما تصورت به بالفعل فهي موجودة بالذات معدومة بالعرض فإن القوة على شيء لم يوجد بعد بالفعل لا بد و أن تكون قوة لشيء موجود بالفعل فهي من حيث إنها قوة على الشيء معدومة و من حيث إنها قوة من الشيء أو قوة للشيء أو قوة بالشيء موجودة منه أو له أو به.

و أما العرض فبالضرورة متأخر عن وجود الموضوع كتأخر الهيولى عن الصورة و هو أشد تأخرا عن الموضوع من الهيولى عن الصورة لما علمت أن لها ضربا من التقدم على الصورة بخلاف العرض فإنه متأخر عن موضوعه من كل وجه فلا يكون أول الصوادر و قد علمت أن ليس للباري جل ذكره عرض قائم به أو صفة زائدة قديمة أو حادثة كالإرادة القديمة أو الحادثة التي أثبتها الأشاعرة و الكرامية حتى يتوهم متوهم أن أول الموجودات عنه تعالى عرض موضوعة ذاته تعالى فإذن أول ما يوجد بعد الذات الأحدية من كل وجه موجود واحد مستقل الذات و الفعل جميعا فلا يكون إلا عقلا محضا لانتفاء الوجود من الهيولى و الوحدة من الجسم و الاستقلال في الذات من الصورة و العرض و في الفعل من النفس.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۶۲

تبصرة تفصيلية

المناهج لإثبات هذا الموجود المفارق القدسي

المتوسطة في الشرف و العلو بينه تعالى و بين عالم الخلق الواسطة لإفاضة الخير و الجود على الدوام كثيرة.

الأول من طريق النبوة و الإلهام

كما أشار إليه سيدنا سيد المرسلين سلام الله عليهم و عليه و على آله أجمعين بقوله

: أول ما خلق الله العقل

و قوله

: أول ما خلق الله القلم

لأنه واسطة لتصوير الموجودات و ترتيب النظام كالقلم لتصوير الكلام و ترتيب الأرقام و قوله

: أول ما خلق الله نوري

و قوله

: خلقت أنا و علي من نور واحد

و الثاني من منهج امتناع الكثير عن الواحد

فبالضرورة يجب أن يكون أقرب

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۶۳

الأشياء منه ذاتا واحدة بسيطة متبرئة عن ملابسة العدم الخارجي و القوة الاستعدادية مستغنية في ذاته و في فعله عن غير مبدعه و قيومه ليصح أن يكون واسطة في إفاضة الخير و الجود من المعطي الحق على ما عداه من المخلوقات و رشح الفيض الدائم على سائر المجعولات- فهو لا محالة أمر عقلي و جوهر قدسي لانتفاء هذه النعوت من الجسم و جزئيه و هما المادة و الصورة و كماله و هو النفس فضلا عن العرض.

الثالث من سبيل إمكان الأشرف

و لا شبهة في أن العقل أشرف من سائر الممكنات و هو فرد من أفراد الوجود و مرتبة من مراتبه و الوجود طبيعة واحدة نوعية على الوجه الذي قررناه و إن لم يكن نوعيتها باعتبار عروض الكلية لها في الذهن- كما في الماهيات فيكون الموجود الأشرف ممكنا لا محالة بالإمكان العام فيجب حصوله قبل الأخس فالموجود الأول عنه سبحانه وجب أن يكون أشرف الذوات العقلية- و الجواهر النورية و أشدها قوة و أكملها هوية و أبعدها عن النقيصة و القصور و أقربها إلى مبدإ المبادي و غاية الغايات.

الرابع من مسلك الملاءمة و المناسبة الذاتية بين المقتضي و المقتضى

و العلة التامة و معلولها و الفاعل التام و فعله فيجب أن يكون المناسبة الذاتية الحاصلة للعقل الأول- و المعلول الأقدم أتم و أكمل ما يتصور من المناسبات بالقياس إلى أي ممكن فرض بعده- فإذن إن هو إلا أكرم العقول القادسة و أبسط

الجواهر العقلية و أنور الذوات النورية بعد نور الأنوار.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۶۴

الخامس من جهة إخراج ما بالقوة إلى ما بالفعل

للنفوس في باب كمالاتها العلمية و العملية فإن شيئا من الأشياء إذا كان بالقوة في كمال ثم صار بالفعل في ذلك الكمال- فمخرج ذاته من حد القوة إلى حد الفعل لا يمكن أن يكون ذاته و إلا لكان الأمر الواحد مفيدا و مستفيدا عن نفسه لنفسه.

و أيضا لو كانت الذات بذاتها مقتضية للخروج من القوة إلى الفعل لما كانت بالقوة أصلا و أيضا الخارج من القوة إلى الفعل أشرف و أكمل من حيث الفعل و أخس و أنقص- من حيث القوة و القبول فلو كان خروجه منها إليه من تلقاء ذاته لكانت ذاته أشرف من ذاته و ذاته أنقص من ذاته ليفعل و يقبل و يكمل و يستكمل و بالجملة يلزم أن يكون معطي الكمال قاصرا عنه.

فإذن النفس العاقلة لا تستطيع أن تخرج ذاتها من القوة إلى الفعل و من العقل الهيولاني إلى العقل الصوري بواسطة الاستعداد و التهيؤ الذي هو العقل بالملكة فلا بد من معلم قدسي و مصور عقلي متوسط بين الفياض الحق تعالى و النفوس المستفيضة- المستكملة بالعقل بالفعل فهو واهب الصور بإذن الله و يجب أن يكون بريئا من القوة و الانفعال و إلا لاحتاج إلى مكمل آخر يخرجه من القوة إلى الكمال و يعود الكلام إليه أيضا فيتسلسل و هو محال أو ينتهي إلى مكمل لا يكون فيه شوب قوة استعدادية و ليس هو الواجب القيوم بلا واسطة إذ النفوس كثيرة و الواجب واحد محض فلا بد من متوسط عقلي و قد علمت في مباحث العقل و المعقول أن قياس العقل الفائض منه على قابلية النفس و صيرورتها عقلا بالفعل متحدة به قياس النور الفائض من الشمس بإذن ربها على البصر إذ به يصير البصر بصرا بالفعل بعد ما كان بالقوة في باب الأبصار و به يصير المبصرات مبصرات بالفعل بعد ما كانت مبصرات بالقوة و قوة البصر تتحد بالنور

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۶۵

الذي هو البصر بالفعل و الباصر بالفعل و المبصر بالفعل و به يكون سائر الأمور التي تعلق بها الإبصار مبصرة بالفعل و وزانها وزان الماهيات التي تصير معقولة بهذا العقل الذي اتحدت به لا بأنفسها كما أن الأعيان الثابتة و الماهيات تصير موجودة لا بأنفسها بل بالوجود الذي يتحد بها

السادس من طريق الهيولى و الصورة و كيفية التلازم بينهما

حيث يحتاج وجود الهيولى- إلى واحد بالإبهام من صورة مطلقة غير متخصصة بشيء من أفرادها و واحد بالهوية التحصلية و هو الجوهر العقلي المعقب لكل صورة زائلة عن الهيولى بصورة عاقبة إياها ليستحفظ وحدتها الشخصية الدائمة بوحدة مرسلة متبدلة الأفراد و وحدة ثابتة باقية عقلية كما مر بيانه في مبحث التلازم.

السابع من أسلوب الطبيعة المتجددة الهوية عندنا

فإنها لما كانت متجددة الهوية دون الماهية فلا يمكن أن يكون مفيض وجودها ذاتا أحدية من كل وجه كواجب الوجود و لا أيضا طبيعة أخرى و إلا لعاد الكلام إلى تجدد هويتها و حاجتها إلى سبب موجب لوجودها فيلزم التسلسل أو الدور

و هما ممتنعان فكذا ما يؤدي إلى أحدهما- و لا النفس فإنها كما علمت حكمها من حيث تعلقها إلى البدن و استكمالاتها اللازمة

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۶۶

لوجودها حكم الطبيعة في الانقضاء و التجدد و التصرم و التبدل و لا الهيولى لأنها قوة انفعالية لا صورة فعلية إيجابية فموجب وجودها و مقتضى ذاتها من حيث الثبات المضمن فيه التجدد و الحدوث جوهر عقلي و صورة مجردة و مثال ربوبي و ملك كريم و اسم إلهي.

الثامن من مذهب الأشواق و الأغراض و الشهوات و ميول الأشياء إلى الكمالات

و توجهها إلى الغايات فلا محالة لا بد أن يكون لكل نوع طبيعي غاية كمالية عقلية- ليصح توجه أفرادها بحسب الجبلة و تشوقها بحسب الغريزة إلى ما فوقها و إلا لكان ارتكاز هذا المعنى أعني الميل إلى التمام و التوجه إلى الكمال باطلا و عبثا و هدرا- و محال أن يكون في الطبيعة باطل أو عبث كما مر في مسائل العلة الغائية من مباحث العلل الأربع نعم ربما عاق لها عما ذكرنا عائق أو اتفق أن منعها عنه قاسر أو مزاحم- و العائق لا يكون دائميا و لا أكثريا و كذا الأمر الاتفاقي فالوصول للأشياء إلى كمالاتها الأخيرة لا بد أن يكون إما مطردا دائميا أو أكثريا و تلك الكمالات الأخيرة التي لا حركة بعدها ليست نفوسا لأنها بالقوة أيضا ما دامت نفوسا مشتاقة إلى الكمال الأتم و ليست أيضا واجب الوجود لأنها متعددة متنوعة و الواجب واحد فهي عقول البتة فقد علم أنه كما لا بد في سلسلة المبادي و ترتيب صدور الأشياء من واسطة عقلية بينه تعالى و بين المجعولات كذلك لا بد في سلسلة الغايات و ترتيب رجوع الموجودات و عودها إلى الكمالات بعد نزولها عنها من واسطة عقلية بينها و بين غاية الغايات و آخر النهايات و هو أول الأوائل و مبدأ المبادي.

التاسع من طريق كفاية الإمكان الذاتي للأنواع المحصلة

التي لا يفتقر

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۶۷

فيضانها نوعا و لا شخصا عن المبدإ الواهب إلى إمكان استعدادي غير إمكانها الذاتي فهي لا محالة صادرة عن الواهب مبدعه قبل الزمان و الزمانيات و الأمكنة و المكانيات قبلية بالذات في عالم الدهر إذ لا مانع في ذاتها من قبول فيض الوجود و لا ضاد للجواد المطلق- و لا مبطل و لا معطل للمفيض الحق عن وجوده و فعله و صنعه و إبداعه فهي لا محالة فائضة عنه أبدا و أما التي تفتقر في خصوصيات أفرادها الشخصية إلى سبق مكان استعدادي وراء إمكانها الذاتي فهي أيضا فائضة من حيث طبيعتها المرسلة في عالم الصنع و الإبداع- و إن كانت في تعيناتها الشخصية مرهونة الهويات بالمادة و الاستعدادات و الأزمنة و الأوقات- و بالجملة فالإفاضة عليها من جانب المفيض ثابتة دائمة و إن كان المفاض عليه و هي الأنواع بحسب الهويات و الوجودات متجددة داثرة بائدة فإذن جميع الماهيات و صور الأنواع على الدوام فائضة من جانب الله أبد الدهر و إن كان العالم الجسماني بجميع ما فيه و معه و له حادثا زمانيا مسبوقا بعدم زماني و لما كانت الأنواع

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۶۸

و الطبائع لا بد في صدورها عن الواحد الحق من وسائط عقلية مع جهاتها النورية ليصح فيضان هذه الأنواع و الطبائع عنه و المادة و إن تكثرت بتعددها أو تعدد جهاتها الاستعدادية- أشخاص نوع واحد أو أفراد طبيعة واحدة لكن يستحيل أن يتكثر بها أو باستعداداتها- أنواع متخالفة و طبائع متكثرة.

فثبت من هذا المنهج أيضا وجود العالم العقلي و تكثر صوره و ذلك العالم مع كثرة صوره ليس مباينا لذات الحق الأول بل تلك الصور على علوم إلهية قائمة بذاته تعالى واقعة في صقع الربوبية فليست هي من جملة ما سوى الله.

العاشر من سبيل الحركات الفلكية و ذلك من وجوه

أحدها أن لكل متحرك محركا غيره

إذ الشيء لا يحرك نفسه و لا يتحرك عن نفسه و إلا لكان شيء واحد قابلا و فاعلا و لكان المكمل للشيء مستكملا به و ذلك المحرك إن كان متحركا- أيضا يحتاج إلى محرك آخر و هكذا إلى لا نهاية و مع ذلك لكانت بالأسر أوساطا بلا طرف و ما دام حكمها حكم الواسطة لا يكون الحركة متحققة بالفعل على نحو وجودها- فلا بد من الانتهاء إلى محرك لا يتحرك أصلا به يخرج المتحرك من القوة إلى الفعل- و لا محالة هو أمر بالفعل لا يتغير أصلا لا بالذات و لا بالعرض لا بالطبيعة و لا بالقسر

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۶۹

و لا بالتسخير و لا بالإرادة و لا بالمشايعة و تحريكه للفلك إما بإعطاء المبدإ القريب إياه- الذي به التحرك حركة وضعية و إما بأن يكون هو المؤتم به و المعشوق للجوهر المتحرك حركة شوقية تتبعها الحركة الدورية لأنه الموجب له أشواقا متتالية و تخيلات متتابعة

و ثانيها أنا نقول الحركة المستديرة يمتنع أن تكون طبيعية

فهي لا محالة إرادية مستندة إلى نفس دراكة و الباعث لها في الحركة إما أمر شهوي أو غضبي أو غاية الحركة فيها جلب ملائم بدني أو رفع منافر بدني و هما منتفيان عن الفلك لأنه تام الخلقة لا يفتقر إلى غذاء و ليس له مضاد ليفتقر إلى دفعه فوجود الشهوة و الغضب فيه عبث معطل و الأغراض الحيوانية الحسية منحصرة في هذين الغرضين و ما يرجع إليهما فالغرض للأفلاك في حركاتها الشوقية أمر عقلي جازم غير مظنون و لا موهوم- و إلا لما دامت الحركات لأمر غير مجزوم و ليس الغرض أمرا حقيرا كنفع السافل أو ما يجري مجراه فحركتها لأجل كمال عقلي جليل الخطر فهي إما لتحصيل ذات عقلية أو للتشبه إليها و الأول غير ممكن فتعين الثاني و لا يمكن أن يكون المتشبه به- المتشوق إليه ذاتا واحدة هي الواجب جل ذكره و إلا لما اختلفت الحركات الفلكية قدرا و جهة فهي للتشبه إلى معشوقات كثيرة و إن صح أن يكون لها اشتراك في طلب المعشوق الأول لاشتراكها في دورية الحركات و اختلاف في طلب المعشوقات الثواني لاختلافها في جهات الحركات و أزمنتها فلكل منها معشوق يخصه هو إمام نفسه و مكملة بالتشويق و الايتمام به و التشبه به في التقرب إلى الحق الأول و التوسل إليه في الاستشراق في أشعة نور الأنوار و الاستقبال لتجليات قدسه و كماله.

و ثالثها من جهة أن حركاتها غير متناهية و لا منقطعة

فلها مبدأ غير متناهي القوة و كل قوة جسمانية سواء كانت نفسا أو صورة منطبعة فهي متناهية القوة و الأثر فلا محالة مبدأ حركتها قوة مفارقة غير متناهي التأثير و التحريك و ليس ذلك هو الباري بلا توسيط- لأن الحركات الدائمة كثيرة و الواجب واحد محض فثبت كون العقول موجودة بهذه الوجود الثلاثة من هذا المنهج.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ٢٧٠

الحادي عشر من منهج مطابقة الأحكام

الصادقة الحاصلة في هذه الأذهان لما في نفس الأمر و قد تصدى المحقق الطوسي ره لسلوك هذا المنهج و عمل في بيانه رسالة حاصلها أنا لا نشك في كون الأحكام اليقينية التي تحكم بها أذهاننا مطابقة لما في نفس الأمر و لا في أن الأحكام التي بخلافها مما يعتقدها الجهال غير مطابقة لما فيه و نعلم يقينا أن المطابقة لا تتصور إلا بين شيئين متغايرين بالشخص و متحدين فيما يقع به المطابقة و لا شك في أن الصنفين المذكورين من الأحكام متشاركان في الثبوت الذهني فإذن يجب أن يكون للصنف الأول منهما دون الثاني ثبوت خارج عن أذهاننا يعتبر المطابقة بين ما في أذهاننا و بينه و هو الذي يعبر عنه بنفس الأمر.

فنقول ذلك الثابت الخارج إما أن يكون قائما بنفسه أو متمثلا في غيره- و القائم بنفسه إما ذو وضع أو غير ذي وضع و الأول محال لوجوه أحدها أن تلك الأحكام غير متعلقة بجهة من جهات العالم و لا بزمان و كل ذي وضع يتعلق بهما- و ثانيها أن العلم بالمطابقة لا يحصل إلا بعد الشعور بالمتطابقين و نحن لا نشك في المطابقة مع الجهل بذلك الشيء من حيث يكون ذا وضع.

و ثالثها أن الذي في أذهاننا من تلك الأحكام إنما ندركه بعقولنا و أما ذوات الأوضاع فلا ندركها إلا بالحواس من جهة ما هي محسوسات و الثاني و هو أن يكون ذلك القائم بنفسه غير ذي وضع هو أيضا محال لأنه قول بالمثل الأفلاطونية.

و أما أن يكون ذلك الخارج المطابق له متمثلا في غير منقسم.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ٢٧١

فنقول ذلك المتمثل فيه لا يمكن أن يكون بالقوة و إن كان بعض ما في الأذهان بالقوة و ذلك لامتناع المطابقة بين ما بالفعل أو يمكن أن يصير وقتا ما بالفعل و بين ما بالقوة و أيضا لا يمكن أن يزول أو يتغير أو يخرج إلى الفعل بعد ما كان ما بالقوة في وقت من الأوقات لأن الأحكام المذكورة واجبة الثبوت أزلا و أبدا من غير تغير و استحالة و من غير تقييد بوقت و مكان و واجب أن يكون محلها كذلك و إلا فأمكن ثبوت الحال بدون المحل فإذن ثبت وجود قائم بنفسه في الخارج غير ذي وضع مشتمل على جميع المعقولات التي يمكن أن يخرج من القوة إلى الفعل بحيث يستحيل

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج٧، ص ٢٧٢

عليه و عليها التغير و الاستحالة و التجدد و الزوال و يكون هو و هي بهذه الصفات أزلا و أبدا- و إذا ثبت ذلك فنقول لا يمكن أن يكون ذلك الموجود هو أول الأوائل عز شأنه- و ذلك لوجوب اشتمال ذلك الموجود على الكثرة التي لا نهاية

لها بالفعل و أول الأوائل يمتنع عليه أن يكون فيه كثرة و أن يكون مبدأ فاعلا لها و محلا قابلا إياها فإذن ثبت وجود موجود غير الواجب تعالى و لنسميه عقل الكل و هو الذي عبر عنه في القرآن- تارة باللوح المحفوظ و تارة بالكتاب المبين المشتمل على كل رطب و يابس و ذلك ما أردناه انتهى تلخيص ما أفاده.

و اعلم أن القول بالمثل الأفلاطونية حق عندنا كما علمته و مع ذلك لا يضر لنا في إثبات المرام من هذا المنهج و هو وجود صور الأحكام الثابتة في عالم آخر عقلي- سواء كانت حاله في جوهر عقلي أو قائمة بذواتها.

الثاني عشر من مسلك التمام و مقابله

فإن الأشياء بحسب الاحتمال العقلي أربعة أقسام لأنها إما تام أو ناقص و الأول إما فوق التمام أو لا و الثاني إما مستكف بذاته أو بما لا يخرج عن قوام ذاته أو لا ثم إن العنصريات ناقصة محضة و الفلكيات مستكفية- و الواجب عز اسمه فوق التمام فلا بد أن يكون في الوجود موجود تام ليكون متوسطا بين ما هو فوق التمام و بين ما هو ناقص أو مستكف و هو العقل و ذلك لأنه لو صدر منه تعالى ناقص ابتداء و هو فوق التمام لانتفت المناسبة بين المفيض و المفاض عليه.

و أيضا يلزم الفرجة و الانفطار في سلسلة الوجود و هو غير جائز و قد بينا من جهة قاعدة إمكان الأخس أنه لا يمكن وجود مرتبة من الشرف لا يترتب عليه جميع ما هو دونه إلى آخر الحاشية الأخرى.

تأييد سماعي

قال مفيد المشائين و معلمهم في أثولوجيا في عاشر ميامره- الواحد المحض هو علة الأشياء كلا و ليس بشيء من الأشياء بل هو بدأ الشيء و ليس هو الأشياء بل الأشياء كلها فيه و ليس هو في شيء من الأشياء و ذلك أن الأشياء كلها- انبجست منه و به ثباتها و قوامها و إليه مرجعها فإن قال قائل كيف يمكن أن يكون الأشياء من الواحد المبسوط الذي لا مثنوية فيه و لا كثرة بجهة من الجهات قلنا لأنه

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۷۳

واحد محض مبسوط ليس فيه شيء من الأشياء فلما كان واحدا محضا انبجست منه الأشياء كلها و ذلك أنه لما لم يكن هوية انبجست منه الهوية.

أقول و اختصر القول أنه لما لم يكن شيئا من الأشياء رأيت الأشياء كلها منه- غير أنه و إن كانت الأشياء انبجست منه فإن الهوية الأولى أعني به هوية العقل هي التي انبجست منه بغير وسط ثم انبجست منه جميع هويات الأشياء التي في العالم الأعلى و العالم الأسفل بتوسط هوية العقل و العالم العقلي و أقول إن الواحد المحض هو فوق التمام و الكمال و أما العالم الحسي فناقص لأنه مبتدع من الشيء التام و هو العقل و إنما صار العقل تاما كاملا لأنه مبتدع من الواحد المحض الحق الذي هو فوق التمام و لم يكن بممكن أن يبدع الشيء- الذي فوق التمام الشيء الناقص بلا توسط و لا يمكن للشيء التام أن يبدع تاما مثله لأن الإبداع نقصان أعني به أن المبدع لا يكون في درجة المبدع بل يكون دونه انتهى كلام الفيلسوف المقدم بعبارته.

و كأنك قد تهيأت بما قدمناه إليك من بيان كون البسيط الحق كل الأشياء- لفهم كلام هذا المعلم و تحقيق مرامه و لعله أراد بالهوية هاهنا الوجود لا الماهية المرسلة كما ظن لأنها غير مجعولة بل أراد به التشخص المتميز عن سائر التشخصات المباين لها و هذا إنما يتحقق عند هذا الفيلسوف فيما سوى الأول حيث إن لكل منها وجودا محدودا بحد

من الكمال فيكون مباينا لموجود آخر مغايرا له و أما الوجود الواجبي- فهو لكونه غير متناهي القوة و الشدة و لا محدود بحد و غاية فلا هوية له بهذا المعنى لأنه جامع كل حد وجودي و ما فوقه وراءه فلا مباين له في الوجود و لا غير ليكون متميزا عنه

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۷۴

بكونه مسلوبا عنه و بالعكس فإنه لا يكون عادما لشيء من الأشياء فحيث هو هو كانت الأشياء كلها فيه و حيث يكون شيء من الأشياء كان هو معه كما في قوله- **وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّمٰاءِ إِلٰهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلٰهٌ** و قوله **وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ** و قوله **مٰا يَكُونُ مِنْ نَجْوىٰ ثَلاٰثَةٍ إِلاّٰ هُوَ رٰابِعُهُمْ وَ لاٰ خَمْسَةٍ إِلاّٰ هُوَ سٰادِسُهُمْ** الآية إلى غير ذلك من الآيات القرآنية و ألسنة النبوية و فيما صحت روايته

عن علي ع أنه قال:

مع كل شيء لا بمقارنة و غير كل شيء لا بمزايلة

حجة قوية على هذا المطلب من طريقة النقل و السماع.

فهذه مناهج إثبات العقل المفارق و عالمه و سيأتي بيان كثرة العقول و تفاصيل ما في عالمها و حسن ترتيبه و جودة نظامه و اشتمال ذلك العالم على جميع الطبائع النوعية- التي في هذا العالم مع ما يزيد عليها على وجه أعلى و أشرف في موضعه حسبما قدمنا ذكره في مباحث الماهية.

و اعلم أن لنا منهجا آخر في إثبات علم العقل و هو من جهة إثبات الخزانة للمعقولات- كما قال عز اسمه **وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ** و قوله **وَ لِلّٰهِ خَزٰائِنُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ** و بيانه أنا قد نعلم شيئا معقولا ثم ننسى و لا نذكره أصلا بل نحتاج في إدراكه إلى تجشم تحصيل جديد و كسب مستأنف و ربما نذهل عنه ذهولا ثم نتذكره بعد التوجه و الالتفات- من غير حاجة إلى كسب جديد فعند الذهول و النسيان كليهما لا شك أن الصورة غير حاصلة في قوتنا المدركة و إلا لكانت مدركة بالفعل إذ لا معنى للإدراك إلا حصول صورة الشيء في القوة الدراكة.

لكن يجب الفرق بين حالتي الذهول و النسيان و الفرق بينهما ليس إلا بكون الصورة حالة الذهول و إن لم تكن حاصلة في القوة المدركة لكنها حاصلة في القوة

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۷۵

الحافظة لها و ما في حالة النسيان فزال عنهما جميعا أما زوالها عن المدركة فبمحوها عنها و أما زوالها عن الحافظة فبزوال نسبة كونها حافظة لبطلان استعداد النفس و تهيئها للاتصال بها و قبول الفيض عنها ففي القوى الانطباعية لقبولها التكثر و الانقسام جاز عند العقل أن يكون بعضها مدركا و بعضها حافظا كما هو المشهور من أن موضعا من تجاويف الدماغ فيه محل الإدراك و قبول الصور و موضعا آخر فيه محل الحفظ و الإدامة.

و أما القوة الغير المنطبعة كالعاقلة منا فلا يمكن انقسامها إلى محل الإدراك و محل الحفظ و الاختزان فلا جرم خازن المعقولات جوهر عقلي يختزن فيه صور الأشياء المعقولة- كلما توجهت النفس إليه انتقشت بصورة ما تناسبه و إذا أعرضت عنه إلى ما يلي العالم الحسي و الدار الجسدانية أو إلى صورة أخرى انمحت عنها المتمثلات و غابت كمرآة

تحاذي بها جانب صورة مطلوبة بعد أن صارت مجلوة و أزيلت عنها الغشاوة و الصدى بتجشم اكتساب و تعمل و تكلف فمهما بقيت على وضع المحاذاة كانت الصورة منعكسة فيها أو فائضة عليها على اختلاف الرأيين أعني الإشراق و الرشح في الممثل له كما في المثال- و كلاهما غير ما هو المختار عندنا فيهما كما أشرنا إليه و مهما تحولت و انصرفت زالت عنها- فإذن النفس متى كانت مجلوة المرآة متطهرة القلب بقيت على ملكة الاتصال و استعداد الاستشراق و قابلية الارتسام التي اكتسبتها فكان المنمحي عنها مذهولا عنه لا نسيا منسيا و كانت قوية على الاسترجاع و الإعادة من دون تعمل اكتساب جديد

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۷۶

و تجشم اقتناص مستأنف لبقاء المعارفة و المناسبة بين المدرك و الحافظ و القابل و الفاعل و المستفيض و المفيض بخلاف ما إذا بطلت صقالتها و انكدرت تارة أخرى بغشاوة مادية و ظلمة طبيعية فيحتاج إلى استيناف اكتساب و تعمل لإزالة الحجاب و حصول المناسبة و بالجملة فقد ثبت وجود جوهر عقلي انحفظت فيه المعقولات كلها و هو المطلوب.

تكميل انحلالي لشك إعضالي

إن في هذا المنهج شكا من جهة السهو و النسيان قد استصعبه المناظرون حتى أنه نقل عن بعض تلامذة المحقق الطوسي أنه لم يقدر على حله و لم يأت بمشبع من الكلام في دفعه قال العلامة الحلي في شرح تجريد العقائد في مطابقة الأحكام الذهنية الصادقة لما في نفس الأمر بهذه العبارة و قد كان في بعض أوقات استفادتي منه ره جرت هذه النكتة و سألته عن معنى قولهم إن الصادق في الأحكام الذهنية هو اعتبار مطابقتها- لما في نفس الأمر و المعقول في نفس الأمر إما الثبوت الذهني أو الخارجي و قد منع كل منهما- فقال ره المراد بنفس الأمر هو العقل الفعال فكل صورة أو حكم ثابت في الذهن- يطابق الصور المنتقشة في العقل الفعال فهو صادق و إلا فهو كاذب فأوردت عليه أن الحكماء يلزمهم العقول بانتقاش الصور الكاذبة في العقل الفعال لأنهم استدلوا على ثبوته بالفرق بين السهو و النسيان فإن السهو هو زوال الصورة المعقولة عن الجوهر العاقل و ارتسامها في الحافظة لها و النسيان هو زوالها عنهما و هذا يتأتى في الصور المحسوسة أما المعقولة فإن سبب النسيان هو زوال الاستعداد بزوال المفيد للعلم في باب التصورات و التصديقات و هاتان الحالتان قد تعرضان في الأحكام الكاذبة فلم

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۷۷

يأت بمشبع انتهى كلامه ره.

قال الفاضل الدواني في حله إن شأن العقل الفعال في اختزان المعقولات- مع الصوادق الحفظ و التصديق جميعا و مع الكواذب الحفظ فقط دون التصديق أي الحفظ على سبيل التصور دون الإذعان لبراءته عن الشرور و الأسواء التي هي من توابع المادة انتهى ما ذكره و فيه ما لا يخفى من الخلل و القصور- أما أولا فلأن ما في العقل الفعال هو أشد تحصلا و أقوى ثبوتا مما في أذهاننا فاقتران الموضوع للمحمول إذا حصل في أذهاننا فربما كان الاقتران بينهما اقترانا ضعيفا و ارتباط أحدهما بالآخر ارتباطا متزلزلا و ذلك لضعف سببه و كاسبه و دليله حيث

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۷۸

لم يكن الاقتران بينهما من برهان ذي وسط لمي أو من تحدس أو حس أو تجربة أو غير ذلك فيكون الحكم منا باقترانهما غير قاطع فهو شك أو وهم و ربما كان الواقع بخلافه فيكون حكما كاذبا و أما إذا اقترن الموضوع بالمحمول في العقل الفعال فيكون اقتران أحدهما بالآخر اقترانا مؤكدا ضروريا حاصلا من أسباب وجودهما على هذا الوجه- كاقتران أحدهما بالآخر في ظرف الخارج و ليس مصداق الحكم إلا عبارة عن اقتران الموضوع بالمحمول أو اتحادهما في نحو من الوجود في الواقع.

و أما ثانيا فلأن التصور و التصديق كما تقرر و تبين في مقامه إنما هما نوعان- من العلم الانطباعي الحادث في الفطرة الثانية فأما علوم المبادي العالية و علم الحق الأول جل ذكره فليس شيء منهما تصورا و لا تصديقا فإن علوم المبادي كلها

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۷۹

عبارة عن حضور ذواتها العاقلة و المعقولة بأنفسها و حضور لوازمها الوجودية بنفس حضور ذواتها الثابتة لذواتها من غير جعل و تأثير مستأنف و تحصيل ثان حسبما قررناه كعلمنا بذاتنا و لوازم ذاتنا غير المنسلخة عنا بحسب وجودنا العيني و هويتنا الإدراكية التي هي عين الحياة و الشعور.

و أما حل الإشكال و حق المقال فيه على وجه تطمئن به القلب و تسكن إليه النفس- فهو يستدعي تمهيد مقدمة هي أن كل ملكة راسخة في النفس الإنسانية سواء كانت من باب الكمالات أو الملكات العلمية أو من باب الملكات أو الكمالات العملية كملكة الصناعات التي تحصل بتمرن الأعمال و تكرر الأفعال كالكتابة و التجارة و الحراثة و غيرها فهي إنما تحصل بارتباط خاص من النفس بالعقل الفعال لأجل جهة فعلية من الجهات الموجودة فيه لأن الأنواع المختلفة لا يكفي في تكثرها و وجودها تكثر القوابل أو تكثر جهاتها القابلية- بل يحتاج إما إلى مباد متعددة عقلية كما رآه الأفلاطونيون من أن علل الأنواع المتكثرة- في هذا العالم عقول متكثرة هي أربابها و إما إلى جهات متعددة فاعلية في العقل الأخير- كما هو رأي المشائين.

و بالجملة فجميع الكمالات الوجودية في هذا العالم مبدأها و منشأها من حيث كونها أمرا وجوديا من ذلك العالم سواء سميت خيرات أو شرورا إذ الشرور الوجودية شريتها راجعة إلى استلزامها لعدم شيء آخر أو زوال حالة وجودية له و هي في حد نفسها و من جهة وجودها تكون معدودة من الخيرات كالزنا و السرقة و نظائرهما و منها الجهل المركب و الكذب فكل منهما في نفسه أمر وجودي و صفة نفسانية يعد من الكمالات لمطلق النفوس بما هي حيوانية و إنما يعد شرا بالإضافة إلى النفس الناطقة لمضادتها لليقين العلمي الدائم و لملكة الصدق فإن الأول خير حقيقي و الثاني نافع في تحصيل الحق.

فإذا تمهدت هذه المقدمة فنقول لا يلزم أن يكون ما بإزاء كل ملكة نفسانية

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۸۰

أو أمر وجودي في العقل الفعال أو في عالم العقل هو بعينه من نوع تلك الملكة أو ذلك الأمر بل الذي لا بد منه هو أن

يكون فيه أمر مناسب لتلك الملكة أو لذلك الأمر فإذن كما أن النفس إذا تكررت ملاحظتها لعلوم صادقة حقة حصلت لها ملكة الاتصال و الارتباط- بشأن من شئون العقل الفعال متى شاءت من هذه الجهة فكذلك إذا ارتسمت فيها صورة قضية كاذبة و تكرر ارتسامها أو التفت النفس إليها التفاتا قويا حصلت لها ملكة الاتصال من هذه الجهة بشأن آخر من شئونه متى شاءت و لا يلزم أن يكون ذلك الشأن بعينه قضية ذهنية صادقة و لا هذا قضية كاذبة بل أمرا يناسب ذاك أو أمرا يناسب هذا فهذا معنى اختزان صور الأشياء في عالم العقل و استرجاع النفس إليه.

و قد أشرنا لك مرارا أن ليس معنى حصول صور الموجودات في العقل البسيط

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏٧، ص ٢٨١

ارتسامها فيه على وجه الكثرة المتمايزة بعضها عن بعض كما أن صورها المحسوسة ترتسم في المادة الجسمانية و كذا صورها النفسانية التفصيلية التي ترتسم في النفس الخيالية على هذا الوجه- و ذلك لضيق هذا العالم و ما يتعلق به من المشاعر عن الحضور الجمعي و التمام العقلي- و البراءه عن العدم و الغيرية و الكثرة و الانقسام

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏٧، ص ٢٨٢

الموقف العاشر في دوام جود المبدإ الأول و أزلية قدرته

و بيان أنه لم ينقطع و لا ينقطع فيضه عما سواه أبدا و لا يتعطل عن الفعل دائما مع أن العالم متجدد كائن فاسد و إنما الذي لا يبيد و لا ينقص و لا ينفد أبدا هي كلمات الله التامات و علومه الباقيات و هي ليست من جملة العالم و ما سوى الحق كما أشرنا إليه مرارا و فيه فصول

الفصل (١) في الإشارة إلى شرف هذه المسألة و أن دوام الفيض و الجود لا ينافي حدوث العالم و تجدده في الوجود

اعلم أن هذه المسألة من عظائم المهمات الحكمية و الدينية التي يجب تقررها في الأذهان و العقول و لا يمكن الوصول إلى معرفة الله و توحيده و تنزيهه عن الكثرة و النقصان إلا بإتقان هذه المسألة الشريفة على وجه يطابق البراهين الحكمية و يوافق

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏٧، ص ٢٨٣

القوانين النبوية و قد يتوهم أكثر ضعفاء العقول و الجمهور من المبرسمين أن أقوال الملتزمين للقواعد الحكمية و العلوم العقلية و حججهم و أدلتهم مخالفة للشرائع الإلهية و لما جاءت به الأنبياء و إن أساطين الحكماء الأقدمين يقولون إن العالم قديم بالكلية و إن الأفلاك و الكواكب و صورها و هيولياتها بل هيولى العناصر و كلياتها قديمة بالهويات الشخصية مستمرة الذوات بوجوداتها و شخصياتها لا داثرة و لا زائلة و لا حادثة و لا فاسدة و هذا قد ذكرنا في مباحث مقولة الجوهر و أقسامها أنه افتراء على أولئك السابقين الأولين قدس الله أنوارهم و أسرارهم عن هذا الظن القبيح المستنكر المخالف لما جاءت به الرسل و أولياؤهم ع.

نعم ذهبوا إلى أن جوده دائم و فيضه غير منقطع و لكن العالم يتجدد مع الأنفاس

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۸۴

و من هذا الوجه قوله عز ذكره **كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** و ليست شئونه إلا أفعاله و تجليات أسمائه كما سبق بيانه و لا يمكن حدوث الفعل من المبدإ التام و لا ارتباط المتغير بالثابت القديم إلا بنحو دوام التجدد و الانقضاء و التدرج في الحدوث و البقاء و اتصال التبدل و التصرم في الوجود و الفناء كما هو المشهور عند الجمهور في نفس الحركة- حيث قيل إنها هوية تدريجية توجد في الخارج شيئا فشيئا و تعدم شيئا فشيئا.

و أما عندنا فالحركة ليست من الهويات الخارجية بل أمر عقلي معناها نفس الخروج من القوة إلى الفعل على التدريج و هو كسائر المفهومات الاعتبارية التي تصلح لأن تكون عنوانا لحقيقة خارجية و الذي ينتزع منه هذا المعنى المصدري هو الذات الخارجية التي يخرج وجودها من القوة إلى الفعل تدريجا فوجوده لا محالة- تدريجي و حدوثه بعينه يلزم الزوال و انقطاع بعضها عن بعض عين الاتصال و ليس

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۸۵

هذا الذي ذكرناه صفة الحركة لأنه ليست في الحركة حركة و ليس لها وجود تدريجي- بل هي عبارة عن تدريج وجود شيء آخر و خروجه إلى الفعل يسيرا يسيرا فالحركة عبارة عن متحركية شيء آخر في الحصول لا متحركية نفسها و إلا لتسلسلت الحركات إلى غير نهاية و الذي يتدرج وجوده بالذات هو بعض أنواع المقولات ففي المشهور هي أنواع أربع من المقولات الكم و الكيف و الأين و الوضع و في التحقيق هي أنواع خمس منها و هي الأربع المذكورة مع مقولة الجوهر فإن الطبائع المادية و النفوس المتعلقة بالأبدان الطبيعية كلها متحركة في ذاتها و جوهرها عندنا كما أقمنا البراهين عليه و بينا أن جميع الهويات الجسمانية التي في هذا العالم سواء كانت بسائط أو مركبات و سواء كانت صورا أو موادا و سواء كانت فلكية أو عنصرية و سواء كانت نفوسا أو طبائع فهي مسبوقة بالعدم الزماني فلها بحسب كل وجود معين مسبوقية بعدم زماني غير منقطع في الأزل ففي الأزل أعدام جميع الأشخاص الجسمانية و الهويات الطبيعية إذ كلها على الاستغراق الشمولي الأفرادي و الجمعي مما يصدق عليها أنها مسبوقة بعدم أزلي فكلها حادثة ليس فيها واحد شخصي مستمر الوجود و لا حقيقة ثابتة الهوية فإن المسمى بالكلي الطبيعي و الماهية لا بشرط ليس لها في ذاتها من حيث ذاتها وجود و لا وحدة و لا كثرة و لا استمرار و ثبات و لا أيضا انقطاع و حدوث بل هي في جميع هذه الصفات تابعة لأفرادها موجودة بعين وجودها واحدة بوحدتها كثيرة بكثرتها قديمة بقدمها حادثة بحدوثها.

فإذا تحقق و تبين بالبرهان أن جميع أفرادها حادثة فهي لا محالة حادثة في نفس الأمر و إن لم تكن حادثة بحسب اعتبار ذاتها من حيث ذاتها لكنها كما لا تكون حادثة من حيث اعتبار ذاتها بذاتها فكذلك ليست بقديمة من تلك الحيثية و من هاهنا ينكشف و يظهر أن ما اشتهر عن الحكماء و أذعن به أكثر الأذكياء من أن طبائع الأنواع المتعاقبة الأشخاص قديمة و إن كانت أشخاصها كلها حادثة إذ الماهية منحفظة بتعاقب الأشخاص

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۸۶

ليس بصحيح أصلا بل فيه مغالطة بين أخذ الحد مكان المحدود و فيه خلط بين الواحد بالعدد و الواحد بالمفهوم و إن

أكثر الناس زعموا أن معنى كون الماهية واحدة و الأفراد متكثرة- هو أن يكون هناك أمر واحد متقيد بقيود مختلفة و يعرضه صفات متقابلة يكون محفوظ الذات مع كل قيد و إذا زال بعض القيود و التعينات لا يزول ذلك الأمر بزواله- بل يبقى مستمرا ثم يلحقه بعض آخر منها و ذاته هي هي بعينها كمحل واحد- يطرأ عليه صفة بعد أخرى و هو هو بعينه كجسم يبيض تارة و يسود أخرى و يتسخن تارة و يتبرد أخرى و هو بعينه ذلك الجسم الموجود أولا مع تبدل الصفات و تغاير الأحوال.

هذا سهو عظيم عند المحققين فإن الشيخ الرئيس شنع على من زعم أن الكلي الطبيعي في الخارج شيء واحد بالذات متكثر باللواحق موجود في أمكنة متعددة و في أزمنة متكثرة حتى قال إن نسبة المعنى الكلي إلى جزئياته ليست كنسبة أب واحد إلى أبناء كثيرين بل كنسبة آباء إلى أبناء و ليس كل واحد من الناس إلى إنسانيته فمجرد نسبته إلى إنسانية تفرض منحازة عن الكل بل لكل واحد إنسانية أخرى هي بالعدد غير ما للآخر من الإنسانية و أما المعنى المشترك فيه فهو في الذهن- و قد سلف تحقيق هذا المبحث في مسائل الماهية.

تنبيه تفريعي

و من العجب من أتباع الفلاسفة حيث إن المتكلمين لما حاولوا إثبات البداية و الانقطاع للحركة و الزمان و ما يطابقهما من الحوادث المتعاقبة بإجراء التطبيق و التضايف و غيرهما فيها قالوا إن هذه المتعاقبات و الحوادث لا اجتماع لها في الخارج و لا في الخيال حتى يجري فيها المطابقة و المضايفة و يحكم عليها بالانقطاع و قد ذهلوا و غفلوا عن أن تلك الأمور لما لم يكن لمجموعها وجود في

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۸۷

الخارج لا يمكن الحكم بأزليتها و قدمها كما لا يمكن الحكم بتناهيها و انقطاعها- فكيف يصح القول منهم بأزلية الحركات و قدم الزمان و لا تناهي الحوادث على وجه العدول.

بل الحق أن يسلب عنها القدم و اللاتناهي بمعنى السلب العدولي و كذا يسلب عن مجموعها الحدوث و التناهي سلبا بسيطا و لكن يثبت لكل واحد واحد من جزئيات الحركة و الزمان و الحوادث الحدوث و يحكم عليها بالتناهي و الانقطاع حكما إيجابيا تحصيليا و لا يلزم من ذلك أن يكون الكل حادثا لأن الحكم على كل واحد قد لا يتعدى إلى الحكم على المجموع كما يلزم من ذلك أيضا أن يكون الكل أي المجموع قديما كما زعم و لا أيضا أن يكون الكلي الطبيعي قديما كما مر بيانه.

و ليس لمتوهم أن يتوهم أن الكل إذا لم يكن له نهاية ثبت أنه لا نهاية له و أن الكلي إذا لم يكن في ذاته حادثا كان في حد ذاته قديما لأنا نقول- أما في الأول فبأن ما لا وجود له لا يثبت له شيء أصلا فالحكم الإيجابي يستدعي وجود الموضوع فكيف يثبت لما لا ثبوت له شيء من الأشياء سواء كان ذلك الأمر أمرا وجوديا أو عدميا كالعمى و اللابصر و اللاكتابة فالمعدوم كما يسلب عنه البصر

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۸۸

كذلك يسلب عنه اللابصر و قد علمت أن ليس نقيض ثبوت البصر لشيء ثبوت اللابصر له بل نقيضه سلب ثبوت البصر

له على أن يكون قاطعا للنسبة الثبوتية واردا عليها- لا أن يكون النسبة واردة عليه رابطة إياه بالموضوع فالكتابة و اللاكتابة بمعنى العدول كلتاهما مسلوبتان عن المعدوم بمعنى أن ليس شيء منهما ثابتا له لا أن ليسية شيء منهما ثابتة له.

و أما في دفع الثاني أن معنى قولنا إن الكلي الطبيعي غير حادث أن الماهية ليست من حيث هي هي متصفة بالحدوث بمعنى أن حيثية الاتصاف بالحدوث ما نشأت من نفس الذات لا أنها لا توصف بالحدوث في الواقع بل هي متصفة بالحدوث في الحقيقة- لأن اتصاف الفرد بكل صفة هو عين اتصاف الطبيعة لا بشرط شيء بتلك الصفة بعينها.

ثم لو سلمنا أن الماهية من حيث نفسها غير متصفة بالحدوث لكن لا يلزم من ذلك اتصافها في نفسها بالقدم أو اللاحدوث لما سبق في مباحث الماهية أنه إذا سئل عن الماهية من حيث هي هي بطرفي النقيض فالجواب السلب من كل شيء بتقديم السلب على الحيثية- و بالجملة هذه الماهيات التي أفرادها متجددة كائنة فاسدة إذا سئل عن كيفية حصولها في الأعيان هل هي حادثة أو قديمة فالجواب أنها في نفس الأمر و بحسب الخارج حادثة و ليست بقديمة و لا دائمة أصلا إذ لو اتصفت بالأزلية و الدوام في الخارج أو في نفس الأمر لكان لها لا أقل فرد واحد موصوف بالقدم إذ لا وجود لها إلا في الأفراد بل وجودها وجود الأفراد بعينها فلا اتصاف لها بشيء من العوارض إلا بسبب اتصاف فرد منها به و إذ ليس في أفرادها شيء يوصف بالقدم و الدوام فلا يوصف الماهية أيضا بذلك.

و إذا سئل عنها بأنها هل هي من حيث ذاتها قديمة أو حادثة فالجواب سلب كل من الطرفين- القدم و الحدوث و اللابداية و البداية و اللاانقطاع و الانقطاع جميعا لأنها لا توصف بشيء منها من حيث ذاتها لذاتها و إنما توصف بها في الواقع من جهة وجودها الذي هو نفس وجود أفرادها

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۸۹

فصل (۳) في بيان حدوث الأجسام بالبرهان من مأخذ آخر مشرقي غير ما سلف في مباحث أحكام الجوهر من العلم الكلي

و هو أن كل شيء يوصف بصفة من الصفات لا بد أن لا يكون بحسب وجود نفسه و مرتبة قابليته و معروضيته موصوفا بما ينافي تلك الصفة و إلا لزم اتصاف أمر واحد بالمتنافيين- سواء كان الاتصاف بحسب العقل في ظرف التحليل أو في الخارج.

و القسم الأول كالماهية في اتصافها بالوجود و عروضه لها فإن الماهية لو كانت بحسب نفسها معدومة لما أمكن عروض الوجود لها بل ينبغي أن لا تكون الماهية من حيث نفسها متعينة بأحد الطرفين أعني الوجود و العدم حتى يتصور عروض شيء منهما لها.

و القسم الثاني كالمقدار الجسماني أو الاتصال الامتدادي العارض للهيولى فإنه يجب أن يكون الهيولى غير متعينة الذات باللامقدار و لا متجردة في ذاتها عن الامتداد- حتى يمكن قبولها للممتد في ذاته و اتصافها بالمقدار لذاته و كذا الوضع و الحيز إذا عرض لشيء و صار ذلك الشيء بعروضه إياه ذا وضع و حيز يجب أن لا يكون بحسب وجوده في نفسه مجردا عن الأوضاع و الأحياز فإن المفارق عن المقدار في نفسه- و المجرد عن الوضع و الحيز في وجوده و تعينه لا محالة يكون وجوده وجود أمر عقلي- بل يكون بالضرورة عقلا صرفا مفارق الذات عن المقدار و الجسمية و لوازمها

فكيف يسنح له ما يجعله متجسما ذا وضع و يعرض له التلبس بهذه الأمور.

فظهر أن الأمر القابل لمثل هذه الأمور يجب أن يكون حالته بالقياس إليها- حالة إمكانية مبهمة ناقصة نسبة تلك الحالة إلى كل منها نسبة النقص إلى الكمال و نسبة الضعف إلى القوة و لهذا يقال إن الهيولى في ذاتها لا متصلة و لا منفصلة- و لا واحدة و لا كثيرة و لا ذات وضع و حيز و لا غير ذات وضع و حيز

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۹۰

ثم اعلم أنه فرق بين الأحوال التي هي من ضروريات وجود الشيء و لوازم هويته بحيث لا يمكن خلو الموضوع عنها و عما يستلزمها أو ما يلزمها بحسب الواقع و الأحوال التي ليست من هذا القبيل فيمكن خلو الموضوع عنها في الواقع فالقسم الأول كالمقدار و الوضع و المكان و الزمان للجسم و القسم الثاني كالسواد و الحرارة و الكتابة و أشباهها له ففي القسم الأول لا بد أن يكون محلها و قابلها غير متقوم الذات في وجوده لست أقول في ماهيته و مفهومه إلا بصورة محصلة إياه مفيدة لوجوده و لهذا لا بد أن يكون محل الجسمية و لوازمها من المقدار و الوضع و غيرهما مادة غير متقومة الوجود إلا بالصورة المستلزمة لها بخلاف القسم الثاني فإن محل السواد و إن وجب أن لا يكون متعينا بالسواد و لا باللاسواد و بما يضاده بل بحالة إمكانية لا تأبى عن عروض كل من السواد و ما يضاده إلا أن ذلك المحل يمكن أن يتحصل له وجود غير مفتقر في تقومه إلى صورة لونية أو سوادية لأن اتصافه بالسواد ليس نحو وجوده و لا من لوازم هويته في ذاته فيجوز أن يوجد جسم لا لون له و يمكن أن يتصور عنصر لا حار و لا بارد أعني الحرارة و البرودة المحسوستين العارضتين.

فإذا تقرر هذه المقدمات نقول لا شبهة في أن كون الشيء واقعا في الزمان و في مقولة متى سواء كان بالذات أو بالعرض هو نحو وجوده كما أن كون الشيء واقعا في المكان و في مقولة أين سواء كان ذلك الوقوع بالذات أو بالعرض هو نحو وجوده فإن العقل المستقيم يحكم بأن شيئا من الأشياء الزمانية أو المكانية يمتنع

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۹۱

بحسب وجوده العيني و هويته الشخصية أن ينسلخ عن الاقتران بهما و يصير ثابت الوجود بحيث لا يختلف عليه الأوقات و لا يتفاوت بالنسبة إليه الأمكنة و الأحياز و من جوز ذلك فقد كابر مقتضى عقله و عاند ظاهره باطنه و لسانه ضميره.

فإذن كون الجسم بحيث يتغير و يتبدل عليه الأوقات و يتجدد له المضي و الحال و الاستقبال مما يجب أن يكون لأمر صوري داخل في قوام وجوده في ذاته حتى يكون في مرتبة قابليته لهذه التجددات غير متحصلة الوجود في نفس الأمر إلا بصورة التغير و التجدد و لا متقدمة في الوجود على وصف التغير و الانقضاء بل إنما له الاتصاف بإمكان ذلك الوصف و مقابله بحسب مرتبة من مراتب نفس الأمر لا في حاق الواقع و عين الأعيان كما أن الهيولى لها في ذاتها بحسب ذاتها أن لا تكون متجسدة و لا لا متجسدة و لا متقدرة و لا غير متقدرة و لا متحيزة و لا لا متحيزة و لا ذات وضع و لا ذات عدم وضع حتى يمكن اتصافها بكل من هذه الأمور و مع ذلك فإن الواقع منها في نفس الأمر ليس إلا التجسم و التقدر و لوازمهما من الأين و الوضع و غير ذلك.

و قد علمت الفرق بين عدم الاتصاف بصفة في نفس الواقع و بين عدم الاتصاف بها في مرتبة من مراتب الواقع و الأول غير مستلزم للثاني و كذلك الفرق ثابت بين الاتصاف بصفة في الواقع و بين الاتصاف بتلك الصفة في كل مرتبة من مراتب الواقع و الأول لا يوجب الثاني فإن الماهية قد تتصف بوجودها في نفس الواقع و لا تتصف به في مرتبة ذاتها من حيث هي هي و كذا الهيولى متصفة بالتجسم و التقدر في نفس الأمر و ليست

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۹۲

متجسمة و لا متقدرة في حد نفسها و مرتبة قابليتها نعم كل ما يثبت لشيء في مرتبة نفسها بما هي هي فهو لا محالة ثابت لها في الواقع دون العكس الكلي و ليس الأمر كذلك في جانب السلب كما تكرر بيانه.

فإذن تبين و انكشف أن نعت التغير و التجدد للأجسام و وقوعها في مقولة متى أمر صوري جوهري مقوم لها أو مقوم لما يلزم وجودها و شخصيتها أو في مرتبة وجودها و شخصيتها و ليس من العوارض التي يمكن تجرد الجسم عنها و خلوه في الواقع عن عروضها كالسواد و الحرارة و نظائرهما فوجب أن يكون صورة الأجسام صورة متجددة في نفسها و طبيعتها التي بها يكمل ذاتها و يتحصل نوعيتها و يتقوم مادتها أمرا متجددة الهوية متدرجة الكون حادثة الذات كائنة فاسدة لا تزال تتجدد و تنقضي و تستقبل و تمضي و تحضر و تغيب و ذلك بحسب الوجود الخارجي و التشخص العيني و إن لم يكن كذلك بحسب الماهية العقلية و لا بحسب مرتبة المادة الهيولانية لها.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۹۳

و بالجملة كل ما يوصف به الحركة و الزمان بحسب الماهية عند القوم من الانقضاء و الحدوث و الاستمرار التجددي و البقاء الحدوثي فذلك مما يوصف به الأجسام الطبيعية بحسب وجودها الطبيعي الشخصي في حد هويتها الخارجية المتقدمة على سائر اللواحق العرضية فجميع الموجودات التي في هذا العالم واقعة لذاتها في الزمان و التغير مندرجة تحت مقولة متى كما أنها واقعة في المكان مندرجة تحت مقولة أين لكن بعضها متأخرة الوجود عن التغير و الزمان كأكثر عوارض الوجود كالسواد و الحرارة و الحركة و غيرها من الأكوان المسبوقة بالعدم و اللاكون الانفصالي و الاستحالات الانفعالية المنقطعة بغيرها و بعضها مع التغير و الزمان كطبائع البسائط الفلكية و الكوكبية و ما يجري مجراها معية ذاتية راجعة إلى الفيئية [العينية].

و ليست معية وجود الجسم في ذاته للزمان كمعية الثابت مع المتغير كما ظنه أكثر الناس إلا أنهم يفرقون بين معية العقل للزمان و معية الجسم له بأن الجسم لا ينفك عن الحركة و السكون و كل منهما متغير أما الحركة فبالذات و أما السكون فبحسب التقدير بمعنى أن الجسم الساكن لو كان بدل سكونه متحركا لكان زمان حركته كذا فالجسم و إن لم يكن متغيرا بل ثابتا في نفسه فلا يكون في الزمان بل مع الزمان كالعقل لكن بحسب وقوعه في الحركة و السكون يكون متغيرا فيكون في الزمان فرجعت معيته للزمان إلى الفيئية [العينية] بواسطة الحركة و لم يعلموا أن الشيء الثابت الوجود

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۹۴

في ذاته و هويته كالعقل المفارق يستحيل أن يكون محلا للتغير قابلا للحركة نعم يمكن أن يكون في حد ماهية الذهنية

أو بحسب مرتبة هيولية غير المتقومة بذاتها غير متحرك و لا ساكن و غير متغير و لا لا متغير حتى يمكن أن يتصف بالتغير و الحركة في الواقع فالجسم إذا كان ثابت الذات و الهوية في حد طبيعة النوعية الخارجية فمحال أن يوصف بالتغير و الحركة و لا أيضا بالسكون لأنه عدم الحركة عما من شأنه أن يقبل الحركة و اعلم أن القوم إنما وقعوا في هذا الغلط لعدم تحقيقهم الوجود و الهوية الخارجية و ذهابهم إلى أن الوجود و التشخص من الاعتبارات الذهنية و المعقولات الثانية التي لا يحاذي لها أمر في الخارج و ذهلوا عن أن الوجود هو نفس الأمر العيني الخارجي فضلا عن أن يحاذي له أمر آخر في العين.

ثم إنهم لما اعتبروا ماهية الجسم و ماهية الحركة و الزمان وجدوا أن ماهية الحركة و مقدارها خارجة عن ماهية الجسم و معناه فحكموا أنها من العوارض اللاحقة له كما حكموا في أصل الوجود بالزيادة على الماهية و أدى بهم ذلك إلى أن أنكروا- كون الوجود متحققا في الخارج و أن يكون له ثبوت للماهية الموجودة و ذلك لأن العارض مسبوق الوجود بوجود المعروض فإذن متى كان الوجود زائدا على الماهية الموصوفة به و كل صفة وجودها فرع وجود موصوفها فيعود الكلام إلى ذلك الوجود السابق فيتسلسل أو يدور

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۹۵

و هما باطلان فاتصاف الماهية به إنما يتحقق في ظرف الذهن.

و قد عرفت أن ذلك غير مجد و لا فرق بين الذهن و الخارج في لزوم التسلسل و الدور على تقدير كون الوجود أمرا مغايرا للماهية زائدا عليها زيادة الأوصاف اللاحقة لموصوفاتها بعد تمامية تحصلها و فعلية ذاتها بل الأمر فيه كما نور الله به قلب من يشاء من عباده.

و بالجملة القوم لم يفرقوا بين عوارض الماهية و عوارض الوجود و القسم الأول قد يكون متحدا بها في الواقع و العروض للماهية بحسب التحليل الذهني مرجعه كون الشيء بحيث يكون مفهومه خارجا عن الماهية محمولا عليها في الواقع و هذا لا ينافي العينية و الاتحاد في الخارج و الوجود نفسه من هذا القبيل فإنه من عوارض الماهية الموجودة به لا من عوارض وجودها و كذا الفصل للجنس و التشخص للنوع فإذن كون التدرج في الوجود- زائدا في التصور على ماهية الأجسام لا ينافي عدم زيادته على هوياتها الوجودية الشخصية الخارجية.

تلخيص و توضيح

معروض التغير و التجدد و محل الحركة إما أمر ثابت الذات متساوي النسبة إلى أجزاء الزمان أو متغير أو ليس بمتغير و لا ثابت و القسم الأول محال لاستحالة سنوح التغير الموجب لاختصاص الشيء إلى وقت معين على أمر مفارق في ذاته عن كافة الأزمنة و الأوقات و القسم الثاني لا يخلو إما أن يكون ذلك التغير زائدا على ذاته في الوجود أم لا و الأول يوجب إعادة الكلام في المحل و لزوم التسلسل أو الدور

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۹۶

و الثاني لا يخلو إما أن يكون عين ماهيته أو عين وجوده و الأول باطل لأن الذي يكون التغير عين ماهيته هي الحركة نفسها و محال أن يكون محل الحركة حركة إذ الشيء لا يعرض لنفسه و قد برهن أيضا أن الحركة ليست بمتحركة و لا

يجوز الحركة في الحركة و الثاني هو المطلوب.

و أما القسم الثالث فهو إما صورة الشيء المتغير أو مادته و الأول محال فإن الذي هو في الوجود بالفعل متغير لا يمكن أن يكون صورته التي بها يصير بالفعل غير متغيرة و لا ثابتة و الثاني هو المطلوب فإن المادة في نفسها لما كانت بالقوة من كل وجه- فهي و إن كانت متغيرة في نفس الأمر بالصورة لكنها في ذاتها غير متغيرة و لا ثابتة و لا متحركة و لا ساكنة لا يقال بقي هاهنا قسم آخر و هو أن يكون محل التغير المجموع- المركب من المادة و الصورة لأنا نقول قد علمت مرارا أن تمام الشيء المركب بصورته

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۹۷

لا بمادته فحكم الصورة بعينها حكم المجموع سيما عند من يقول بأن التركيب بينهما اتحادي.

فقد ثبت و تحقق أن الأجسام كلها متجددة الوجود في ذاتها و أن صورتها صورة التغير و الاستحالة و كل منها حادث الوجود مسبوق بالعدم الزماني كائن فاسد لا استمرار لهوياتها الوجودية و لا لطبائعها المرسلة و لا لمفهوماتها الكلية إذ الكلي لا وجود له في الخارج و الطبيعة المرسلة وجودها عين وجود شخصياتها و هي متكثرة و كل منها حادث و لا جمعية لها في الخارج حتى يوصف بأنها حادث أو قديم فكما أن الكلي لا وجود له إلا بالأفراد فالكل لا وجود له إلا وجودات الأجزاء و الأجزاء كثيرة فكذا حدوثها حدوثات كثيرة و المجموع لو كان له وجود غير وجودات الأجزاء فهو أولى بالحدوث إلا أن الحق أن ليس له وجود إلا باعتبار الوهم حيث يتوهم الجميع كأنها شيء واحد- لكن الوهم أيضا يعجز عن إدراك الأمور غير المتناهية و إحضارها معا.

و الفرق بين الكلي الطبيعي و الكل أن الكلي له وجود في ضمن كل فرد فيوصف بالحدوث كما يوصف بالوجود و أما الكل فلا وجود له في نفسه إذ الوجود يساوق الوحدة بل عينها كما علمت و لا وجود له في الجزء أيضا فلا يوصف بالحدوث و لا بالقدم كما لا يوصف بالوجود.

و أما الكلي العقلي فهو و إن كان عندنا موجودا بوجود الصورة المفارقة الإلهية- كما ذهب إليه أفلاطن الإلهي و من تقدمه من الحكماء الراسخين و الكبراء الشامخين- قدس الله أسرارهم و شرف أنوارهم لكن الصور المفارقة ليست من العالم في شيء و لا

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۹۸

هي ما سوى الله تعالى و إنما هي صور علم الله تعالى و كلماته التامات التي لا تبيد و لا تنفد كما قال سبحانه **مٰا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ بٰاقٍ** و قوله **لَوْ كٰانَ الْبَحْرُ مِدٰاداً لِكَلِمٰاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمٰاتُ رَبِّي** فإذن العالم بجميع أجزائه أفلاكه و كواكبه و بسائطه و مركباته حادثة كائنة فاسدة- كل ما فيه في كل حين موجود آخر و خلق جديد كما قدمنا ذكره في العلم الكلي و ما فوق الطبيعة و الله أعلم

الفصل (۳) في ذكر ملفقات المتكلمين و نبذ من آرائهم و أبحاثهم في هذه المسألة

قد سبق في العلم الكلي أن علة الحاجة إلى المؤثر هي الإمكان في الماهية و النقص- عن التمامية في الوجود لا الحدوث كما توهمه جمع قالت الفلاسفة إن الواجب لذاته إن كان بذاته مقتضيا و مرجحا لوجود الممكنات سواء كان المقتضي

ذاته فقط أو

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۲۹۹

مع صفة من الصفات على ما هو مذهب المتكلمين أن له صفات واجبة الوجود فهو يتقدم على جميع الممكنات لأنه علتها و مرجحها و المرجح دائم فيدوم الترجيح لأن كل ما لأجله كان الواجب لذاته صانعا للعالم مؤثرا فيه كوجود وقت أو زوال مانع أو وجود شرط أو حصول إرادة أو طبع أو قدرة و بالجملة وجود أي حال كان على ما يفرضه القائلون بالصفات كالأشاعرة و الكرامية و غيرهما من طوائف المتكلمين لا يخلو إما أن يكون أزليا كان لا محالة العالم كذلك أزليا لامتناع تخلف المعلول عن العلة التامة و إن لم يكن أزليا كان حادثا و كل حادث لا بد له من مرجح حادث و إلا لكان الحادث غير حادث ثم يعود الكلام إلى ذلك المرجح الحادث في احتياجه إلى مرجح آخر حادث- و لم يتجدد الآن و لم يتجدد قبله و هكذا إلى غير النهاية فيلزم حصول المطلوب من وجود حوادث لا أول لها.

و بالجملة فقد عرفت أن الواجب الوجود واحد من جميع الوجوه غير متغير و لا متبدل و أنه متشابه الأحوال و الأفعال فإن لم يوجد عنه شيء أصلا بل كانت الأحوال كلها على ما كانت عليه وجب استمرار العدم كما كان و إن تجدد حال من

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۰۰

الأحوال المذكورة موجبة لوجود العالم فهو محال لأنه ليس في العدم الصريح حال- يكون الأولى فيه أن يكون العالم موجودا أو بالباري أن يكون موجدا أو يكون فيه حال آخر تقتضي وجوبه لتشابه الحال هذا خلاصة كلامهم في إثبات قدم العالم.

أقول هذه المقدمات كلها صادقة حقة اضطرارية لكن مع ذلك لا يلزم منها قدم العالم فإنك قد علمت أن الماهية المتجددة الوجود ثباتها عين التجدد و فعليتها عين القوة الاستعدادية و وجودها مشوب بالعدم و تمامها و كمالها عين النقص و القصور- فهو مستند إلى فاعله التام الفاعلية و موجبه الدائم الفيض الثابت العلية من جهة ثباته- و فعليته و وجوده و تمامه و كماله لا من جهة تجدده و قوته و نقصه و قصوره لأنها من لوازم ذاته بلا جعل و تأثير لما علمت أن لوازم الماهية غير مجعولة.

و ظاهر أن المعلول لا يلزم أن يكون مثل العلة في نحو الوجود و قوامه و ثباته- بل مدار المعلولية على القصور في الوجود عن درجة وجود العلة الفاعلية و القصور إنما يكون بدخول العدم في هوية المعلول.

نعم الحدوث إذا كان وصفا زائدا على وجود الشيء المجعول كان السؤال باللمية واردا على تخصيص ذلك الحدوث بوقت مخصوص دون سائر الأوقات و أما إذا كان الحدوث و التجدد بمنزلة الماهية و لوازمها غير المجعولة فحكمه حكم سائر الماهيات الصادرة عن الفاعل الدائم المتعلقة الوجود بالفاعل الدائم دائما فكما لا يلزم من كون الواجب خالقا للإنسان أن يكون الواجب إنسانا و الإنسان واجبا فكذا لا يلزم من كون المؤثر القديم موجبا للحادث في ذاته أن يكون الحادث قديما أو القديم حادثا لأن الحدوث للموجود المتجدد الهوية بمنزلة الذاتي المقوم للماهيات و الجعل غير متخلل بين الذات و الذاتي فهذا حق الجواب عن شبهة الفلاسفة المنكرين لحدوث العالم بما فيه و معه.

و أما متكلمو أهل الملل فهم طائفتان

إحداهما القائلون بنفي العلية و المعلولية

في الموجودات و بالقدرة الجزافية- و ليس لأهل العلم كلام معهم لأن بناء المباحث العلمية على العلية و المعلولية و إيجاب

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۰۱

المقدمات الحقة لنتائجها و لو لم يكن الإنتاج للشكل الأول مثلا ضروريا و لا النتيجة لازمة للمقدمتين على الهيئة المخصوصة فلا يحصل يقين في العالم و إذ لا يقين فلا علم- و إذ لا علم فلا اعتماد و لا وثوق على تحقق شيء و لا اطمينان و لا غرض و لا غاية و لا رجوع و لا عود بل يكون الأديان و المذاهب و المساعي كلها هباء و هدرا إذ يمكن ترتب الفائدة المنظورة على خلاف هذا الذهاب و السعي أو نقيض الفائدة المنظورة على هذا الذهاب و السعي و لا يسأل عما يفعل و هذا الرأي قريب من آراء السوفسطائية.

و الثانية القائلون بهما الملتزمون لنفي الترجيح

بلا مرجح.

فبعضهم أثبت للواجب صفة زائدة على ذاته كالعلم و الإرادة و الحياة و القدرة و غير ذلك إلا أنهم يقولون السبب في إيجاد العالم إنما هو الإرادة فلا بد من مخصص- فبعضهم جعل المخصص مصلحة تعود إلى العالم و قد علمت في أوائل مباحث العلة و المعلول أن ذلك باطل و ما أدري أي مصلحة لأحد في أن لا يكون قبل عدد مخصوص من دورات الفلك دورات أخرى كثيرة وجودها قبل وجود العالم و بعضهم جعل المخصص ذات الوقت و هذا أيضا باطل إذ وجود المخصص مقدم على وجود المتخصص به

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۰۲

فالكلام عائد في ذات ذلك الوقت الذي صار مرجحا لوجود العالم فيه و مخصصا إياه به.

و بعضهم و هم الكرامية جعل الإرادة حادثة قائمة بذاته

فيلزم أن يكون إله العالم محلا للحوادث المتغيرة و ذلك محال لوجهين الأول أنه يلزم أن يكون في ذاته جهة فاعلية و جهة قابلية و هما جهتان مكثرتان لذات الموضوع لهما كما علمت- و الواجب بسيط الحقيقة فهذا ممتنع جدا الثاني لو حلت فيه الحوادث في الحادث الثابت زمانا- في ذاته الباطل بعد ذلك إن كانت علته نفس ذاته وجب أن لا يعدم عنها أبدا و إن كان المبطل له أمرا يضاده فما كان يوجد في ذاته فلا بد لحدوثه من علة و لبطلانه من علة أخرى حادثة و علة الحدوث لا تتخلى عن الحدوث و علة البطلان لا تتخلى عنه و ما هذا شأنه هو الحركة غير المتصرمة عند الفلاسفة و محلها الجرم المستدير الفلكي و عندنا هو الطبيعة في وجودها الخارجي و على أي وجه لا بد أن يكون محله هيولى جسمانية- فمحل هذه الإرادات المتصلة المتجددة إن كان هو ذات الباري جل اسمه يلزم أن يكون إله العالم جسما دائم الحركة متحركا على الدور بل يلزم على ما ذكرنا أن يكون ذاته متجددة الحدوث و الاستحالة فيحتاج إلى إله آخر يديم وجوده التجددي بتوارد الأمثال تعالى القيوم الواحد عن ظلمات هذه الأوهام المضلة المعطلة لأولي وساوس الوهم و

الخیال و ترك مسلك التصفیة و التجرید و الأخذ بالجلال و بناء البحوث علی القیل و القال و إن كان محلها غیر ذاته تعالی لزم أن یكون ذلك الغیر من معلولاته

الحكمة المتعالیة فی الاسفار العقلیة الاربعة، ج۷، ص ۳۰۳

و یكون الواجب لذاته منفعلا عن معلوله المتحرك المتجدد الوجود انفعالا دائما و ذلك محال و بإبطال الإرادة الحادثة في ذات الواجب جل ذكره اندفع قول بعضهم إن للواجب- لذاته إرادات حادثة غیر متناهیة لا إلی بدایة و لم یزل الباري مؤثرا بتلك الإرادات الحادثة حتی حدثت إرادة خاصة موجبة لحدوث هذا العالم و لا یلزم تسلسل الحوادث إلی غیر النهایة و یكون العقول و النفوس و الأجسام كلها حادثة.

و من القائلین بحدوث الإرادة كأبي علي الجبائي و أبي هاشم و القاضي عبد الجبار الهمداني و أتباعهم

فإنهم یقولون بأنها قائمة لا في محل و هو ممتنع فإن الإرادة إذا كانت عرضا فیحتاج إلی محل یقوم به فكیف یقوم بذاته إلا أن یریدوا بالإرادة معنی آخر جوهریا فیكون من جملة العالم فالكلام في حدوثه عائد.

و منهم من جعلها قدیمة

و قالوا بأن الإرادة القدیمة هي السبب في إیجاد العالم و أنها و إن كانت قدیمة إلا أن الله تعالی إنما أراد إحداث العالم في الوقت الذي حدث- و لم یكن إرادته متعلقة بإحداثه في وقت آخر غیر الوقت الذي وجد فیه و لا یجوز أن یسأل عن لمیة إحداثه و سبب تخصیصه العالم بذلك الوقت دون غیره فإن تلك الإرادة لذاتها و ماهیتها تقتضي التخصیص بذلك الوقت و الإحداث فیه و لوازم الماهیات لا ینبغي أن تعلل بأمر من الأمور غیر ماهیاتها التي هي ملزومات لها.

و أنت فقد عرفت أن الإرادة لا بد فیها من مرجح داع و الأوقات كلها متشابهة و في العدم الصریح لا یتفاوت شيء عن شيء و لا یتمایز معدوم عن معدوم و لا یتمیز فیه حال یكون الأولی فیه إیجاد العالم و كل ما یفرض قبل العالم مما هو علة لوجوده من حدوث إرادة أو وقت أو زوال مانع أو تعلق علم أو حصول مصلحة أو غیر ذلك من الأحوال- فإن الكلام عائد في حدوثه و استدعائه لمرجح حادث كما كان الكلام جاریا في علة حدوث العالم نفسه و ذلك یوجب تسلسل الحوادث إلی غیر النهایة.

الحكمة المتعالیة فی الاسفار العقلیة الاربعة، ج۷، ص ۳۰۴

و أما ما ذكره بعض المتكلمین من أن الحكماء

یقولون إن صدور هذا العالم- عن الواجب لذاته في وقت مخصوص لیس أولی من صدوره في وقت آخر غیره قبله أو بعده- فلا یوجد في ذلك الوقت المخصوص فلم یصب في هذا النقل عنهم فإن الحكماء متفقون علی أن الواجب تعالی متقدم علی جمیع الممكنات تقدما ذاتیا و الوقت المذكور من جملة الممكنات فإنه مقدار الحركة الدوریة الفلكیة عندهم و عندنا مقدار الوجود الطبیعي المتجدد بنفسه فلا یتقدم علی جمیع الممكنات و كذا الحركة و موضوعها و إلا لزم أن یتقدم الشيء علی نفسه و هو محال هذا ما قیل و ستسمع منا كلاما في تقدم الباري تعالی علی جمیع الممكنات تقدما زمانیا.

تذكرة و تسجیل

و لا يمكن لأحد أن يقول إن الإرادة القديمة أوجبت وجود العالم في الوقت الذي أوجده فيه و قبل ذلك الوقت لم يكن الإرادة القديمة موجبة لوجوده كما أنا إذا أردنا أن نفعل فعلا مخصوصا بعد سنة فأن الإرادة الموجودة الآن يقتضي وجود ذلك المراد بعد سنة و لا يقتضي وجوده في الحال فإن هذا أيضا محال فإنه ليس قبل جميع الممكنات شيء يوجب حصول المراد كالحال في المراد الذي

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۰۵

يتحصل بعد سنة فإن هناك أحوالا متجددة مانعة من حصول المراد إلا بعد السنة فلو فرض أن هذا المريد كان قادرا على تحصيل مراده الذي أراده فيما بعد السنة في الحال- الذي كان يريده بإحضار ذلك المراد مع وقته الذي كان قدره فيه لكان محضرا إياه مع ذلك الوقت بلا انتظار و لا إمهال و ليس قبل وجود العالم إلا العدم البحت الصريح و هو متشابه الأحوال في جواز تعلق الإرادة به فيستحيل أن يتميز فيه الوقت الذي تعلقت به الإرادة القديمة عن وقت آخر يماثله و كما أمكن تعلق الإرادة بهذا الوقت فتعلقها بالوقت الذي قبل هذا الوقت أيضا ممكن فما الذي أوجب تعلق الإرادة بهذا الوقت الممكن دون غيره و ما الذي ميزه عن غيره من الأوقات في تعلق الإرادة و الشيء لا يتميز عن غيره إلا بمخصص و لا مخصص في العدم الصرف كما عرفته غير مرة.

فظهر بما ذكرنا دوام جود الجواد المطلق و أزلية صنع الصانع الحق و إفاضته

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۰۶

على الأشياء أزلا و أبدا على نسق واحد و لكن دوام جود المبدع و إبداعه لا يوجب أزلية الممكنات لا كلها و لا جزؤها و لا كليها و لا جزئيها كما سبق و الفلاسفة لو اكتفوا على هذا القدر من إثباتهم أحدية ذات الصانع و كونه تام الفاعلية كامل القوة و القدرة دائم الجود و الرحمة غير ممسك الفيض و العناية و لا مغلول يد الكرم و البسط لحظة- لكان كلامهم حقا صحيحا إلا أن متأخريهم زادوا على ذلك و زعموا أن هذه المعاني تستلزم قدم العالم و دوام الفلك و الكواكب و بسائط الأجرام و صورها و نفوسها نوعا و شخصا

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۰۷

و دوام المركبات و صورها و نفوسها نوعا لا شخصا و قد أقمنا البراهين على بطلان ما ذهبوا إليه من تسرمد المجعولات و قدم شيء من الممكنات عناية من الله و ملكوته الأعلى

الفصل (٤) في بعض احتجاجات المتكلمين و أرباب الملل انقطاع الفيض

استدلوا على مذهبهم بحجج عديدة

الحجة الأولى أن الحوادث لو كانت غير متناهية

و ليكن تلك الحوادث مثلا حركات الأفلاك و دوراتها فيلزم أن يكون كل واحدة من الدورات مسبوقة بعدمات لا أول لها- فيكون العدمات كلها مجتمعة في الأزل من غير ترتيب لأن الترتيب إنما يكون في الأمور الوجودية لا في الأمور العدمية و إذا كان جميع العدمات المتقدمة على كل واحدة من هذه الدورات لها اجتماع في الأزل فلا يخلو مجموع

تلك العدمات إما أن يحصل معها في الأزل شيء من الذوات الوجودية أو لا يحصل معها شيء من ذلك و الأول يقتضي أن يكون السابق المتقدم مقارنا للمسبوق المتأخر و ذلك محال و الثاني و هو أن لا يحصل مع تلك العدمات المجتمعة في الأزل شيء من الموجودات فيلزم أن يكون لمجموع الموجودات بداية و ذلك هو المطلوب.

و قد يقررون هذا الوجه بطريق آخر فيقولون إما أن يجوز حصول شيء منها فيه- أو لا فإن جاز حصول شيء منها في الأزل و لم يسبقها غيره فيكون لمجموعها بداية

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۰۸

و هذان الطريقان لا يبتنيان على قاعدة أن الحكم على الكل هو الحكم على كل واحد- و قد يقررون هذا الوجه بناء على أن الحكم على الكل هو الحكم على كل واحد- فيقولون كل واحد من الحركات و الحوادث مسبوق بالعدم فيكون الكل مسبوقا بالعدم- أو كل واحد منها داخل في الوجود فيكون الكل داخلا في الوجود منحصرا فيه فلا يكون غير متناه.

و يجاب عن الطريق الأول أنكم إن عنيتم بكون العدم السابق لكل حادث- لا أول له كونه غير مسبوق بحادث آخر مطلقا فذلك ممنوع فإن عدم كل حركة يكون مسبوقا بحادث آخر إلى لا نهاية له و إن عنيتم بكون العدم السابق لكل حادث- لا أول له أن يكون كل من الحوادث مسبوقا بعدم ما و لا يكون مسبوقا بحادث آخر بعينه

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۰۹

فلا يلزم من صحة هذا اجتماع الأعدام في الأزل فإن معنى كون الشيء أزليا كونه غير مسبوق بالغير مطلقا و إذا كان كذلك فلا يلزم من عدم السبق بحادث معين عدم السبق بحادث أصلا لما عرفت أنه لا يلزم من انتفاء الأخص انتفاء الأعم.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۱۰

و أما الجواب عن الطريق الثاني فبأن يقال إن مسمى الحركة و الحوادث و هو القدر المشترك بين جميع الأفراد إما أن يؤخذ داخلا في جملة الحركات و الحوادث المذكورة أم لا يؤخذ كذلك فإن أخذ داخلا فيها فإذا قيل إما أن يجوز حصول شيء من الحركات و الحوادث في الأزل أو لا يجوز فنختار حينئذ حصول شيء منها في الأزل و ذلك الشيء هو مسمى الحركة و لا يلزم من كونه غير مسبوق بغيره أن يكون هو أول الحركات أو الحوادث و إنما يكون ذلك لازما أن لو كان هو الأول و أما إذا لم يؤخذ ذلك المسمى داخلا فيها فنحن نختار عدم حصول شيء من تلك الحركات و الحوادث في الأزل- قولهم لو كان كذلك لزم أن يكون لمجموعها بداية قلنا لا نسلم فإن الحق على ما قررنا- أن كل واحد من الحركات و الحوادث يسبقها مثلها إلى ما لا يتناهى فيكون مسمى الحركة المذكورة محفوظة بواسطة تعاقب الحركات أزلا و أبدا و فيه نظر فلا تذهل.

و إيجاب عن الوجه الثاني الذي يبتني فيه حكم الكل على حكم كل واحد فقد عرفت فساده إلا أن يقرر كما قررناه و هو منقوض الآن بقولنا كل ممكن ما عدا الحركة يجوز أن يقع كل واحد في الوجود دفعة واحدة و لا كذلك جميع الممكنات التي هي غير الحركة فإنها لا يمكن وقوعها دفعة لأن منها ما لا يقع إلا على الترتيب الزماني و كذلك يصدق

أن كل واحد من الضدين يمكن حصوله في محله واحد في وقت واحد و لا كذلك المجموع.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۱۱

و يجاب بجواب آخر و هو الأصل في هذا الباب و ذلك أن الحوادث الماضية- لا يمكن أن يكون لها كل مجموعي أبدا ليلزم من ذلك أن يكون ذلك الكل مسبوقا بالعدم أو غير مسبوق لأن تلك الحوادث معدومة و المعدوم لا كل له أصلا فلا يصح الحكم عليه بل ليس الموجود من تلك الحوادث في كل وقت إلا واحدا أو متناهيا

الحجة الثانية

لهم في إثبات حدوث العالم أن الحوادث في الأزل لو كانت غير متناهية لزم أن يكون وجود كل واحد منها يتوقف على انقضاء ما لا يتناهى من الحوادث و كلما يتوقف وجوده على انقضاء ما لا يتناهى فوجوده محال ينتج أن الحوادث لو كانت غير متناهية لكان وجود كل منها محالا و بطلان ذلك ظاهر.

و الجواب أنكم ما ذا تعنون بهذا التوقف إن عنيتم به المفهوم المتعارف و هو الذي يفرض عند كونه معدوما أنه يتوقف وجوده على كذا فالممتنع من التوقف على غير المتناهي- ما يكون الشيء متوقفا على ما لا يتناهى و لم يحصل بعد و ظاهر أن الذي لا يكون وجوده- إلا بعد وجود ما لا يتناهى في المستقبل لا يصح وقوعه فأما في الماضي فلم يكن وقت أو حالة كان فيها غير المتناهي الذي يتوقف عليه حادث معدوما فحصل بعد ذلك و حصل بعده الحادث إذ ما من وقت يفرض إلا و كان مسبوقا بما لا يتناهى و لا يأتي مما يتوقف على حركات إلا و يتوقف على ما لا يتناهى و إن عنيتم بهذا التوقف أنه لا يقع شيء من الحوادث- إلا بعد ما لا يتناهى فهو نفس محل النزاع فإن الخصم مذهبه أنه لا يقع حادث إلا و تسبقه حوادث لا إلى بداية و لا يصح وقوعه إلا هكذا فكيف يجعل محل النزاع مثبتا لنفسه- فإن جعل محل النزاع مقدمة مستعملة في إبطال نفسها أو إثبات نفسها من قبيل المصادرة على المطلوب الأول و هو من جملة المغالطات المذكورة في المنطق.

و بالجملة فالتوقف المذكور إن جعل بالمعنى الأول العرفي فالملازمة ممنوعة- و إن عني به المعنى الثاني فالملازمة مسلمة و الاستثناء ممنوع كما ذكرناه.

الحجة الثالثة

أن الحوادث الواقعة في الزمان الماضي لها آخر و كل ما له آخر فهو متناه ينتج أن الحوادث الواقعة في الماضي متناهية أما بيان الصغرى فلأن الآن الحاضر آخر ما مضى و أما بيان الكبرى فظاهر.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۱۲

و الجواب أنكم ما ذا تعنون بقولكم إن الآن آخر ما مضى إن عنيتم بكونه آخر أنه ليس بعده شيء من الزمان أصلا منعنا الصغرى فإن مذهب الخصم أن بعده آنات و أزمنة لا تتناهى و إن عنيتم به أنه آخر ما مضى بحسب فرضنا و اعتبارنا فقط فلا يلزم منه أن يكون آخر ليس بعده شيء آخر و أما النهاية المذكورة في الكبرى أن كل ما له آخر فهو متناه إن أريد بتلك النهاية أن يكون في جانب بداية الحوادث منعنا الكبرى- و إن أريد ما يكون في الجانب الآخر منها فيصير صورة النتيجة هكذا الحوادث الواقعة في جانب بداية الحوادث متناهية من جهة آخرها لكن لا يلزم من صحة ذلك تناهيها من

جهة بدايتها و ليس كلامنا في تناهي الحوادث من جهة آخرها بل الكلام إنما هو من جهة أولها و بدايتها فلا يضر ما ذكروه.

الحجة الرابعة

مأخوذة من برهان تناهي الأبعاد أنا إذا أخذنا الحركات الماضية من هذه السنة التي نحن فيها إلى الأزل جملة أخرى ثم أخذنا بناقص سنة و هو من العام الماضي على الأزل جملة ثم طبقنا في الوهم الطرف المتناهي من إحدى الجملتين على ما يشبهه- و يقابله من الجملة الثانية فلا يخلو إما أن ينقص الجملة الناقصة في الطرف الآخر أو لا تنقص فإن لم تنقص بل ذهبتا إلى غير النهاية كان الناقص مساويا للزائد و يكون الشيء مع غيره كهو لا مع غيره و كلاهما محالان و إن نقصت إحدى الجملتين عن الأخرى- لزم تناهي الجملة الناقصة من الجملة الأخرى التي في جهة الأول و الجملة الثانية الزائدة على الناقصة بمقدار متناه لا بد أن تكون متناهية فالجملتان من الحركات الماضية و كذا الحوادث المقارنة لها متناهية في جانب الأزل و ذلك هو المطلوب.

و الجواب أن الحركات الماضية التي تألفت منها الجملتان معدومة و الأمور المعدومة لا كل لها فيكون فرض اجتماعهما في الأزل محالا و حينئذ لا يلزم من فرض ذلك الاجتماع المحال انقطاع الحركات في الماضي لما عرفت من عدم اجتماع الحركات المتعاقبة التي لا يمكن وقوعها في الوجود إلا شيئا فشيئا.

الحجة الخامسة

أن الواجب لذاته لو كان علة تامة لوجود العالم و معلوم

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۱۳

أنه يلزم من وجود العلة التامة وجود معلولها و من دوامها دوامه فإذا فرضنا عدم الواجب لذاته لزم منه عدم العالم و بالعكس و يلزم من صحة ذلك التلازم أن يكون العالم مساويا للواجب لذاته و ذلك محال.

و الجواب أن ذلك اللزوم الذي ذكروه بين العلة و المعلول ليس على وتيرة واحدة من الطرفين فإن ارتفاع العلة التامة لذاتها يوجب ارتفاع المعلول و أما ارتفاع المعلول فلا يوجب لذاته ارتفاع العلة بل ارتفاع المعلول يستدل به على أن العلة قد ارتفعت قبل ذلك لا أن ارتفاع المعلول أوجب ذلك فاتضح الفرق بين اللزومين.

الحجة السادسة

ما ذكره صاحب المطارحات نيابة عن المتكلمين فقال النفوس الناطقة حادثة و باقية بعد البدن على ما اعترفتم به فلها اجتماع بعد المفارقة فذلك المجموع إما أن يكون حادثا أو غير حادث و يمتنع أن يكون غير حادث لأنه معلول الآحاد الحادثة على ما ذهبتم إليه و متى كانت العلة حادثة كان المعلول حادثا لا محالة فمجموع النفوس

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۱۴

الناطقة الحاصلة بعد مفارقة الأبدان حادث و إذا ثبت أن مجموعها حادث لزم أن يكون للحوادث بداية فإن الحوادث لو لم تكن متناهية في جهة الماضي كانت النفوس الحادثة بحسب حدوث الأبدان غير متناهية إلى نفس لا يكون قبلها نفس أخرى و حينئذ يلزم أن لا يكون مجموعها حادثا بالضرورة لكن مجموعها في الماضي حادث على ما عرفت-

فالحوادث لا محالة لها بداية و ذلك هو المطلوب.

و أجاب عنه من وجوه- الأول أن ذلك المجموع الذي أخذتموه من النفوس الناطقة في الزمان الماضي و إن كان حادثا لكن لا يلزم من حدوثه أن يكون للحوادث الماضية بداية لأن كل آحاد لها مجموع فإن ذلك المجموع بإضافة واحدة إليه يحصل له مجموع آخر مغاير للمجموع الأول و النفوس الناطقة الحادثة في الماضي و إن كان لها الآن مجموع- إلا أنه دائما في كل وقت يتبدل و يحصل مجموع غير ما كان بسبب حدوث النفوس في كل وقت- و انضمامها إلى كل مجموع يحدث مجموع آخر حدوثا زمانيا و هكذا لا يزال يتبدل ذلك المجموع إلى ما لا يتناهى و ليس الحكم مختصا بالنفوس الناطقة بل حال جميع الموجودات هكذا فإنه إذا أخذ قديمها مع حادثها مجموعا فإن ذلك المجموع لا محالة يتبدل في كل وقت بحسب حدوث الحوادث و انضمامها إليه و يحصل مجموع آخر غير المجموع الأول الذي كان قبل الزيادة و هذا لا يدل في النفوس الناطقة على نهايتها و بدايتها بل في كل وقت يحصل مجموع آخر غير ما كان حادثا قبل حدوث الحادث اللاحق- و لا يلزم من ذلك أن يكون هناك وقت لا يحصل فيه شيء من النفوس الناطقة و لا يدل

الحكمة المتعالية في الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۳۱۵

على أن لها بداية لا يكون قبلها نفس فاندفع ذلك السؤال.

و الجواب الثاني أن النفوس الباقية بعد المفارقة لا كل لها فلا يكون لها مجموع حقيقي إذ لا ارتباط لبعضها ببعض بحيث يتمكن من عدها و حصرها فلا يلزم ما ذكروه من نهاية الحوادث.

و الجواب الثالث أنا و لئن سلمنا تناهي النفوس الناطقة و حدوثها في الماضي- و لكن لا يلزم من ذلك تناهي الحوادث لجواز أن يكون الحوادث غير متناهية في الماضي مع تناهي النفوس و حدوثها بأن يتشكل الفلك بشكل غريب يحدث فيه نوع من الحيوانات لم يوجد قبل ذلك و لا يوجد بعده و يكون الإنسان من هذا القبيل و حينئذ يكون نوعه حادثا بعد أن لم يكن فلا يلزم من تناهيها تناهي الحوادثو هذا الجواب سخيف جدا و صدوره عجيب عن باحث حكيم فإن العناية الإلهية كيف تقصر عن إيجاد أشرف الأنواع الطبيعة في أزمنة غير متناهية و لا يحفظ

الحكمة المتعالية في الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۳۱۶

نوعه بتعاقب الأشخاص و الأمثال مع أنه يديم و يحفظ طبائع أنواع هي أدون و أخس منها- على أن قاعدة الإمكان جارية في كليات الأنواع و إن لم تجر في جزئياتها المتغيرة- و أيضا لكل طبيعة نوعية صورة عقلية في عالم الربوبية يجب أن يكون ذات عناية برقائقها و أظلالها بحفظها و إدامتها في كل وقت و تلك الصورة هي اسم إلهي عند العرفاء- و تجل من تجليات الحق الأول الذي كل يوم هو في شأن.

الحجة السابعة

أن كل عدد سواء كانت آحادها متناهية أو غير متناهية فهي إما زوج بالفعل و كل زوج منقسم بمتساويين و يكون نصفها أقل من كلها و كلما كان الشيء أقل من غيره كان متناهيا و إذا تناهى النصف تناهى الكل و إن كانت فردا فإذا نقصنا منها واحدا صارت زوجا و الزوج كما عرفت متناه فإذا أضفنا ذلك الواحد إلى ذلك الزوج المتناهي صار الكل متناهيا فعلى كلا التقديرين يكون النفوس الماضية متناهية و يلزم من نهايتها نهاية الحوادث.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۱۷

و الجواب قال الشيخ المتألّه في المطارحات إنا نسلم أن النفوس الناطقة المفارقة للأبدان لها عدد موجود في الأعيان لما عرفت أن العدد أمر اعتباري لا وجود له في الأعيان فلا يوصف بزوجية أو فردية و لا قلة و لا كثرة و لا مساواة و لا تفاوت- فلا كل لها عددي في الأعيان إذ لا ارتباط لبعضها ببعض في نفس الأمر و لا في الأذهان أيضا- فإن الذهن لا يمكنه عدها و تصورها على سبيل التفصيل و الاكتناه و على تقدير أن يسلم أن لها عددا فلا يلزم من ذلك أن يكون إما زوجا أو فردا فإن الزوجية و الفردية و التساوي و التشارك و التباين و الجذرية و المجذورية و غيرها من خواص العدد المتناهي و أقسامه لا من خواص مطلق العدد ثم لئن سلمنا عدم خلوها من الزوجية و الفردية فلم قلتم إن كل عدد يكون أقل من غيره يجب أن يكون متناهيا لانتقاض هذه القاعدة بالمئات غير المتناهية التي هي أقل من الألوف غير المتناهية و كذلك مقدورات الله تعالى عند المتكلمين أقل من معلوماته لدخول الممتنعات في قسم المعلومات دون المدورات مع عدم تناهيها.

أقول في هذا الجواب وجوه من النظر- منها أن الحكم بأن العدد غير موجود على إطلاقه غير صحيح و هذا الشيخ إنما حكم باعتبارية العدد لأن الوحدة و الوجود و التشخص كالإمكان و الشيئية و المعلومية أمور ذهنية اعتبارية عنده و لما كان العدد عبارة عن المؤلف عن الوحدات- و ما يتركب عن الاعتباريات فهو لا محالة اعتباري فالعدد اعتباري و أما نحن فقد أقمنا البرهان عن أن الوجود في كل موجود عين حقيقته و الماهية به تكون موجودة و عند التحليل يحكم بأن الوجود عيني و الماهية المجردة عنه اعتبارية محضة و الوحدة هي عين الوجود فتكون موجودة فبطلت هذه الحجة أعني الحكم بأن العدد اعتباري لأنه مؤلف من الاعتباريات.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۱۸

و منها أنه هب أن العدد أمر اعتباري لكنه ليس من الاعتبارات الكاذبة غير المطابقة لما في نفس الأمر حتى يتفرع عليه أنه غير قابل للقسمة إلى الزوجية و الفردية و المساواة و اللامساواة كيف و هذه الصفات تعرض أولا و بالذات للعدد و بواسطته للمعدود و هو ظاهر.

و منها أن غير المتناهي على معنيين أحدهما بالقوة و هو غير المتناهي اللايقفي- و ثانيهما بالفعل و هو غير المتناهي العددي و مقدورات الله تعالى عند المتكلمين غير متناهية بالمعنى الأول لا بالمعنى الثاني لأنهم منكرون لوجود الغير المتناهي بالفعل- مرتبا كان أو غير مرتب متعاقبا كان أو مجتمعا و التفاوت إنما يجوز في غير المتناهي بالمعنى الأول كقبول الجسم عند الحكماء للأنصاف المتداخلة غير المتناهية و الأرباع المتداخلة غير المتناهية و الثانية نصف الأولى.

تذكرة مشرقية

و اعلم أنا قد أشرنا سابقا إلى أن الوحدة معتبرة في كل شيء كالوجود- و أن الكثرة إذا لم يكن بين آحادها علاقة ذاتية لا يمكن الحكم عليها عند أخذها مجتمعة حكما وجوديا غير أحكام الآحاد فإن آحادها و وحداتها و إن كانت موجودة عندنا إلا أنها ليست موجودة بوجود واحد بل هي موجودات كثيرة لكل منها حكم خاص فإذا تقرر هذا فمن هذا المنهج يصح الجواب عن الحجة المذكورة بأن النفوس المفارقة ليس لها مجموع له وحدة خارجية حتى يحكم عليها

بأنها كذا أو كذا نعم للذهن أن يعتبر جملة منها و كل جملة في اعتبار الذهن فهي متناهية إذ الذهن لا يقدر على الإحاطة التفصيلية بالأمور غير المتناهية و كل مبلغ متناه من النفوس فهو إما زوج أو فرد و لا يلزم منه لا يتناهى ذلك المبلغ و الحوادث التي وجدت معها.

و هاهنا نكتة

و هي أنك ستعلم أن كثيرا من النفوس و هي الكاملة في العلم ستتحد بالعقل الفعال و ضرب منها و هي الناقصة الشقية تهوي إلى الجحيم و لا تصعد إلى عالم النفوس المفارقة و ذهب بعض الحكماء كإسكندر و غيره حتى الشيخ الرئيس أيضا في بعض رسائله إلى أن النفوس الناقصة هالكة لا تبقى بعد البدن و هذا المعنى يستفاد من بعض روايات أصحابنا الإمامية عن أئمتنا ع و ضروب أخرى منها متفرقة في

الحكمة المتعالية فی الاسفار العقلیة الاربعة، ج۷، ص ۳۱۹

طبقات النشأة الآخرة و على هذا فلا جمعية لها في مكان يحويها أو زمان يحيط بها أو في رباط عقلي يجمعها

نكتة أخرى

أن الجملتين إذا ترتبتا ترتبا وضعيا كما في المقادير أو عقليا كما في العلل و المعلولات فلكل منهما اتساق و انتظام بين آحادها- فإذا لوحظ الأول من آحاد إحداهما بإزاء الأول من آحاد الأخرى تتطابق بقية الآحاد- من غير أن يحتاج العقل إلى ملاحظة كل من الآحاد مع نظيره ملاحظة تفصيلية بل يكفي الملاحظة الإجمالية و أما في غير المرتبة أو في الأمور الاعتبارية المحضة فلا يكفي إلا تطبيق الجميع واحدا واحدا مع ما يحاذيها على التفصيل و العقل لا يفي به و قد شبه بعضهم الجملتين الأوليين بحبلين ممتدين بل بخشبتين ممتدتين إذا طوبق مبدؤهما و الثانية بالحصيات المتفرقة المجتمعة من غير ترتيب فلا يجري البرهان إلا في الأمور الموجودة المترتبة فاندفع ما ذكروه من جريان برهان التطبيق و التضايف و غيرهما تارة من جهة الهدم و النقض و تارة من جهة الإثبات و الإبرام لوجوده أولها في الحوادث على مدرك الفلسفة و ثانيها في مراتب الأعداد و ثالثها في النفوس المفارقة بزعم الفلاسفة و رابعها بأن وجود الفلك من الأزل إلى زمان الطوفان- أقل منه إلى زماننا و نقضا فقط بأن وجوده تعالى من الأزل إلى زمان الطوفان أقل منه إلى زماننا و خامسها نقضا بأن معلومات الله أزيد من مقدوراته لإحاطة الأول- بالمحالات أيضا مع عدم تناهيهما و الدليل يعطي امتناعه و سادسها نقضا باشتمال كل موجود على صفات غير متناهية كلزوم أمر و لزوم لزومه و هكذا و غيره من النسب المتضاعفة- و سابعها بمنع جواز التطبيق بين السلسلتين لامتناع إحاطة العقل بما لا يتناهى.

بحث و تحصيل

قال بعض الأزكياء الحق أن العدد غير المتناهي بالفعل مطلقا محال

الحكمة المتعالية فی الاسفار العقلیة الاربعة، ج۷، ص ۳۲۰

سواء كان بين الآحاد ترتيب أو لا و ذلك لأنه لو تحقق أمور غير متناهية توقف مجموعها على قدر ما يبقى منه بعد إسقاط واحد و هذا الباقي على ما يبقى منه بعد إسقاط واحد منه و هكذا فيلزم وجود مجموعات غير متناهية يجري فيها التطبيق فإن قلت الموجود في الواقع إنما هو الأمور الكثيرة المتفرقة و لا وجود للمجموع من حيث الوحدة إلا بعد

اعتبار العقل وحدته فلا يلزم الترتيب الواقعي الكافي للتطبيق بين جميع هذه المراتب قلت إذا وجد كثير كالعشرة مثلا فلا شك أنه يوجد فيه التسعة و الثمانية و السبعة و التسعة من حيث إنها تسعة واحدة لها جهة وحدة و إن لم يعتبر العقل و يكفي للتطبيق تدبر انتهى كلامه.

أقول فيه أما أولا فلما علمت أن معنى وجود الكثرة وجودات آحادها لا أن لها وحدة أخرى غير وحدة الآحاد و لهذا قال المحصلون من الحكماء إن وحدة العدد هي نفس كثرته لأنه ماهية ضعيفة الوجود صورتها هي نفس مادتها بعينها كما أن فعلية الهيولى نفس قوتها و استعدادها فليست للكثرة و العدد وحدة إلا بمجرد الاعتبار العقلي- من غير أن يكون لها مطابق خارجي فليس لها توقف على شيء في الواقع إذ ما لا تحقق له في الخارج لا توقف له على غيره.

و أما ثانيا فهب أن للعشرة وجودا و لها توقفا و حاجة إلى ما هو جزء لها فلا تسلم أن لها توقفا على عدد مخصوص مما دونها إذ لا رجحان لتسعة و واحدة على ثمانية و اثنين أو سبعة و ثلاثة أو ستة و أربعة أو خمسة و خمسة فلا اختصاص للتسعة في أن تكون محتاجا إليها أولا دون غيرها بل الحق كما ذكره الشيخ في إلهيات الشفاء أن لا توقف

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۳۲۱

للعدد إلا على الوحدات لا غير.

و أما ثالثا فهب أن للعشرة توقفا على ماهية التسعة لكن لا توقف لها على تسعة مخصوصة إذ يتصور في كل عشرة عشرة أفراد من التسعة إذ بإسقاط كل واحد معين من آحاد العشرة يبقى تسعة مخصوصة فهناك عشرة تسعات لا رجحان بشيء منها بعينه على البواقي في أن يكون مبدءا لوجود العشرة فيلزم في اعتبار أي واحد منها لمبدئية العشرة الترجيح بلا مرجح و لا بد في الترتيب لجريان التطبيق من تخصيص في كل واحدة- من المراتب كما لا يخفى على المتدبر.

الحجة الثامنة

أن العالم بجميع ما فيه ممكن الوجود و كل ما هو موجود ممكن الوجود لذاته فهو حادث فالعالم حادث و ذلك لأن كل ممكن يحتاج إلى المؤثر- و تأثير المؤثر لا يخلو من أقسام ثلاثة لأنه إما أن يكون في حال وجوده أو في حال عدمه- أو لا في حال وجوده و لا في حال عدمه و الأول محال لأنه من قبيل إيجاد الموجود و تحصيل الحاصل و الثاني أيضا محال لكونه جمعا بين الوجود و العدم و هو محال فتعين أن يكون تأثير المؤثر فيه لا في حال الوجود و لا في حال العدم و ذلك هو حال الحدوث فكل ما له مؤثر فهو حادث فالعالم حادث.

و الأولى أن تقرر هكذا تأثير المؤثر إما حال عدمه أو حال حدوثه أو حال بقائه و الأولان يفيدان الدعوى و الثالث باطل لأنه يلزم تحصيل الحاصل و هو محال.

و الجواب أنا نختار أن التأثير في حال الوجود و البقاء قوله ذلك إيجاد للموجود أو إبقاء للباقي قلنا ليس الأمر كذلك و إنما كان كذلك لو كان الفاعل يعطيه وجودا ثانيا

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‏۷، ص ۳۲۲

و بقاء مستأنفا و ليس كذلك بل الفاعل يوجده بنفس هذا الإيجاد لأن تأثير الفاعل في شيء عبارة عن كونه تابعا له في

الوجود واجب الوجود بعلته ثم الذي يدل على أن التأثير- يجب أن يكون في حال الوجود وجوه- أحدها أنه لو بطل أن يكون التأثير في حال الوجود وجب أن يكون إما في حال العدم و يلزم من ذلك الجمع بين الوجود و العدم و ذلك ممتنع أو لا في حال الوجود و لا في حال العدم فيلزم من ذلك ثبوت الواسطة بينهما و ذلك أيضا باطل كما عرفت.

و ثانيها أن الإمكان في كل ممكن علة تامة للاحتياج لما يحكم العقل بأنه أمكن- فاحتاج فلو لم يحتج حال البقاء لزم إما الانقلاب في الماهية أو تخلف المعلول عن العلة التامة.

و ثالثها أن من احتج بهذه الحجة جمع من الأشاعرة و عندهم أن صفاته تعالى زائدة على ذاته قديمة موجودة بإيجاد الذات إياها فهي مادة النقض عليهم.

و رابعها أنه لو استغنى الممكن في حال بقائه عن المؤثر فلزم أنه لو فرض انعدام الباري لم ينعدم العالم و لزمهم أيضا أن لا ينعدم شيء من الحوادث و ذلك باطل قبيح شنيع لكن بعضهم التزموه و قالوا في انعدام العالم إنه تعالى يخلق الفناء و الأولى لهم أن يقولوا حيث رأوا أن الزمان مركب من الآنات و أن للجسم أكوانا دفعية- إنه تعالى يحدث في كل آن عالما آخر.

و خامسها أن الدليل منقوض عليهم باحتياج الحوادث في الأعدام الأزلية إلى العلة إذ الممكن كما لا يوجد بنفسه لا ينعدم بذاته فليلزم عليهم إعدام المعدوم.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج‌۷، ص ۳۲۳

الحجة التاسعة

قررها بعض المتأخرين و هي أن ما سوى الله تعالى إما مجرد و إما جسم أو جسماني و الأول وجوده محال لأنه لو وجد لكان مشاركا له تعالى فوجب أن يمتاز عنه بفصل فيتركب الواجب تعالى هذا محال و أما الثاني فهو حادث لا محالة- لأن كل جسم إما متحرك أو ساكن البتة و كل منهما حادث أما الحركة فلأن ماهيتها تقتضي المسبوقية بغيرها لأنها عبارة عن تغير حال بعد حال و انتقال من حال إلى حال- فلو كانت أزلية لم تكن مسبوقة بالغير فاجتمع النقيضان الأزلية و المسبوقية بالغير هذا خلف و لأنه لو كانت قديمة لكانت كل دورة من دورات الفلك مثلا مسبوقة بأخرى- يكون كل منها مسبوقا بعدم أزلي فاجتمعت الأعدام في الأزل فلم يوجد في الأزل شيء منها و هو المطلوب و لأنه إما أن يكون في الأزل شيء من هذه الحركات أو لا فعلى الثاني يتحقق عدم سابق على الجميع و هو المطلوب و على الأول يكون الحركة الموجود في الأزل متقدمة على جميع الحركات فلها بداية و أما السكون فلأنة عبارة عن الحصول الثاني في الحيز الأول و ملزوم له و الحصول وجودي و قدمه يمنع عدمه لوجوب استناد القديم إلى الواجب الموجب التام لكنه مما يجوز عدمه لجواز الحركة على كل جسم لأنه إن كان بسيطا تشابهت أجزائه فجاز أن يتلبس كل منها بحيز الآخر- و لا يحصل ذلك إلا بالحركة و إن كان مركبا أمكن الحركة على بسائطه و هي يستلزم الحركة عليه أيضا

و الجواب بوجوه

أحدها أن ما ذكروه في نفي المجرد سوى الباري تعالى- يفيد نفي موجود غيره

و اللازم باطل عندهم و عند غيرهم فكذا ما ذكروه.

و ثانيها أنه معارض بالدلائل القائمة

على وجود المجردات و الصور العقلية.

و ثالثها أن الوجودات البسيطة قد مر أنها متمايزة

بالكمال و النقص في نفس ما به الاشتراك من غير حاجة إلى مميز فصلي و أما ما اشتهر من الدفع بأن التجرد أمر سلبي

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۲۴

و الاشتراك في السلوب لا يوجب التركيب بل الامتياز حاصل بين المتشاركات في السلب بنفس ذواتها المتباينة فليس بشيء لأن المجردات لا شبهة في أنها مشتركة في نحو من الوجود مباين لوجود الجسمانيات لكن يعبر عنها بعنوان سلبي كما يعبر عن حقيقة العلم و الإدراك بعدم الغيبة عن الذات و لا شك أن العلم صفة وجودية عبر عنه بعنوان سلبي فالحق ما لوحناك إليه.

و رابعها أن بناء ما ذكروه في هذه الحجة

على أن التجرد ذاتي له تعالى إما نوع أو جنس و على التقديرين يلزم كونه تعالى ذا ماهية و هو محال كما برهن عليه- و أما حقيقة الوجود المشترك عندنا فقد بينا في أوائل هذا الكتاب أنه ليست كليا طبيعيا نوعا أو جنسا و لا غيره من الكليات الخمسة و أما المفهوم الانتزاعي الذي لا وجود له إلا في العقل فلا شك أنه من الخارجيات دون المقومات.

و خامسها أن غاية ما لزم تركب الواجب من أجزاء عقلية

و هم لم يقيموا برهانا على استحالته و هذا إلزامي.

و سادسها أن ماهية الحركة و معناها و إن كانت هي المسبوقية بالغير

أو الانتقال من حال إلى أخرى فذلك لا يستلزم كون تلك الماهية مسبوقة بالغير لما علمت مرارا أن ماهية كل شيء لا يلزم أن يكون من أفراد نفسها و حمل الشيء على نفسه ضروري بالحمل الأولى الذاتي لا بالحمل المتعارف الصناعي فتلك الماهية تقتضي أن يكون كل جزئي من جزئياتها مسبوقا بغيره و أيضا قد علمت أن مسبوقية الماهية بغيرها لا يوجب أن يكون لها أو لأفرادها بداية لا يحصل قبلها.

و سابعها ما قيل إن ما ذكروه

يستدعي حدوث كل انتقال جزئي لا حدوث الحركة التوسطية التي تبقى مع انتقالات الجزئية غير المتناهية.

و ثامنها ما قيل إنه لو سلم ما ذكر

فإنما يدل على حدوث كل شخص من الحركة- لا على حدوث نوعها.

أقول في هذين الجوابين نظر بل كلاهما غير صحيح عندي لأن الحركة بمعنى

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۲۵

التوسط و إن حكم عليها فيما له مبدأ شخصي و منتهى شخصي و فاعل و قابل شخصيان إلا أنها مع ذلك أمر مبهم الوجود في ذاته لا بقاء له بحسب نفسه و إنما بقاؤها كبقاء الهيولى الأولى المفتقرة إلى المتممات النوعية و الشخصية من الصور و كذا الماهية المتعاقبة الأشخاص لا بقاء لها في نفسها و هذا و إن كان بحثا على السند لكن الغرض التنبيه على حقيقة الأمر نعم لو ثبت أن التعاقب في الخصوصيات و الأشخاص للحركة على الاستمرار الاتصالي يوجب بقاء

موضوع شخصي مستدير الجرم قار الذات لكان البحث قويا و ذلك كما علمت منا و الحق أن المتكلمين لو أمكنهم أن يقولوا إن كل جسم و جسماني لا يخلو في حد نفسه عن الحوادث و كل ما لا يخلو في حد نفسه عن الحوادث فهو حادث فكل جسم و جسماني حادث لتم البيان و إلا فلا و لعل مقصود قدمائهم الذين كانوا في الصدر الأول لقرب زمانهم بزمان النبوة و الوحي ما ذهبنا إليه مطابقا لكلام أساطين الحكمة الذين اقتبسوا أنوارهم من مشكاة النبوة.

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۲۶

و تاسعها أن كون كل دورة مسبوقة بالعدم

الأزلي إنما يستدعي اجتماع أعدامها في الأزل بمعنى أنها تجتمع في هذا الحكم لا أنها تتفق في الحصول في وقت معين و أيضا إنا نختار أنه لم يكن في الأزل شيء من هذه الحركات بمعنى أنه ليس شيء منها أزليا- لا بمعنى أن الأزل زمان معين بل الزمان المعين لم يوجد فيه شيء منها و ظاهر أنه لا يفيد المطلوب و أيضا إنا نختار أن في الأزل تحقق شيء من هذه الحركات قوله يكون الحركة الموجودة في الأزل مقدمة على جميع الحركات فلها بداية قلنا نعم بمعنى أن هذه الحركة الأزلية ليست مسبوقة بحركة أخرى لا بمعنى أنه يتحقق عدم سابق على الجميع إذ كونها أزلية ينافي ذلك.

و لأصحاب الحدوث حجج أخرى لو لا مخافة التطويل لأوردتها مع ما يرد عليها- و الغرض من إيراد ما ذكرنا أن يحيط الناظر في هذه المسألة بأطراف ما قالوا و وجوه الاحتجاجات التي ذكروا من الجانبين ليعلم قدر ما تفطنا به و سلكنا سبيله و لا يحمل كلامنا على مجرد المكاشفة و الذوق أو تقليد الشريعة من غير ممارسة الحجج و البراهين و التزام القوانين فإن مجرد الكشف غير كاف في السلوك من غير برهان كما أن مجرد البحث من غير مكاشفة نقصان عظيم في السير و الله المعين

الفصل (۵) في طريق التوفيق بين الشريعة و الحكمة في دوام فيض الباري و حدوث العالم

قد أشرنا مرارا إلى أن الحكمة غير مخالفة للشرائع الحقة الإلهية بل المقصود منهما شيء واحد هي معرفة الحق الأول و صفاته و أفعاله و هذه تحصل تارة بطريق الوحي

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۲۷

و الرسالة فتسمى بالنبوة و تارة بطريق السلوك و الكسب فتسمى بالحكمة و الولاية- و إنما يقول بمخالفتهما في المقصود من لا معرفة لتطبيق الخطابات الشرعية على البراهين الحكمية و لا يقدر على ذلك إلا مؤيد من عند الله كامل في العلوم الحكمية مطلع على الأسرار النبوية فإنه قد يكون الإنسان بارعا في الحكمة البحثية و لا حظ له من علم الكتاب و الشريعة أو بالعكس فالعقل السليم إذا تأمل تأملا شافيا و تشبث بذيل الإنصاف متبريا عن الميل و الانحراف و العناد و الاعتساف و تدبر أن طائفة من العقول الزكية و النفوس المطهرة الذين لم يتنجس بواطنهم بأرجاس الجاهلية و أدناس النفسانية و لم ينحرفوا عن سبيل التقديس و لم يأتوا بباطل و لا تدليس و كانوا مؤيدين من عند الله بأمور غريبة في العلم و العمل معجزات و خوارق للعادات من غير سحر و حيل و لا غش و لا دغل ثم أصروا على القول بحدوث هذا العالم و خرابه و بواره و انشقاق أسقافه و انهدام طاقاته و تساقط كواكبه و انكدارها و طي سماواته و بيد أرضه و انفجار بحارها و سيران جبالها و نسفها و بالغوا في ذلك و تشددوا في الإنكار على منكريه مع ظهور أنه لا يضرهم

القول بقدم العالم مع بقاء النفوس بعد الأبدان الشخصية و إثبات الخيرات و الشرور النفسانية في المعاد- و لا يخل بالشريعة في ظاهر الأمر فيجزم لا محالة بأنهم ما نطقوا عن الهوى و ما أخبروا عن يقين حق و اعتقاد صدق ثم إذا راجعنا إلى البراهين العقلية التي لا شك و لا ريب في مقدماتها اليقينية الاضطرارية وجدناها ناهضة على أن صانع العالم واحد صمد لا يعتريه نقص و لا تغير- و لا انزعاج من حالة إلى حالة و لا فتور في فاعليته و لا إمساك في فيضه و لا بخل في

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۲۸

إحسانه و لا توقف على إرادة سانحة أو حضور وقت مناسب أو قصد إلى تحصيل مصلحة له أو لغيره فإن من قصد في إيجاد شيء تحصيل مصلحة و إن كانت لغيره أو إيصال منفعة- و إن كان إلى غيره فهو ناقص في نفسه محتاج في كماله إلى غيره لأن ذلك التحصيل أو الإيصال إن لم يكن أولى له من عدمه فلم يقصده و إن كان أولى فهو بذلك محصل كمال لنفسه من غيره إذ بدونه فاقد ذلك الكمال فعلم أنه تام الفاعلية تام الإرادة ليس في ذاته قصد زائد أو إرادة حادثة فيجب كونه صانعا فياضا لم يزل و لا يزال باسطا يده بالرحمة و العطاء في الآباد و الأزل بلا قصور إنما القصور فينا أبناء عالم الدنيا و الأجسام- و سكان قرية الهيولى الظالم أهلها و هي دار الزوال و الانتقال.

فإذن الجمع بين الحكمة و الشريعة في هذه المسألة العظيمة لا يمكن إلا بما هدانا الله إليه و كشف الحجاب عن وجه بصيرتنا لملاحظة الأمر على ما هي عليه من تحقيق تجدد الأكوان الطبيعية الجسمانية و عدم خلوها في ذاتها عن الحوادث فالفيض من عند الله باق دائم و العالم متبدل زائل في كل حين و إنما بقاؤه بتوارد الأمثال كبقاء الأنفاس في مدة حياة كل واحد من الناس و الخلق في ليس و ذهول عن تشابه الأمثال و تعاقبها على وجه الاتصال.

ذكر تنبيهي

قال بعض العرفاء في كتابه المسمى بزبدة الحقائق و قول القائل العالم قديم بالزمان هوس محض لا طائل تحته إذ يقال له ما الذي تعني بالعالم- فإما أن يقول أعني به الأجسام كلها كالسماوات و الأمهات أو يقول أعني به كل موجود سوى الله فإن قال أعني به كل موجود ممكن من الأجسام و غيرها كالعقول و النفوس- فعلى هذا يكون أكثر الموجودات المندرجة تحت لفظ العالم غير متوقف الوجود على وجود الزمان بل يكون بالضرورة سابق الوجود عليه فكيف يقال العالم قديم

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۲۹

بالزمان و أكثر موجودات العالم سابق الوجود على الزمان و إن قال أعني بالعالم الأجسام كلها فلا يجوز على هذا الوجه أيضا لأن معنى ذلك أن الأجسام موجود مذ قد كان الزمان موجودا فيكون مشعرا بأن الزمان سابق على الأجسام في الوجود و ليس كذلك فإن الأجسام سابقة الوجود على الزمان و الزمان متأخر الوجود عنها و إن كان ذلك بالرتبة و الذات انتهى كلامه.

أقول لا يخفى ما فيه من النظر فإن المعية الزمانية بين الشيئين لا ينافي التقدم الذاتي لأحدهما على الآخر لكن بعد النظر العميق و البحث الشديد يظهر حقية ما ذكره هذا العارف إذ النسبة بين الزمان و الجسم كالنسبة بين الهيولى و الصورة

الحكمة المتعالية فی الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۳۰

بالتلازم و الزمان من جملة المشخصات للجسم كما أن الهيولى باستعدادها من جملة المشخصات للصورة فكما أن النظر في كيفية التلازم بين المادة و الصورة يعطي الحكم بتجدد كل منهما فإن الصورة بحقيقتها يستلزم المادة و تفيدها على وجه الفاعلية فيلزمها المادة لزوم الفعل للفاعل الموجب فيتصورها المادة بها و تستكمل بوجودها.

ثم إن المادة باستعدادها تتهيأ لقبول صورة عاقبة لخصوصيتها لتلك السابقة على وجه الإعداد فيلزمها أيضا مادة أخرى فلا يزال الصورة علة لهيولى بالإيجاب و الفعل- و المادة علة للصورة بالإعداد و القبول فهما متجددتان في الوجود فكذا الحكم في تجدد كل من هويتي الزمان و الجسم فالزمان علة تشخص الجسم و حدوثه و الجسم علة بقاء الزمان و استمراره و لأجل ذلك قد نص زيتون الأكبر حسب ما نقلنا من كلامه- في العلم الكلي على تجدد كل من الهيولى و الصورة أنه قال إن الموجودات باقية داثرة أما بقاؤها فيتجدد صورها و أما دثورها فبدثور الصورة الأولى عند تجدد الأخرى- و ذكر أن الدثور قد لزم الصورة و الهيولى معا.

ثم قال صاحب الزبدة فإن زعمت أن الأجسام كانت موجودة مذ كان الحق موجودا فهو خطأ عظيم و هو اعتقاد أكثر العلماء الذين يزعمون أنهم فاقوا في صدق النظر على الأولين و الآخرين و مما لا بد في هذا المقام أن يعلم أن الأجسام لا يوجد أصلا حيث

الحكمة المتعالية فی الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۳۱

يوجد الحق الأول لا الآن و لا قبله و لا بعده و من ذهب إلى أن العالم موجود الآن مع وجود الحق فهو مخطىء خطأ عظيما فحيث الحق لا زمان و لا مكان و محيط بالزمان و المكان و بسائر الموجودات فإن سبق وجوده على شيء كسبقه على غيره فإنه سابق الوجود على وجود العالم كما أنه سابق الوجود على وجود صورة هذه الكلمات المسطورة في هذا الكتاب من غير فرق أصلا و من فرق بينهما فهو بعد في مضيق الشبه و لم ينزه الحق عن الشبه و لم ينزه الحق عن الزمان كما لم ينزه عن المكان عند العوام الذين يزعمون أنه جسم مكاني كسائر المحسوسات و هذا الإيمان بعيد عن الإيمان الحقيقي الحاصل للعارف في أول سلوكه- و الله عز و جل سابق على الزمن الماضي حيث سبقه على الزمان المستقبل من غير فرق- و هذا يقيني عند العارف و العلماء عاجزون عن إدراكه بالضرورة و لو لم يعجزوا لما قالوا- إن العالم مساو في الوجود لوجود الحق الأول كما لم يقولوا إن صور هذه الحروف مثلا- يساوي وجود الله المنزه عن هذه الظنون انتهى كلامه.

نقد و تحصيل

اعلم أن القول بأن العالم غير موجود مع الحق في مرتبة وجوده- قول محصل لا شبهة فيه عند العلماء لكن الثابت بالبرهان و المعتضد بالكشف و العيان- أن الحق موجود مع العالم و مع كل جزء من أجزاء العالم و كذا الحال في نسبة كل علة مقتضية بالقياس إلى معلولها فالمعلول لأجل نقصه و إمكانه غير موجود مع العلة في مرتبة ذاتها الكمالية و لكن العلة موجودة مع المعلول في مرتبة وجود المعلول من غير مزايلة عن وجودها الكمالي و من أمعن في تحقيق هذه المسألة أوتي خيرا كثيرا و الدليل على ما ذكرنا قوله سبحانه **هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ** و قوله **وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّمٰاءِ**

الحكمة المتعالية فى الاسفار العقلية الاربعة، ج۷، ص ۳۳۲

إِلٰهٌ وَ فِي الأَرْضِ إِلٰهٌ و قوله **فَأَيْنَمٰا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ** و غير ذلك من الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية.

فإذا تقرر هذا نرجع و نقول إن الحق المنزه عن الزمان موجود في كل وقت من الأوقات لا على وجه الاختصاص و التعليق و الحق المنزه عن المكان موجود في كل واحد واحد من الأمكنة لا على وجه التقييد و التطبيق كما يقوله المشبهة و لا على وجه المباينة و الفراق كما يقوله المنزهة من العلماء الذين لم يبلغوا في العلم إلى درجة العرفاء ليعرفون أن تنزيههم ضرب من التشبيه و التقييد لجعلهم مبدأ العالم محصور الوجود بالتجرد عن بعض أنحاء الوجود بالمباينة و المغايرة و قد ثبت أن واجب الوجود بالذات واجب الوجود من جميع الجهات و الحيثيات و ليست في ذاته المحيطة بالكل جهة إمكانية فهو مع كل موجود بكل جهة من غير تقييد و لا تكثر فهو في كل شيء و ليس في شيء و في كل زمان و ليس في زمان و في كل مكان و ليس في مكان- بل هو كل الأشياء و ليس هو الأشياء